7 ـ الحارث بن حِلّزة اليشكري

هـو الحـارث بن حلّـزة بن مكروه ، ويصـل نسبـه الكريم إلى جشم بن ذبيـان بن كنانة بن يشكر بن وائل بن قاسط وينتهي عند جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عـدنـان (الجمحي ص85 ، الأصبهـاني 171/9 والتبريزي ص249 والشنقيطي ص99) وقد اشتهر بمعلقته التي نال بها مجداً وبـات الحـارث مثلاً في الفخر حتى قـالت العرب : « أفخر من الحارث بن حلزة » . وقيل : إنه ارتجلها في حكاية مشهورة جمعت بينه وبين عمرو بن كلثوم في بلاط ملك الحيرة عمرو بن هنـد ، وكانت أم الملـك مولهـة بـالشعر وحين سمعت إنشـاد الحـارث أعجبت بشعره أشـد العجب ، وقـالت : (تـالله ما رأيت ولا سمعت كاليوم قط رجلاً يقول مثل هذا القول) .

والسبب الـذي دعـا الحـارث إلى ارتجـال معلقتـه أن عمرو بن هنـد ملـك الحيرة المعروف بجبروته وعدوانيتـه قرر إجراء الصلح بين بكر وتغلب ابني وائل ، فـاستجـاب الحيان لقراره ، بيد أنه (الملك) خشي أن ينقض أحد الحيين الصلح ، فتزول هيبته بين العرب فأخذ من كل حيّ رهينة قوامها مئة غلام ليكفّ بعضهم عن بعض ، وقـد تصرّف الملك بالرهائن وهم أمانة في عنقه ، فكانوا معه في مسيره وغزوه ، ولم يكتف بذلك فقـد أرسل ركباً من بني تغلب إلى جبل طيء في شـأن من شؤونـه الخـاصـة فنزل الرهـائن التغالبة في منطقـة الطرفـة المحميـة من قبل بني شيبـان وتيم اللات فطُردوا من الطرفـة ومنعوا عنهم المـاء ، وأرسلـوهم في الصحراء فمـات الرهـائن التغلبيـون عطشـاً (الأغـاني 171/9) .

يقـول التبريـزي في شرح القصـائـد العشر ص 251 : (وكان عمرو بن هنـد سُريراً !!) وقـد غضبت تغلب غضبـاً شـديـداً ، ولم يعبـأ عمرو بن هنـد بمـا جرّه سوء

تصرفه على بعض رهائن تميم ، فما إن كسرت كندة الخراج على مملكته حتى بعث إليهم البعض الآخر من الرهائن التغلبيين ليستحصلوا من كندة الأموال فقتلتهم كندة !! وكان الملك قد بعث الرهائن وممثلي الحيين في أول الأمر إلى مكة ليتعاهدوا في الكعبة على أن لا تبقى في نفوس المتعاهدين غائلة أو رغبة في الانتقام ففعلوا ، ثم قال الملك للمتعاهدين : « أي رجل وجد قتيلاً في دار قوم فهم ضامنون لدمه ، وإن وجد بين القتيل بين المحلتين ، قيس ما بينهما فينظر أقربهما إليه فتضمن ذلك القتيل » . فرضي الطرفان ، ثم إن الأحياء من رهائن تغلب اقتيدوا مع الملك في واحدة من حروبه فأصيبوا . والغريب حقاً أن يتصرّف عمرو بن هند مع التغلبيين على هذا النحو من السوء وهو الذي يميل إليهم ويفضلهم على بكر !! فما كان من التغلبيين إلا أن ذهبوا إلى البكريين وطالبوهم بديات الرهائن فأبت بكر بن وائل !! فاجتمعت تغلب إلى عمرو بن كلثوم وأخبروه بالظلم الذي حاق برهائنهم وتوقع عمرو بن كلثوم أن يكون (للأحمر الأصلخ الأصم من بني يشكر) يد في ذلك ، وقد صدق توقعه إذ مثل بكراً النعمان بن هرم اليشكري وهو على الصفة التي ذكرها عمرو بن كلثوم ، وحين اجتمع عمرو بن كلثوم والنعمان اليشكري عند الملك لم يتمالك عمرو بن كلثوم مشاعره فنافر النعمان قائلاً : « يا أصم جاءت بك أولاد ثعلبة تناضل عنهم ، وهم يفخرون عليك » . فقال النعمان : « يفخرون عليّ وعلى من أظلت السماء كلها ، يفخرون ولا ينكر عليهم أحد ذلك » . فقال ابن كلثوم : « أما والله لو لطمتك لطمة ما أخذوا لك بها » فقال النعمان : « والله لو فعلت ما ادّعيت ، لما أفلتت بها قيس فحولة أبيك » . فغضب الملك عمرو بن هند ، وكان يؤثر بني تغلب على بكر ، فأراد الانتقاص من عتو النعمان اليشكري فطلب إلى مغنية كانت في مجلسه ، أن تكلم اليشكري بلسان أنثى شبيه بلسان اليشكري !! فقال النعمان وقد نسي أنه يخاطب الملك : « أيها الملك اعطِ أمرك أجبّ أهلك إليك » . فغضب الملك من اليشكري وتصابر عليه وعابثه مغتاضاً قائلاً : يا نعمان أيسرّك أني أبوك فقال لا ولكن وددت أنك أمي . فندم الملك على معابثته ،

وغضب غضباً شديداً حتى هم بقتل النعمان في مجلسه ، فأدرك الحارث بن حلزة اليشكري وكان حاضراً حراجة الموقف الذي أضحى فيه قومه . فارتجل قصيدته هذه ارتجالاً .. وكان من شدة تأثر الشاعر بموقفه الصعب وانشغاله بارتجال قصيدة تشفع لقومه أن توكأ على قوسه وهو ينشد فاقتطم القوس كفه وهو لا يشعر من الغضب حتى فرغ منها !! وروي عن أجواء ارتجال المعلقة خبر آخر ، هو أن الشاعر قال لقومه : إني قد قلت خطبة فمن ألقاها عني ظفر بحجته ، وفلج على خصمه ، ولقّنها أناساً منهم فلما مثلوا بين يدي الملك وأنشدوها لم يرق له إنشادهم وأعجب بالقصيدة ، فقال الحارث إني لا أرى أحداً يقوم بإنشادها مقامي لكنني أكره أن أنشد قصيدتي من وراء سبعة ستور كما أكره أن يغسل أثري بالماء إذا انصرفت عنه ، وكان الملك يفعل ذلك لعظم سلطانه ولا يجمعه مجلس مباشر بأي شاعر فيه برص ... ثم تنازل الحارث عن تردده ورضي احتمال ذلك لخوفه على قومه من بطش الملك الذي استفزه النعمان اليشكري ! ثم قيل للملك : إن بالشاعر برصاً فأمر أن تحجز بينه وبين الحارث سبعة ستور وكان عمرو بن كلثوم حاضراً فسرّه ذلك واستهزأ بالحارث ، وقال للملك : أهذا يناطقني وهو الذي تطيقه راحلته ، فقال له الملك : انتظر حتى أفحمه ! وكان الحارث يصغي لحوار ابن كلثوم مع ابن هند ... فأنشد قصيدته :

آذنتنا ببينها أسماء ربَّ ثاوٍ يُمَلُّ منه الثواء

وكانت هند أم عمرو كما ألمحنا سابقاً مولهة بالشعر ، وتعطي الجوائز للشعراء ، وحين سمعته ينشد قالت تالله ما رأيت ولا سمعت كاليوم قطّ شاعراً يقول مثل هذا القول ، وينشد من وراء سبعة ستور فقال الملك ارفعوا ستراً واحداً وقرّبوا موقف الشاعر فلم يزل عمرو يقول أدنوه أدنوه حتى أمر بطرح جميع الستر وأقعده بجانبه ، وبالغ في إكرامه وأكل معه في جفنة واحدة وأمر أن لا ينضح أثره بالماء ثم جزّ نواصي رهائن بكر ودفعهم إلى الحارث إكراماً له ، ثم أمره أن لا ينشد قصيدته (إلا متوضئاً !!) ولم تزل تلك النواصي في بني بكر يفتخرون بها وبشاعرهم وكان أبو عمرو

الشيباني يعجب لارتجال هذه القصيدة في موقف واحد ويقول : « لو قالها الحارث في حول لم يلم » . وقد جمع منها الشاعر ذكر عدة أيام من حروب العرب عرّض في بعضها ببني تغلب وعيّرهم صراحة كما عرض بعمرو بن هند ! وعاش بعد ذلك مدة طويلة وهو من المعمرين مات وله مئة وخمسون سنة (الشنقيطي 98) .

وذكر الأصبهاني 171/9 أن الحارث بن حلزة لما ارتجل هذه القصيدة بين يدي عمرو بن هند قام عمرو بن كلثوم فارتجل معلقته !! وقد أفاض الأصبهاني في خبر الحارث وقومه وقصيدته ، بل وذهب إلى أكثر من ذلك ، حين نجّم بعض أبيات القصيدة ليحلل إشاراتها ويذكر دلالاتها ويقابلها بالأسماء والأيام والأحداث !! ومن الملفت للانتباه أن الجمحي جعل الحارث في الطبقة السادسة وحشر معه عمرو بن كلثوم وعنترة وسويد بن أبي كاهل (ص85) وأن القرشي لم يشر إليه في جمهرة أشعار العرب كما أن ابن قتيبة لم يول الحارث مقداره من الأهمية ، فخصص له نصف صفحة على أنه انفرد بخبرين هما :

1 ـ أقوى الحارث بن حلزة في قصيدته التي ارتجلها ولن يضرّ ذلك في هذه القصيدة لأنه ارتجلها فكانت كالخطبة .. أما البيت فهو :

فملكنا بذلك الناس إذْ ما ملكَ المنذرُ بن ماءِ السماءِ

2 ـ وكان الحارث متوكئاً على عنزة (عصا) فارتزت في جسده وهو لا يشعر (116/1) .

☆ معلقة (آذنتنا) . البحر : الخفيف . القافية : ء . عدد الأبيات : 85

1- آذَنَتْنـــــا ببيْنهـــــا أسماء رُبَّ ثـــاوٍ يُمَـلُّ منـــه الثـواء
2- بعْـــد عهْـــد لهـــا ببرقـــةَ شماء فـــأدنى ديـــارهـــا الخلْصـــاء
3- فـالحياةُ فـالصَّفـاحُ فـأعلى ذي فتـاقٍ فعَـاذبٌ فـالـوفـاء
4- فريـاضُ القطـا فـأوديـة الشُّرْ بُبِ فـالشعبتـان فـالأبـلاء
5- لا أرى مَن عَهِدت فيهـا فـأبكي الـ ـيـوم دَلْهـا ومـا يَرُدُّ البكاء
6- وبعينيـكَ أوقـدتْ هنـد النّـا رَ أصيـلا تُلـوي بهَـا العليـاء
7- أوقَـدَتْهـا بين العقيـقِ فشخصيـ ـنِ بعـود كما يلـوح الضيـاء
8- فتنـوَّرْتُ نـارَهـا مَن بعيـد بخـزازٍ هيهـاتَ مِنـكَ الصّلاء
9- غير أني قـد أستعينُ على الهمّ إذا خفَّ بـالثـويّ النجـاء
10- بـزَفـوفٍ كأنهـا هِفلـةٌ أُمّ رئـالٍ دويَّـةٌ سقفـاء
11- آنست بنـأة وأفـزعهـا القنّـاصُ عصراً وقـد دنـا الإمسـاء
12- فترى خلفهـا من الرجـع والـوقـ ـع منينـاً كأنـه إهبـاء
13- وطِراقـاً من خلفهن طِراقٌ ساقطـاتٌ ألـوت بهـا الصحراء
14- أتلهى بهـا الهـواجرَ إذ كلُّ ابنِ همّ بليـةٌ عميـاء
15- وأتـانـا عن الأراقِم أنبـا ءٌ وخطب نُعنى بـه ونُسـاء
16- أنّ إخـواننـا الأراقَمَ يَغلـو نَ علينـا في قيلهم إحفـاء
17- يخلطـون البريء مِنـا بـذي الـذّنب ولا ينفـعُ الخليَّ الخـلاء
18- زعمـوا أن كلَّ من ضَرَب العيـ ـرَ مـوال لنـا وأنّـا الـولاء
19- أجمعـوا أمرهم بليـل فلمـا أصبحـوا أصبحت لهم ضوضـاء
20- من مُنـادٍ ومن مجيب ومن تصـ ـهـال خيـلٍ خـلال ذاك رُغـاء
21- أيُّهـا النـاطـقُ المُرقِّشُ عنّـا عنـد عمْرٍ وهـل لـذاكَ بقـاء
22- لا تَخَلْنـا على غراتِـكَ إنـا طـالمـا مـاقـد وشى بنـا الأعـداء

23- فبقينـــا على الشنـــاءةِ تنيـ ـنـا جُـــدودٌ وعـزَّةٌ قعســاء
24- قبْـل مـــا اليـوم بيّضت بعيـون النـــاسِ فيهـــا تَعَيُّـــطٌ وإبـــاء
25- وكأنّ المنـــون تردي بنـــا أر عنَ جـونـاً ينجـابُ عنـه العماء
26- مكفهِرّاً على الحـوادثِ مـــا تر تـوهُ للـدهْرِ مُـؤْيـدٌ صمّـاء
27- أيّا خطّـــةٍ أردتُمَ فـــأدّو هـا إلينـا تمشي بهـا الإمـلاء
28- إن نبشتُم مـا بين ملحـة فـالصّـا قِب فيـه الأمـواتُ والأحيـاء
29- أو نقشتم فـالنقش يجشمُـهُ النـا سُ وفيـه السقـام والأبراء
30- أو سكتم عنّـا فكنّـا كمن أغـ ـمضَ عينـاً في جفنهـا أقـذاء
31- أو منعتم مـا تُسـألـون فَمَن حُـدِّثتموه لـه علينـا العـلاء
32- هـل علمتم أيـام ينتهب النّـا سُ غِـواراً لكلّ حيٍّ عُـواء
33- إذ رفعنـا الجمـال من سعف البحـ ـرينِ سيراً حتى نهـا الحِساء
34- ثمّ ملنـا على تميم فـأحرمـ ـنـا وفينـا بنـاتُ مُرٍّ إمـاء
35- لا يُقيمُ العـزيـزُ بـالبلـدِ السهـ ـلِ ولا ينفـع الـذليـلَ النّجـاءُ
36- ليس ينجي مـوائِـلاً من حِـذارٍ رأسُ طـوْدٍ وحَرَّةٌ رجـلاءُ
37- فلكنـا بـذلـك النـاسَ حتى ملَـكَ المنـذرُ بنُ مـاء السماءِ!!
38- وهـو الرَّبُّ والشهيـدُ على يـو مِ الحيـاريْنِ والبـلاءُ بـلاء
39- ملـكٌ أضلعُ البريـةِ مـايـو جَـدُ فيها لمـا لَـدَيـه كِفـاء
40- فـاتركـوا الطّيْـخَ والتعـدّي وإمّـا تَعَـاشْـوا ففي التعـاشي الـدّاءُ
41- واذكروا حلفَ ذي المجـاز ومـا قُـدِّمَ فيـه العهـودُ والكفـلاء
42- حَـذَرَ الجـور والتعـدّي ولنَ ينـ ـقُضَ مـا في المهـارقِ الأهـواء
43- واعلمـوا أننـا وإيّـاكم فيما اشترطنـا يـوم اختلفنـا سـواء
44- أعلينـا جنـاحُ كنـدةَ أن يغـ ـنَمَ غـازيُّهم ومنّـا الجـزاء
45- أم علينـا جرى حنيفـة أو مـا جَمَعَتْ من محـارب غبراءُ

46- أمْ جنـــايـــا بني عتيـقٍ فمن يغـ ـــدِر فـــإنّـــا من حربهم أبراء
47- أم علينـــا جرّى العِبـــاد كما نيـ ـــط بجـوزِ المحمّـل الأعبـــاء
48- أمْ علينـــا جرّى قضـــاعـــةَ أم ليـ ـسَ علينـــا فيما جَنَـوا أنـــداء
49- أم علينـــا جرّى إيـــاد كما قيـ ـــلَ لطسم أخـــوكُم الأبّـــاء
50- ليس مِنـــا المضرّبـــون ولا قيـ ـسٌ ولا جَنْـــدلٌ ولا الحـــداء
51- عَننـــاً بـــاطِـــلاً وظُلْماً كما تُعْـ ـتَرُ عن حجرةِ الربيض الظِبـــاء
52- وثمـــانـون من تميم بـــأيـــديـ ـهِم رمـــاحٌ صـــدورهن القضـــاء
53- لم يخلـــوا بني رِزاحٍ ببرقـــا ء نطـــاعٍ لهُمْ عليهم دُعـــاء
54- تركـــوهُم ملحّبين وآبـــوا بنهـــابٍ يُصَمُّ منهـــا الْحُـــداء
55- ثم جـــاؤوا يسترجعـــون فلم تَرْ جِـعْ لهم شـــامـــةٌ ولا زهراء
56- ثم فـــاؤوا منهم بقـــاصمـــةِ الظهـ ـرِ ولا يَبْرُدُ الغليـــلَ المـــاءُ
57- ثمَّ خيْـــلٌ من بعـــد ذاك مـــع الغـــلاّقِ لا رأفـــةٌ ولا إبقـــاء
58- مـــا أصـــابـوا من تغلبي فطلـو لٌ عليـــه إذا تـــولّى العَفـــاء
59- كتكاليف قـومنـــا إذا غـــزا المِنـ ـذِرُ هـل نحن لابن هنـــد رعـــاء
60- إذ أحـلّ العـــلاةَ قبّـــة ميسـو نَ فـأدنى ديـارهـا العـوصـاء
61- فتـــأوّتْ لهم قراضبـــةٌ من كُـــلٌ حيٍّ كأنهم ألقـــاء
62- فهـــداهم بـــالأسـودين وأمرُ الله بلْـــغٌ تشقى بـــه الأشقيـــاء
63- إذ تمنـــونهم غروراً فســـاقتـ ـهُمْ إليكم أمنيـــــــةٌ أشراء
64- لم يغروركم غروراً ولكن يرفـــعُ الآلُ جمعهم والضحـــاء
65- أيّهـــا الشـــانئُ المبلّـغ عنّـــا عنـد عمرو وهـل لـذاك انتهـاء
66- إن عمراً لنـــا لـــديـــه خـلال غيرَ شـــكٍّ في كلّهن البـــلاء
67- مَلِـكٌ مُقْسِـطٌ وأتحمـلُ من يَمْـ ـشي ومن دونِ مـالـديـه الثنـاء
68- إرميٌّ بمثلـــهِ جـــالت الجِنُّ فـــآبت لخصمهـــا الأجـــلاء

69- مَن لنـــا عنـــده من الخير آيـــا ... تٌ ثـــلاثٌ في كَلِهنَّ القضـــاء

70- آيـــةٌ شـــارقٌ الشقيقـــة إذ جـــا ... ؤوا جميعـــاً لكلِّ حيٍّ لـــواء

71- حـــــولَ قيسٍ مستلئمين بكبشٍ ... قرظيٍّ كأنـــــه عبـــــلاء

72- وصتيت من العـواتـــك مـــاتنـ ... ـهـــاه إلا مبيضـــةٌ رَعـــلاء

73- فجبهنـــــــاهم بضرْبٍ كما يَخْـ ... ـرُجُ من خُربـــةِ المـــزادِ المـــاء

74- وحملنـــــاهُمُ على حـــزن ثهـــلا ... نَ شِـــلالاً ودُمّي الأنســـــاء

75- وفعلنـــــا بهم كما عِلم اللهُ ومـــــا ... إن للخـــــائنين دمـــــاء

76- ثُمَّ حُجْراً أعني ابنَ أُمِّ قَطـــــامٍ ... ولـــه فـــارسيـــةٌ خضراء

77- أسَـــدٌ في اللقـــاء وَرْدٌ همـــوس ... وربيـــــــعٌ إن شنّعتْ غبراءُ

78- ورددنـــــــاهم بطعن كما تَنْـ ... ـهَـزُ عن جمـــةِ الطـوىّ الـــدّلاء

79- وفككنـــا غُـلَّ امرئ القيس عنـــه ... بعـد مـا طـال حبسـه والعَنـاء

80- وأقـــدنـــاهُ رَبَّ غسّـــان بـــالمنـ ... ـــذر كَرْهـــاً إذ لا تكال الـــدِماء

81- وفـــديـنـــاهمُ بتسعـــةِ أمـــلا ... كٍ كرام أسـلابهم أغـــلاء

82- ومـــع الجـــون جـــون آل بني الأو ... سِ عَنـــودٌ كأنهـــا دفـــواء

83- مـــا جـزعنـــا تحت العجـــاجـــة إذ ولّتْ بـــأقفـــائهـــا وحرّ الصّلاء

84- وولـــدنـــا عَمْرَ بن أمّ أنـــاس ... من قريبٍ لمـــا أتـــانـــا الحبـــاء

85- مثلهـــا يُخرِجُ التصيحـــة للقـــو ... مِ فـــلاةٌ من دونهـــا أفـــلاء

☆ معاني الكلمات

1 ـ آذنتنا : أعلمتنا . البين : الفراق . الثاوي : المقيم .

2 ـ شماء : هضبة معروفة . البرقة : رابية فيها رمل وطين أو طين وحجارة . الخلصاء : آبار ماء بالبادية .

3 ـ الحياة والصّفاح وذو فتاق وعاذب والوفاء : أسماء مواضع للشاعر فيها ذكريات مع الحبيبة .

4 ـ رياض القطا وأودية الشريب والشعبتان والأبلاء : أسماء مواضع أيضاً .

5 ـ الدّلة : الباطل والحيرة .

6 ـ العلياء : المرتفع من الأرض .

7 ـ شُخصان : أكمة لها شعبتان . العقيق : موضع . العود : البخور . الضياء : الفجر .

8 ـ تنورت : نظرت لأعرف القرب من البعد والكثرة من القلة . خزازى : موضع .

9 ـ الثوي : المقيم . النجاء : السرعة .

10 ـ الزفيف : السرعة . الهقلة : النعامة . الرأل : ولد النعامة . الدوية : الأرض البعيدة الأطراف . سقفاء : مرتفعة .

11 ـ آنست : أحست . النبأة : الصوت الخفي . العصر : آخر النهار .

12 ـ المنين : الغبار الدقيق وكل ضعيف منين . الرجع : رجع القوائم . الوقع : وقع الخفاف . الإهباء : إثارة التراب والغبار .

13 ـ الطراق : مطارقة نعال الإبل . الساقطات : ماتساقط من الأرجل . تلوي : تذهب وتفرّق .

14 ـ ابن هم : صاحب الهم . البلية : ناقة الرجل إذا مات عقلت عند القبر مما يلي رأسه ، وعكس رأسها إلى ذنبها فتترك لا تأكل ولا تشرب حتى تموت فهي عياء لا تتجه لأمرها ويظن الجاهليون أن صاحبها إذا قام من قبره حين ينشر ركبها !

15 ـ الأراقم : أحياء من بني تغلب بن وائل وقيل في سبب الاسم أن ناظراً نظر إليهم تحت الدثار وهم صغار فقال كأن أعينهم أعين الأراقم أي الأفاعي ! نعنى به : نُتّهم أو نهتم به . نُساء : يساء بنا الظن أو نستاء ..

16 ـ يغلون علينا : يظلموننا والغلو الارتفاع والزيادة . أحفاء : استقصوا علينا ونقضوا العهد أو أنهم كلفونا فوق ما نطيق .

17 ـ الخلاء : البراءة والترك .

18 ـ العير : الوتد والحمار . إنا الولاء : نحن ولاتهم وأهل الولاء .

20 ـ الرغاء : أصوات الإبل .

21 ـ المرقّش : الذي يزيّن القول بالباطل ويخاطب هنا الشاعر عمرو بن كلثوم .

22 ـ لا تخلنا : لا تحسبنا . غراتك : إغراء الملك بنا .

23 ـ الشناءة : البغض . الجدود : الحظوظ . القعساء : الثابتة . تنينا : ترفعنا .

24 ـ بيضت : غطت على أبصارهم . اعتاطت الناقة : إذا لم تحمل وامتنعت عن الفحل ورجل أعيط وامرأة عيطاء إذا كانا طويلين ، وزعم أن العيط طول العنق .

25 ـ المنون : المنية والدهر لأنه يذهب بمُنة كل شيء والمنة بالضم قوة الجسد وبخاصة القلب . الأرعن : الجبل والجيش . الجون : الأسود والأبيض ، والمراد به هنا الأسود . ينجاب : ينشق . العهاء : السحاب الأبيض .

26 ـ المكفهر : الغليظ المتراكب بعضه على بعض . ترتوه : تنقصه أو ترميه أو تشدّه . المؤيد : الشديد الأيد ، أي القوي والداهية . صماء : لا تسمع فيعتذر لها .

27 ـ الخطة : الأمر يقع بين القوم يشتجرون فيه . أدّوها إلينا : أوضحوها مع سفرائكم والسفير : المصلح . الأملاء : الجماعات .

28 ـ ملحة : موضع . الصاقب : جبل . نبشتم : أثرتم .

29 ـ نقشتم : استقصيتم وهي وناقش واحد . يجشمه : يكلفه بمشقة .

30 ـ القذى : الشيء الذي يسقط في العين .

31 ـ الرفعة والتفوّق والأمر وإن رويت الغلاء فالمعنى هوهو .

32 ـ أيام ينتهب الناس : إشارة إلى هزيمة كسرى وضعفه .

يقول التبريزي : « وكانت العرب من نزار تملكهم الأكاسرة ، وهم ملوك فارس وتملك عليهم من شاءت وكانت غسان تملكهم ملوك الروم » .

العواء : الصياح مما ينزل بهم من الإغارة .

33 ـ رفعنا : سيّرنا . السعف : كناية عن النخل . الحساء : مياه لبني فزارة بين الربذة وفخل يقال لمكانها ذو حساء.

34 ـ ملنا : بلغنا . أحرمنا : دخلنا في الأشهر الحرم فكففنا عن قتالهم . إماء : سبيناهنّ .

36 ـ الموائل : الذي يطلب موئلاً يفزع إليه . الطود : الجبل . الحرة : كل موضع فيه حجارة سوداء . الرجلاء الصلبة الشديدة .

37 ـ 38 ـ كان المنذر بن ماء السماء غزا أهل الحيادين ومعه بنو يشكر فأبلوا ! الرب : في هذا الموضع السيد .

39 ـ أضلع البرية : أشدّ البرية أضلاعاً وليس في الناس أحد يكافئه أي يصنع مثله . الكفاء : المثل والنظير .

40 ـ الطيخ : قبيح الكلام وهو في الأصل الكبر والعظمة . التعاشي : التعامي . الداء : الشر .

41 ـ ذو المجاز : سوق في الجاهلية وفيه أصلح عمرو بن هند بين بكر وتغلب ، وأخذ عليهم المواثيق والرهائن من كل حي ثمانين .

42 ـ المهارق : الصحف واحدها مهرق فارسي معرّب ، أو خرزة يصقلون بها ثياباً كان الناس يكتبون فيها قبل أن يصنع القراطيس بالعراق ، كما يقول التبريزي .

44 ـ كانت كندة قد أخذت خراج الملك وهربت فوجّه إليهم من قتلهم ، وقيل : بل كانت كندة قد غزت تغلب ، وقتلت منهم وسبت .

45 ـ الغبراء : الصعاليك والفقراء . والمعنى : هل علينا في العهود والمواثيق التي أخذتموها علينا أن تأخذونا بذنوب حنيفة ، وما أذنبت لصوص محارب .. انظر خبر حنيفة : التبريزي ص270 .

47 ـ العباد : العباديون وهم نصارى الحيرة ، وقد أصابوا من بني تغلب دماء ولم يدرك بنو تغلب ثأرهم منهم . نيط : علق . جوز المحمل : ظهر البعير .

48 ـ الأبيات من 44ـ48 تعيير لبني تغلب ، وكان عمرو بن كلثوم جالساً يسمع الشعر !!

49 ـ كانت إياد بن نزار تنزل سنداد ، وهو نهر بين الحيرة والأبلة وعليه قصر منيف تحج إليه العرب في الجاهلية وكانت إياد الإتاوة أجداً من الملوك ، ومن قوتهم أنهم أغاروا على فارس وغنموا امرأة لكسرى أنوشروان وأموالاً .. وغزاهم كسرى غزوتين أخفق في الاثنتين . أما طسم وجديس فهما أخوان أخذ جديس خراج الملك وهرب ، فأخذ الملك طسماً بما ليس عليه . الإباء : عدم طاعة الملك .

50 ـ المضربون : قوم من بني تغلب ضربوا بالسيف . الحداء قبيلة من بني ربيعة .

51 ـ عنناً : اعتراضاً . العتر : الذبح في رجب والذبيحة تسمى العتيرة أو الرجيبة ، وربما بخل الجاهلي فلم يصدق بنذره فيصيد ظبية ليذبحها عوضاً عن الشاة . الحجرة : موضع يحجر فيه الغنم . الربيض : جماعة الغنم .

52 ـ إن عمراً من بني سعد بن زيد مناة بن تميم خرج في ثمانين رجلاً من تميم فأغار على تغلب وكانوا ينزلون (نطاع) قريبة من اليمن وبنو رزاح شعبة من تميم .

53ـ54 ـ ملحبين : مقطعين بالسيوف . يصم : لكثرة رغاء الإبل والضجة لا يسمع الحداء .

55 ـ يعني بني رزاح . الشامة : السوداء . الزهراء : البيضاء .

56 ـ فاؤوا : رجعوا . قاصمة الظهر : الخيبة . الغليل : شدة العطش .

57 ـ الغلاق : تميمي من بني حنظلة كان على هجائن النعمان غزا بني تغلب فقتل فيهم وسبى .. ويريد : ليس لأصحاب الغلاق رأفة بهم ولا إبقاء عليهم .

58 ـ مطلول عليه : لا يدرك بثأره . العفاء : الدروس والاختفاء .

59 ـ لما قتل المنذر بن ماء السماء اعتزلت طائفة من تغلب وقالوا لا نطيع أحداً من ولده فلما ولي ابنه عمرو بن هند وجه إليهم فقالوا : أرعاء الخن ؟ فنقل الحارث قولهم ، فوجه إليهم عمرو بن هند من قتل فيهم وسبى ويعني الشاعر أن قتل عمرو بن هند فيكم كفعل الغلاق وتكاليف مفردها تكليف .

60 ـ العلاة : أرض . إن عمْرو بن هند وجه أخاه النعمان للأخذ بثأر أبيه وأمره أن يقاتل بني غسان . ومن خالف من بني تغلب ، فلما بلغ الشام قتل ملكاً من غسان واستنقذ أخاه امرأ القيس بن المنذر ، وأخذ بنتاً للملك في قبة لها وهي ميسون والعلاة قريبة من العوصاء .

61 ـ تأوّت : تنادت وتجمعت . القراضبة : الصعاليك ويريد أولئك الذين ناصروا عمرو بن هند . ألقاء : أشياء مطروحة كناية عن التافهين من الأزلام .

62 ـ الأسودين : التمر والماء والأبيضين : الخبز والماء ، والأسودين أيضاً الليل والنهار أي هدى عمرو بن هند أصحابه وجمعهم حين غزا بهم .

63 ـ غروراً : جهلاً وغطرسة . أشراء : بطِرة .

64 ـ الضحاء : ارتفاع النهار . لم يغروكم غروراً : ما أتوكم على غرة .

65 ـ الشانيء : العدو المبغض ، والمقصود الشاعر عمرو بن كلثوم التغلبي .

66 ـ عمراً : يعني عمرو بن هند .

67 ـ المقسط : العادل . من دون ما لديه الثناء : الثناء منا عليه لا يوفي حقه .

68 ـ إرمي : نسبة إلى إرم عاد كناية عن قدم ملكه . الجن : هنا دهاة الناس وأبطالهم .

جالت : كاشفت أي بمثل عمرو بن هند كاشفت الجن الناس . آبت : رجعت . الإجلاء : انكشاف الأمر .

69 ـ الرايات : العلامات .

70 ـ الشقيقة : رهط من شيبان . جاءوا جميعاً : يعني قيس بن معد يكرب ورهطه أغاروا على إبل لعمرو بن هند . شارق : جاء من قبل المشرق . الشقيقة : صخرة بيضاء . لكل حي لواء : أي إن لكل حيّ رأياً وقوة .

71 ـ المستلئم : لابس اللأمة . قرظى : من بلاد ينبت فيها القرظ (شجر كبير سيقانه غليظة وورقه أصفر ، واليمن : منابت القرظ) .

72 ـ الصتيت : الجماعة . العواتك : نساء من كندة وهن الأميرات . الرعلاء : الضربة المسترخية اللحم من الجانبين ، وبنو العواتك خرجوا مع قيس بن معد يكرب .

73 ـ الجبة : من المجابهة وهي الرّد الضيق . الخربة : في المزادة (القربة) .

74 ـ الحزن ، ما غلظ من الأرض . ثهلان : اسم موضع مرتفع . شلالاً : هرباً كأنهم مطرودون . دَمّى الأنساء : أي دفعناهم مجرّحين .

75 ـ الحائن : الذي جاء حينه (أجله) . دماء : كناية عن الثأر بالدم أو طلب الديّة .

76 ـ ثم حجراً : صنعنا بحجر مثل صنيعنا في البيت 75 وكان حجر قد غزا امرأ القيس أبا المنذر بن ماء السماء بجمع من كندة كثير ، وكانت بكر بن وائل مع امرئ القيس ، فخرجت بكر بن وائل فردته وقتلت جنوده وقوله (وله فارسية) أي معه كتيبة خضراء من كثرة السلاح فارسية أي سلاحها من عمل فارس .

77 ـ الغبراء : السنة الشديدة ، القليلة المطر . أسَدّ : صفة لحجر في البيت 76 . الهموس : الخفي الوطء . الربيع : الخصب .

78 ـ تنهز : تتحرك . جمة الماء : الموضع الذي يبلغه الماء من البئر ولم يبلغ أكثر منه . الطوي : البئر المطوية التي لم يستق منها .

79 ـ يعني امرأ القيس بن المنذر بن ماء السماء أخا عمرو بن هند لأبيه ، وكانت غسّان أسرته يوم قتل المنذر أبوه ، فأغارت بكر بن وائل مع عمرو بن هند على بعض بوادي الشام فقتلوا ملكاً لغسان واستنقذوا امرأ القيس وأخذ عمرو ابنة ذلك الملك وهي ميسون كما مرّ بنا .

80 ـ رب غسان : الملك أبو ميسون . لا تكال الدّماء : لأنها كثيرة أو أنها ذهبت هدراً .

81 ـ كان المنذر بن ماء السماء قد بعث خيلاً من بكر بن وائل في طلب بني حجر آكل المرار حين قتل حجر ، فظفر بهم بكر وقد دنوا من بلاد اليمن فأتوا بهم المنذر بن ماء السماء فأمر بذبحهم (كذا) ، وهو بالحيرة فذبحوا (!!) عند منازل بني مرينا وكانوا ينزلون الحيرة وهم قوم من العباد وفي ذلك يقول امرؤ القيس :

ألا يا عين بكّي لي شنينا ... وبكي للملوك الذاهبينا
ملوك من بني حجر بن عمر ... يساقون العشية يقتلونا
فلو في يوم معركة أُصيبوا ... ولكن في ديار بني مرينا
فلم تغسل جماجمهم بغسل ... ولكن بالدماء مرملينا
تظل الطير عاكفة عليهم ... وتنتزع الحواجب والعيونا

82 ـ الجون : ملك من ملوك كندة ، وهو ابن عم قيس بن معد يكرب وكان غزا بني بكر في كتيبة خشناء فقاتلته بنو بكر وهزمته وأخذوا ابنه وجاؤوا به إلى المنذر . العنود هنا الكتيبة كأنها تعند في سيرها والدّفواء المنحينة يصف كثرتها وجعل الكتيبة دفواء من بغيها .

83 ـ الصلاء : النار . أقفاء : أعجاز .

84 ـ يريد عمرو بن حجر الكندي وكان جد الملك عمرو بن هند ، وهند هي بنت عمرو بن حجر آكل المرار ، وكانت أم عمرو بن حجر أم أناس بنت ذهل بن شيبان بن ثعلبة وعمرو بن أم أناس هذا هو جد امرئ القيس الشاعر . من قريب : النسب بيننا وبينه وأمه بنت ذهل بن شيبان وهي جدة أم عمرو بن المنذر . لما أتانا الحباء : حين أتانا حباء الملك عمرو بن حجر ورآنا أهلاً لمصاهرته .

85 ـ أفلاء : مفردتها فلاة وقيل : إن مفردها فلو ، لأن الفلو يخدع بالشيء بعد الشيء حتى يسكن ثم يفلى عن أمه أي يفطم !!

8 ـ ميمون بن قيس البكري (الأعشى الكبير)

شاعر جاهلي مطبوع ، جعله ابن سلام في الطبقة الأولى التي جمعته بامرئ القيس والنابغة وزهير ، قال بشار بن برد (نحن حاكة الشعر في الجاهلية والإسلام ونحن أعلم الناس به : أعشى بني قيس بن ثعلبة أستاذ الشعراء في الجاهلية) وشهادات علماء الشعر في نبوغ الأعشى وجمال شعره لا تكاد تعد ..

فمن هو ؟

هو من سعد بن ضُبيعة بن قيس ، وكان ضعيف البصر ، وكنيته أبو بصير ، وأبوه يدعى قتيل الجوع وحكايته أنه دخل غار جبل فوقعت صخرة من ذلك الجبل فسدّت فم الغار فمات فيه جوعاً ! وكان جاهلياً قديماً أدرك الإسلام ، وسمع اليهود والنصارى يتحدثون بأمر الدين الجديد ، فأراد أن يعرف ذلك بنفسه ، وقد راقت له فكرة العدالة والتوحيد في الدين الجديد ، فكتب قصيدة يمتدح فيها النبي محمد ﷺ جاء فيها :

ألا أيهذا السائلي أين يمت ... فإن لها في أهل يثرب موعدا
فآليت لا أرثي لها من كلالة ... ولا من حفى حتى تزور محمدا
متى ماتناخي عند باب ابن هاشم ... تريحي وتلقي من فواضله يدا
نبي يرى مالا ترون وذكره ... أغار، لعمري، في البلاد وأنجدا

وتوجّه الأعشى إلى حيث يقيم النبي ﷺ فبلغ خبره قريشاً فرصدوه في الطريق ونادى أبو سفيان يا قوم : هذا صناجة العرب ما مدح أحداً إلا رفع في قدره والرأي أن نجمع له مئة ناقة حمراء لنصرفه عن مبتغاه ... والله لئن أتى محمداً واتبع دينه ليضرمنّ

عليكم نيران العرب بشعره ، فجعموا له مئة من الإبل ... ثم أخذها أبو سفيان واعترض سبيل الأعشى ، وسأله أين أردت يا أبا بصير ؟

قال أردت صاحبكم هذا لأسلم ، فقال أبو سفيان إن دينه ينهاك عن خلال كلها بك ويحرمها عليك ! قال الأعشى ما هن ؟ فقال أبو سفيان : إنه يحرم الزنا ، فقال الأعشى : لقد تركني الزنا ، ولم أتركه ثم ماذا ؟ قال : القمار ، قال الأعشى : لعلي إن لقيته أصيب منه عوضاً ثم ماذا ؟ قال الربا ؟ قال الأعشى : ما هذا فما أسلفت ولا استلفت ثم ماذا ؟ قال : إنه يحرم الخمرة . قال الأعشى : وي إذن أرجع إلى صبابة بقيت لي في المهراس فأشربها وأرجّل هامتي ، فقال له أبو سفيان : هل لك في خير مما هممت به ؟ قال : وما هو ؟ قال : نحن ومحمد الآن في هدنة فتأخذ هذه الإبل وترجع إلى بلدك سنتك هذه وتنظر ما يصير إليه أمرنا فإن ظهر علينا آتيته ، وإن ظهرنا عليه كنت قد أخذت حلفاً ، فوافق الأعشى فأخذ الإبل وانطلق إلى بلده ، فلما كان في مدخل قرية منفوحة وفيها معاصر للخمرة يمتلكها الأعشى عثر بعيره وسقط الأعشى فدقّ عنقه ومات ولم يسلم !! والأعشى مغامر ، جاب أصقاعاً من الدنيا كثيرة ، ولديه صداقات مع الملوك والأمراء من البلاد البعيدة ، قارن لوم ابنته له لكثرة أسفاره فهي مثل اليتيمة وأبوها على قيد الحياة :

تقول ابنتي حين جد الرحيل ... أرانا سواء ومن قد يتم
أرانا إذا أضمرتك البلا ... د نجفى ويقطع منا الرحم
أفي الطوف خفت عليّ الردى ... وكم من رد أهله لم يرم
وقد طفت للمال آفاقه ... عُمان فحمص فأوير شلم
أتيت النجاشي في أرضه ... وأرض النبيط وأرض العجم
فنجران فالسرو من حمير ... فأي مرام له لم أرم
ومن بعد ذاك إلى حضرموت ... فأوفيت همي وحيناً أهم

وحين ذهب إلى فارس وسمعه كسرى فقال : (إين كيست ؟) أي من هذا ؟

فقالوا له (إين كويد سرود تازي) هذا عربي يقول الشعر وقيل له : إنه (مغني العرب) فطلب أن ينشده أحسن ما عنده فأنشد الأعشى قصيدته المشهورة في المحلق ! ومطلعها :

أرقت وما هذا السهاد المؤرّق وما بي من سقم وما بي معشق

فقال كسرى ترجموا لنا ما قاله المغني ! فقالوا له : إن الشاعر يقول : إنه سهر ليله من غير سقم ولا عشق . فضحك كسرى ومازح الأعشى قائلاً : اللصوص فقط هم الذين يسهرون الليل دون سقم أو عشق !!

وكان يفد أيضاً على ملوك الحيرة ويمدح الأسود بن المنذر أخاً النعمان وفيه يقول :

ما بكاء الكبير بالأطلال وسؤالي وهل ترد سؤالي
أنت خير من ألف ألف من النا س إذا ما كبت وجوه الرجال

وقال له النعمان بن المنذر معابثاً وقد أعجب بجمال شعره : لعلك تستعين على شعرك هذا ؟ أي تسرقه ؟ فقال له الأعشى احبسني في بيت حتى أقوله ، فحبسه في بيت فقال قصيدته :

أأزمعت من آل ليلى ابتكارا وشطت على ذي هوى أن تزارا
وقيدني الشعر في بيته كما قيد الآسرات الحمارا
فما أنا أم ما انتحالي القوا في بعد المشيب كفى ذاك عارا
ولو رمتُ في ليلة قادحاً حصاة بنبع لأوريت نارا

وقيل : إن علماء الشعر في العصر الجاهلي اعتدوا له معلقتين دون سواه من شعراء المعلقات الأولى هي : (ودع هريرة) ، والأخرى هي : (ما بكاء الكبير) وكان أبو عبيدة مولعاً بشعر الأعشى ويفضله على طرفة ؛ لأنه كما يقول : أكثر عدد طوال جياد ، وأوصف للخمر والخمر ، وأمدح وأهجى .

واختلف علماء الشعر الإسلاميون في : أيهما أشعر امرؤ القيس أم الأعشى ؟

قال الجمحي : « أخبرني يونس بن حبيب أن علماء البصرة كانوا يقدمون امرأ القيس ، وأن أهل الكوفة كانوا يقدمون الأعشى » .

وكان يونس إذا سئل من أشعر العرب ؟ يقول : « امرؤ القيس إذا غضب والنابغة إذا رهب ، وزهير إذا رغب ، والأعشى إذا طرب » .

ويقول الأصبهاني : « وهو أول من سأل بشعره وانتجع به أقاصي البلاد ، وكان يغني في شعره ، فكانت العرب تسميه صناجة العرب » . وأبو عمرو بن العلاء يقول : « عليكم بشعر الأعشى فإني شبهته بالبازي الذي يصيد ما بين الكركي إلى العندليب » . وحين سئل أبو عمرو أيهما الشاعر لبيد أم الأعشى ؟ قال : « لبيد رجل صالح والأعشى رجل شاعر »[21] .

وكان الأعشى مثابة مؤسسة إعلامية كبرى ذات فروع متعددة ومؤسسة أخرى للدعاية ، وترويج السلع ، وقد استثمر شعره تجار عكاظ ، وذي مجنة ، والشحر ، والحيرة ، واليمامة ، فروّج لها أنماطاً من الأقمشة والسيوف والخمور .. بل وقد بلغ الحد أبعد من ذلك ، فكان بمقدوره تزويج العوانس من البنات والبائرات ، ولنا أن نتذكر حكاية المحلّق ابتلي بشقيقات لم يقدم على خطبتهن أحد ، كما ابتلي ببنات لم يخطبهن أحد من العرب .. وقد اتفق المحلّق مع زوجه لاستدراج الأعشى إلى بيته ... فجاء الأعشى ودخل بيته ، فنحر له ناقته وكشط له عن سنامها وكبدها ثم أحاطت به بنات

---

(21)

الصائغ د . عبد الإله ، الصورة الفنية معياراً نقدياً ، انظر الفصل الأول ص33ـ103 ويتضمن ثلاثة مباحث :

أ ـ ملامح الصورة الشخصية للأعشى .

ب ـ تقويم النقاد لشعر الأعشى .

جـ ـ أصالة شعر الأعشى وأثره في الشعراء .

ثم انظر كتابنا الآخر : الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنية ، الفصل السادس ص237 ، صناجة العرب بين نقاد الكوفة وشعرائها .

المحلق ، فقال ما هذه الجواري حولي ؟ قال المحلق : بنات أخيك فلما رحل من عنده ووافى سوق عكاظ جعل ينشد قافيته التي مدح بها المحلق :

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة ... إلى ضوء نار في يفاع تحرّق
تشبّ لمقرورين يصطليانها ... وبات على النار الندى والمحلق
رضيعي لبان ثدي أم تحالفا ... بأسحم داج عوض لا نتفرّق

فتسابق الفتيان والفرسان إليهن حتى تزوجن عن آخرهن واستغنى بعد فقره .

قال الشعبي حين سئل عن تقويم شعر الأعشى : « الأعشى أعزل الشعراء في بيت ، وأخنثهم في بيت ، وأشجعهم في بيت .. وذكر الأبيات :

×غراء فرعاء مصقول عوارضها ... تمشي الهوينا كما يمشي الوجي الوحل
×قالت هريرة لما جئت زائرها ... ويلي عليك وويلي منك يا رجل
×قالوا الطراد فقلنا تلك عادتنا ... أو تنزلون فإنا معشر نزل»

والذي نقترحه أن أغزل ما قاله الأعشى هو :

وتبرد برد رداء العروس ... بالصيف رقرقت فيه العبيرا
وتسخن ليلة لا يستطيع ... نباحاً بها الكلب إلا هريرا

وأسْجع بيت قاله الأعشى هو :

لما التقينا كشفنا عن جماجمنا ... ليعلموا أننا بكر فينصرفوا

قيل توفي سنة (7 للهجرة 629 ميلادية) .

☆ معلقة (ودّع هريرة) . البحر : البسيط . القافية : ل . عدد الأبيات : 66

1- ودع هريرة إن الركب مرتحـــل ... وهـل تطيـق وداعـاً أيهـا الرجـل
2- غراء فرعـاء مصقـول عـوارضهـا ... تمشي الهوينى كما يمشي الوجي الوحل
3- كأن مشيتهـا من بيت جـارتهـا ... مرُّ السحـابـة لا ريث ولا عجـل
4- تسمع للحلي وسـواساً إذا انصرفت ... كما استعـان بريـح عشرق زجـل
5- ليست كمن يكره الجيران طلعتهـا ... ولا تراهـا لِسرّ الجـار تختتـل
6- يكاد يصرعهـا لـولا تشـدّدهـا ... إذا تقـوم إلى جـاراتهـا الكسـل
7- إذا تعـالـج قِرناً سـاعـة فترت ... واهتزّ منهـا ذنـوب المتن والكفـل
8- صفر الوشاح وملء الدرع بهكنةً ... إذا تـأتى يكاد الخصر ينخـزل
9- صـدّت هريرة عنـا مـا تكلمنـا ... جهلاً بأم خليـد، حبل من تصل
10- أأن رأت رجـلاً أعشى أضرّ بـه ... ريب المنـون ودهْرٌ مفنـد خبَـل
11- هركـولـة فنـق دُرمٌ مرافقهـا ... كأن أخمصهـا بـالشـوكِ منتعـل
12- إذا تقـوم يضـوع المسـك أصـورةً ... والـزنبـق الـورد من أردانهـا شمـل
13- ما روضـة من ريـاض الحزن معشبـة ... خضراءُ جـاد عليهـا مُسبِـل هَطِـل
14- يضاحـك الشمس منهـا كوكب شرقٌ ... مـؤزّرٌ بعميم النبتِ مكتهـل
15- يـوماً بـأطيب منهـا نشرَ رائحـة ... ولا بـأحسن منهـا إذ دنـا الأصُـل
16- عُلّقتهـا عرضـاً وعلقت رجـلاً ... غيري وعُلّـق أخرى غيرهـا الرّجـل
17- وعلقتـه فتـاة مـا يحـاولهـا ... من أهلهـا ميتٌ بهـذي بهـا وهِـل
18- وعُلّقتني أخيرى مـا تُـلائمني ... فـاجتمـع الحبُّ حبـاً كُلُّـهُ تبـل
19- فكلنـا مغرمٌ يهـذي بصـاحبـهِ ... نـاءٍ ودانٍ ومحبـولٌ ومحتبِـلُ
20- قـالت هريرةُ لمـا جئت زائرهـا ... ويلي عليـك وويلي منـك يـا رجـل
21- يـا من يرى عـارضاً قـد بت أرقبـه ... كأنمـا البرق في حـافـاتـه شعـل
22- لـه ردافٌ وجـوزٌ مفـأمٌ عمـلٌ ... مُنَطّـقٌ بسجـال المـاءِ متّصـل

23- لم يلهني اللهو عنه حين أرقُبُهُ ... ولا اللذاذةُ من كأسٍ ولا الكَسَلُ

24- فقلتُ للشَّرب في (دُرنى) وقد ثملوا: ... شيموا، وكيف يشيم الشاربُ الثِمل؟

25- برقاً يضيء على الأجزاع مسقطه ... وبالجنيّةِ منه عارض هطِل

26- قالوا نمارٌ فبطن الخال جادَهما ... فالعسجديةُ فالأبلاء فالرِّجل

27- فالسفح يجري فخنزيز فبرقته ... حتى تدافع منه الرَّبو فالجبل

28- حتى تحمّل منه الماء تكلفةً ... روضُ القطا فكثيبُ الغينة السَّهل

29- يسقي دياراً لها قد أصبحت عُزُباً ... زوراً تجانف عنها القَودُ والرَّسلُ

30- وبلدةٍ مثل ظهر التّرس موحشةٍ ... للجنّ بالليلِ في حافاتها زَجَلُ

31- لا ينتمي لها بالقيظ يركبها ... إلا الذين لهم فيها أتوا مهل

32- جاوزتها بطليح جسرة سُرُح ... في مرفقيها إذا استعرضتها فَتَلُ

33- أما ترينا حفاةً لا نعال لنا ... إنا كذلك ما نخفى وننتعل

34- فقد أخالِسُ ربَّ البيت غفلته ... وقد يحاذرُ مني ثم ما يئل

35- وقد أقود الصّبى يوماً فيتبعني ... وقد يصاحبني ذو الشرّة الغزل

36- وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني ... شاوٍ مشِلٌّ شلولٌ شُلشُل شولُ

37- في فتيةٍ كسيوف الهند قد علموا ... أن ليس يدفع عن ذي الحيلةِ الحيَل

38- نازعتهم قُضُب الريحانِ متكئاً ... وقهوةً مُزَّةً راووقها خضِل

39- لا يستفيقون منها وهي راهنةٌ ... إلا بهات، وإن علّوا وإن نَهِلوا

40- يسعى بها ذو زجاجات له نطفٌ ... مقلّصٌ أسفل السربال معتمل

41- ومستجيبٍ تخال الصّنج تَسمعُه ... إذا ترجّع فيه القينةُ الفُضُل

42- من كل ذلك يومٌ قد لهوتُ به ... وفي التجارب طول اللّهو والغزلُ

43- والساحباتُ ذيولُ الخزّ آونةً ... والرافلاتُ على أعجازها العجل

44- أبلغ يزيد بني شيبانَ مألكةً ... أبا ثُبيتُ أما تنفكّ تأتكلُ

45- ألستَ منتهياً عن نحتِ أثلتنا ... ولستَ ضائرها ما أطّتِ الإبل

46- تغري بنا رهط مسعود وإخوتِهِ عند اللقاء فتُردي ثم تعتزل
47- لأعرفنك إن جدّ النفيرُ بنا وشبّتِ الحربُ بالطّوّاف واحتملوا
48- كناطح صخرةً يوماً ليفلقها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل
49- لأعرفنك إن جدّت عداوتُتنا والتمسَ النصر منكم عوْض تحتمل
50- تلزم أرماح ذي الجدّين سورتَنا عند اللقاء فترديهم وتعتزل
51- لا تقعدنّ وقد أكّلتها حطباً تعوذُ من شرّها يوماً وتبتهل
52- قد كان في أهل كهف إن همُ قعدوا والجاشريةِ من يسعى وينتضل
53- سائل بني أسدٍ عنا فقد علموا أن سوف يأتيك من أنبائنا شكلُ
54- واسأل قشيراً وعبد الله كلّهُم واسأل ربيعةَ عنا كيف نفتعل
55- إنا نقاتلهم حتى نقتّلهم عند اللقاء وهم جاروا وهم جهلوا
56- كلا زعمتم بأنا لا نقاتلكم إنا لأمثالكم يا قومنا قُتُل
57- حتى يظلّ عميدُ القوم متّكئاً يدفعُ بالراحِ عنه نسوة عجُل
58- أصابه هندوانيٌّ فأقصده أو ذابلٌ من رماح الخطّ مُعْتَدلُ
59- قد نخضِبُ العيْرَ من مكنون فائِله وقد يشيط على أرماحنا البطلُ
60- هل تنتهون ولا ينهى ذوي شطط كالطعن يذهبُ فيه الزيت والْفُتلُ
61- إني لعمرُ الذي خطّت مناسمُها تخْدي وسيقَ إليه الباقرُ الغُيُل
62- لئن قتلتم عميداً لم يكن صَدداً لنقتلنْ مثلهُ منكم فنمتثِل
64- لئن منيتُ بنا عن غبّ معركةٍ لم تُلْفِنا من دماءِ القوم ننتفَل
64- نحن الفوارسُ يومَ العين ضاحيةً جَنْبَيْ فُطيمةَ لا ميل ولا عُزُل
65- قالوا الركوبَ فقلنا تلك عادتنا أو تنزلون فإنا معشر نُزلُ

☆ معاني الكلمات :

1 ـ قال أبو عبيدة : هريرة قينة (الأمة صانعة أو غير صانعة وغلب على المغنية) كانت لرجل من آل عمرو بن مرثد أهداها إلى قيس بن حسّان بن ثعلبة بن عمرو بن مرثد فولدت له

خليداً ، وقيل : إن هريرة وخليدة أختان كانتا مغنيتين لبشر بن عمرو وحين هرب إلى اليامة خوفاً من النعمان بن المنذر كانتا معه ، وقيل أيضاً : إن هريرة أمة سوداء ، وزعم أن الأعشى تبرأ من معرفته لها ، وقال : إنه لا يعرفها وإنما ذكر اسمها لا على التعيين ، وأراد التشبيب بأخرى خشي ذكر اسمها .

يقول صاحب العمدة 121/2 : « وللشعراء أسماء تخف على ألسنتهم وتحلو في أفواههم فهم كثيراً ما يأتون بها زوراً ... وربما أتى الشعراء بالأسماء الكثيرة في القصيدة إقامة للوزن وتحلية للنسب » .

ونحن نميل إلى أن هريرة لم تكن كما أشار أبو عبيدة أو سواه ، وآية ذلك ما يلمسه محلل النص من صدق العاطفة ، ومضاء الإشارة ، وربما تأوّل أبو عبيدة وسواه في اسم هريرة لغرابة اسمها !

وقد ذكر صاحب العمدة (122/2) الأسماء التي كثر استعمالها في الغزل ولم يذكر هريرة والأسماء هي (ليلى ، هند ، سلمى ، دعد ، لبنى ، عفراء ، أروى ، ريا ، فاطمة ، ميّة ، علوة ، عائشة ، الرباب ، جُمْل ، زينب ، ونُعْم » !!

والركب : أكثر ما يستعمل للإبل ومن عليها وما عليها !!

2 ـ غراء : بيضاء . فرعاء : طويلة الشعر كثته . العوارض : ما يبدو من الأسنان عند الابتسام . مشي الهوينى : الاعتيادي . الوجي : الذي حفيَ قدمه أو حافره . الوحل : الملطّخ بالوحل والإشارة هنا للأقدام والحوافر .

3 ـ الريث : البطء . الوسواس : صوت الحلى . العشرق : شجيرة طولها ذراع فيها حب كثيرة فإذا يبست واخترقتها الريح تحرّك الحب فاستخرج خشخشة على الحصى . انصرفت : تقلّبت . الزجل : رفع الصوت عند الطرب ونبت زجل صوتت فيه الريح .

5 ـ تختتل : تسرق السمع .

7 ـ قرناً : صاحباً . ذنوب المتن : لحم المتن . الكفل : العجيزة .

8 ـ صفر الوشاح : خميصة البطن . دقيقة الخصر . الوشاح قماش عريض مطرّز بخيوط ملونة أو مرصع بالأحجار الكريمة أو الذهب تضعه المرأة على عاتقها وكشحها . الدرع القميص وقوله ملء الدرع إشارة إلى الضخامة . البهكنة : الخفيفة الروح الطيبة الرائحة المليحة الجميلة . تأتى : تتأتى أي تتحرّك . ينخزل : ينقطع .

10 ـ مفند : فاسد . ريب المنون : مصائب الزمان . الخبل : فساد العقل .

11 ـ الهركولة : الهركلة ضرب من المشي فيه اختيال ، وقيل هي الضخمة الوركين الحسنة القوام . الفنق : الفتية المنعّمة . الدرم : التي لا تبين عظامها أو عروقها . الأخمص : باطن القدم . المرفق : عظم المفصل في الذراع . كأن أخمصها بالشوك منتعل : إنها متقاربة الخطو لأنها ضخمة كأنها تمشي على الشوك لمكابدتها في المشي .

12 ـ الأصورة مفردها صوار : القليل من المسك . وقيل : إنه الوعاء الذي يحرق فيه المسك (كذا) وهذا المعنى بعيد وقد ذهب إليه محقق الديوان ! الزنبق الورد : زهر طيب الرائحة طويل مائل إلى الحمرة حين يقرن بـ (الورد) . الأردان : أطراف الأكمام . شمل : منتشر .

13 ـ رياض الحزن أي الحدائق التي تقوم على أرض مرتفعة وهي أحسن من الرياض في الأرض المنخفضة ، لأن الريح تهب على المرتفعات فتهيج عبقها . مسبل : صفة المطر النازل .

14 ـ يضاحك الشمس : يدور معها حيثما دارت . كوكب : كوكب الشيء معظمه أو أطوله أو زهره والمراد هنا البريق . الشرق : الريّان الممتلئ ماء . مؤزّر : مرتد إزاراً . العميم : التام السّن . مكتهل : اكتهل النبت أي طال وبلغ منتهاه .

15 ـ النشر : العبق الفوّاح . الأصيل : من العصر إلى العشاء والمقصود هنا الغروب وإنما خص الأصيل لأن الدنيا تكون فيه أحسن ما تكون لتباعد الشمس وتلوّن المرئيات باللون الأحمر !

16 ـ عرضاً : مصادفة ودون عمد .

17 ـ مايحاولها : لا يريدها أو لا يقدر عليها . ميت : رجل ميت . الوهل : الذاهب العقل .

18 ـ التبل : الذي يؤذيه الجرح حدّ ذهاب العقل !

19 ـ الاحتبال : العمل بالحبال . المحبولَ : الذي وثقته الحبال كناية عن أنه بات صيداً . والمحتبل : الصائد .

21 ـ العارض : السحاب المعترض .

22 ـ رداف : سحاب من خلقه كأنه ذيل . الجوزَ : الوسط . المفأمّ : العظيم الواسع . عِل : دائم البرق . منطّق : النطاق الحزام . السجال : الدِلاء .

23 ـ درنى : ورسمها معجم الأدباء 298/2 (درنا) موضع باليامة على طريق فارس ، وذكر الهمداني أن أثافت اليمنية كان يقال لها في الجاهلية درنا . شيمو : انظروا وتفحصّوا البرق أو السحاب وقدّروا أين سيمطر .

26/25 ـ الأجزاع مفردها جزع ، وهو منعطف الوادي أو المشرف من الأرض . الجنية : موضع بين الكوفة والشام . نمار : جبل لبني سليم . بطن الخال : موضع . جادها : أمطرها . العسجدية (معجم البلدان 326/3) سوق جاهلية مشهورة ببيع العسجد وهو الذهب وزعم أنه ماء لبني سعد ! الرجل : موضع باليمامة . وقال التبريزي : إن الرجل مسايل الماء واحدها رجلة . الأبلاء : اسم بئر .

28/27 ـ السفح وخنزيز : موضعان . البرقة : أرض ذات حجارة ورمل وطين . الربو والربوة : مرتفع من الأرض . تكلفة : مشقة . الغينة الواحة الموتقة أو الأرض ذات أشجار . روض القطا (معجم البلدان 440/2) من أشهر رياض العرب وقد كثر ورودها في الشعر وتقع بناحية كتلة وجدود فإذا كانت النسبة إلى القطا فهذا الطائر يكثر في الرياض ، وإن كانت النسبة إلى موضع فهو في اليمامة .

29 ـ عزباً : بعيدة . زوراً : بعيدة . تجانف : تنحرف . القود : الخيل . الرّسل : الجماعة من كل شيء .

30 ـ الترس : الدرع . الزجل : الأصوات المختلفة .

31 ـ ينتمي : يتمنى ركوبها أو يقدر عليه . المهل : التقدم في الأمر والهداية قبل ركوبها .

32 ـ طليح ناقة أضمرها السفر . جسرة : ضخمة . سرح : سهلة السير . الفتل تباعد مرفقي الناقة عن زورها .

33 ـ المعنى سبيلنا هكذا مرة نخفى ، ومرة ننتعل كناية عن الفقر والمشقة (لا نعال لنا) وكناية عن النعمة واليسر (وننتعل) .

34 ـ خلس : سرق الشيء وأخذه خفية . مايئل : لا ينجو .

35 ـ ذو الشرة : ذو الشارة والشارة الهيئة الجميلة . الغزل : قال ابن الأعرابي : غَزِل الكلب بالكسر أي فتر .. أن يطلب الغزال فإذا ثبت الغزال انصرف عنه الكلب ، فيقال : غزل الكلب ، ويقال الضعيف الفاتر عن الشيء غزل ، وقيل لصاحب النساء غزل لضعفه .

36 ـ الحانوت : بيت الخمار . الشاوي : الذي يشوي اللحم . المشل والشلول : الذي يحسن سوق الإبل من شلّ طرد وساق . الشلشل : السريع الحركة والاستجابة وهو الخادم الخبير . شول : قادر على احتمال الأشياء ، كقولهم : فلان يشول في حاجته إذا اعتنى بها وتحرّك فيها ، وثمة

مقاربات لهذه الألفاظ مثل النشول : الذي ينشل اللحم من القدر برفق لخبرته ، والشمل : الطيب النفس والرائحة .

يقول الدكتور محمد النويهي : يريد الأعشى أن يحكي ترنح السكارى حين تأخذهم النشوة يمثلها بهذه الكلمات الخمس في تتابع إيقاعها في الشطر الثاني ، وعليك كلما قرأت كلمة منها أن تميل ميلة إلى الإمام أو الخلف أو اليمين أو اليسار ثم يريد أخيراً أن يحكي حديثهم المتلعثم الذي تختلط فيه مخارج الحروف إذ يجعل الثمل لسانهم ثقيل الحركة كثير التعثر ، ولذلك يكثر الأعشى من حرف الشين خاصة لأن السكارى يحولون جميع سيناتهم وكذلك الحروف ذات المخارج المقاربة لمخرج السين شين . ا. هـ[21] .

38 ـ 39 ـ نازعتهم : أي استمتعت معهم بحسن الأحاديث وظريفها . وقال الأصمعي : نازعتهم قضب الريحان .. أي إن التحية بينهم بالورد والريحان . المُزّة : التي فيها مزازة والمُزُّ بضم الميم ما كان طعمه بين الحلو والحامض . الراووق : إناء الخمر وقيل : إن الراووق والناجود ما يخرج من ثقب الدن . الخضل : الندي بشكل دائم ، وزعم أن الراووق المصفاة والشراب يتروّق منه !!

39 ـ العلل : الشرب الثاني . النهل : الشرب الأول . راهنة : المهيئة لكل الأوقات .

40 ـ يسعى بها : يقدّمها . ذو زجاجات : حامل الأواني الزجاجية . له نطف : يضع اللؤلؤ الصافي أقراطاً على أذنيه . مقلص : مشمّر . السربال القميص وكل ما يغطّي أعلى الحزام ، والسراويل البنطال وكل ما يغطي أسفل الحزام . معتمل : دائب نشيط محب لعمله .

41 ـ المستجيب : العود يجيب الصنج فكأن الصنج دعاه فأجاب . الصنج : صفيحة مدورة من النحاس يضرب بها على أخرى أو صفائح صفر صغيرة مستديرة تثبت في أطراف الدف أو في أصابع الراقصة تدق بها عند الطرب أو آلة موسيقية وترية . القينة : الخادمة مغنية كانت أو غير مغنية . الفضل : التي ترتدي ثوباً واحداً شفيفاً كأنها متبذلة .

43 ـ الخز : ثياب من الإبريسم الخالص . آونة : حيناً . الرافلات : اللواتي يرفلن ثيابهن أي يجررنها . أعجازها العجل : ذهب أبو عبيدة إلى أنه شبه أعجازهن لضخامتها بالعجل بالمزادة أو قربة الماء .

---

(21) النويهي . د. محمد ، الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه 67/1 وبعدها ، طب الدار القومية في مصر (د:ت) ، وانظر من الكتاب نفسه 820/2 ، الفصل السابع عشر معلقة الأعشى (الجد الهازل والهزل الجاد) !!

44 ـ مألكة : رسالة ، تأتكل : تتآكل من الغيظ أي كاد أن يأكل بعضه بعضاً !! .

45 ـ النحت : التقشير . والبري . أثاثنا : شجرتنا ، ويعني أصلنا . ضائر : ملحق بها الضرر . أطّت : أنّت من الحنين أو التعب

46 ـ تغري : تضرب بيننا وبينهم . تردي : تهلك .

47 ـ النفير : القتال أو المقاتلون . الطواف : الطائفون يملأون المكان مثل الطوفان . احتملوا : صبروا على الشدة .

49 ـ عوض : اسم للدهر ، وتأتي بمعنى أبداً . تحتمل : تذهب وتخلي قومك . واحتمل الرجل : استفزّ وغضب .

50 ـ ذو الجدين : قيس بن مسعود . السَورة : الغضب .

51 ـ أكلتها : أجبتها . تعوذ : تلجأ وتعتصم والعوذة : التميمة والرقية يرقى بها الإنسان من فزع أو جنون . الابتهال : الدعاء إلى الله لدفع الشر .

52 ـ أهل كهف : قوم من بني سعد بن مالك بن ضبيعة . قعدوا : لم يطلبوا بثأرهم . الجاشرية : امرأة من إياد وهي ابنة كعب بن مامة . ينتضل : يجهد ويكابد .

53 ـ شكل : صور متوالية .

57 ـ العميد : السيد . الراح مفردها راحة وهي باطن اليد . عجل : نساء ثكالى مفردها عجول بفتح العين .

58 ـ هندواني : مصنوع في الهند . أقصده : أصابه ولم يخطئه الخط بلدة في البحرين مشهورة بصناعة الرماح .

59 ـ العير : حمار الوحش . الفائل : عرق يمتد من الجوف إلى الفخذ ومكنون الفائل : الدم .

60 ـ الشطط : الغلو والخطأ . الزيت والفتل : كناية عن ذهاب كل شيء .

61 ـ خطت : تركت أثراً في التراب . المناسم : مفردها منسم وهو طرف الخف . تخدي : تسرع في السير مضطربة . الباقر : البقر . الغيل مفردها غيول : الكثير من الإبل والبقر ونحوهما .

62 ـ الصدد : المقارب . نمتثل : نقتل الأمثل أي الأفضل .

63 ـ مني : ابتلى وعاد بالشيء . غب : بعد . تلفنا : تجدنا ، ننتفل : ننتفي أي لا نهرب من القتال والواجب .

64 ـ ضاحية : علانية . فطيمة : فاطمة بنت حبيب بن ثعلبة زوج رجل من بني سيار ، ولها ضرة من قوم زوجها . فتعايرتا فعمدت السيارية فحلقت ذوائب فطيمة ، فتدخل الحيان واقتتلا فهزم بنوسيار وانتصر قوم الأعشى (بنو سعد بن قيس) . الميل : الخائف الذي يميل عن السرج ولا يثبت . عزل : مفردها أعزل الذي لا سلاح له .

65 ـ الركوب : ركوب الخيل . تنزلون : أي تترجلون وتتبارز بالسيوف ، فالراكب يستعمل رمحه غالباً والراجل يستعمل سيفه غالباً .

9 ـ النابغة الذبياني

هو زياد بن معاوية ويكنى أبا أمامة وتنمى أصوله إلى عوف بن سعد بن ذبيان وصولاً إلى غطفان بن سعد بن قيس عيلان بن مضر ! وقد ذكر جل مؤرخيه أنه (أحد الأشراف الذين غض الشعر منهم)!! ذكر ذلك مثلاً ابن قتيبة والأصبهاني وكرر القول المعاصرون أيضاً مثل جرجي زيدان ! ولا ندري كيف غض الشعر من قدره وعرب الجاهلية كانوا يسعدون بالشاعر ويؤمروه ، فإذا نبغ شاعر في القبيلة نحرت الجزور وخرجت النسوة تغني وتنفخ في المزامر بينا تقدم القبائل المجاورة التهاني بالمناسبة ، لا ندري لماذا غضّ الشعر من قدره وكيف ؟! ومن هو لولا الشعر ؟! والنابغة لقب شهرة لحقه ولم يقطع أحد في سبب التسمية ونذكر الآتي :

1 ـ سمي النابغة لقوله :

وحلّت في بني القين بن جسر فقد نبغَتْ لنا منهم شؤون

2 ـ وقيل لقب النابغة اشتقاقاً من نبغت الحمامة إذا تغنّت ، ونبغ الماء .

3 ـ قال الأصمعي : أول ما تكلم به النابغة من الشعر أنه حضر مع عمه عند رجل وكان عمه يشاهد به الناس ، ويخاف أن يكون عيياً فوضع الرجل كأساً في يده وقال :

تطيب كؤوسنا لولا قذاها ويحتمل الجليس على أذاها

فقال النابغة وقد حمي لذلك :

قذاها أن صاحبها بخيل يحاسب نفسه بكم اشتراها

4 ـ قال ابن قتيبة 87/1 : « ونبغ بالشعر بعدما احتنك » . أما المرزوقي ص63 فقد وضّح الحكاية التي تزعم أن النابغة قال الشعر بعدما احتنك أي جاوز الأربعين :

« مكث النابغة دهراً لا يقول الشعر ، ثم أمر بثيابه فغسلت وعصب حاجبيه على جبهته فلما نظر إلى الناس أنشأ يقول :

المرءُ يـــــأمـــــل أن يعيـ ـش وطـول عيش قـــد يضرّه
تفنى بشـــــاشتـــــه ويبـ ـقى بعـــد حُلـو العيش مُرّه » ا . هـ

أما مكانته في الوسط الشعري فكبيرة وقد عدّه ابن سلام في الطبقة الأولى وقرنه بامرئ القيس والأعشى وزهير .

قال الأصمعي كان النابغة يضرب له قبة حمراء من أدم بسوق عكاظ فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها وأول من أنشده الأعشى ، ثم حسّان بن ثابت ، ثم أنشدته الشعراء ، ثم أنشدته الخنساء بنت عمرو بن الشريد :

وإن صخراً لتـأتم الهـداة بـه كأنـه علم في رأســه نـــار

فقال النابغة : لولا أن أبا بصير أنشدني آنفاً لقلت : إنك أشعر الجن والإنس فقام حسان وقال : والله لأنا أشعر منك ومن أبيك ، فقال له النابغة يا ابن أخي أنت لا تحسن أن تقول :

فإنك كالليل الـذي هو مـدركي وإن خلت أن المنتأى عنـك واسع
خطاطيف حجن في حبال متينة تمـد بهـا أيـد إليـك نـوازع

فخنس حسان لقوله وانصرف .

وقيل : إن الخنساء احتجت على قوله لها : والله ما رأيت أنثى أشعر منك . فقالت له : لا والله ولا ذكراً ! وكان النابغة ذكياً يحلل النصوص وفق آليات النقد في زمانه ، وحين تجرأ حسان على النابغة في سوق عكاظ على ملأ من الشعراء وجمهور الشعر قائلاً له : أنا ، والله ، أشعر منك ، ومن الخنساء ، ومن أبيك ، وجدك ، ابتسم النابغة وقبض على لحيته وقال لحسان : حيث تقول وأنت حر ، ولكن حيث تقول ماذا ؟ قال حسان حيث أقول :

لنا الجفنات الغرّ يبرقن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بني العنقاء وابني محرّق فأكرم بنا خالاً وأكرم بنا ابنا

فقال له : إنك شاعر ، ولكنك أقللت جفانك وأسيافك وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك ، وقلت : يبرقن ولم تقل يلمعن ، وقلت بالضحى ، ولو قلت بالدجى لكان أبلغ في المديح ؛ لأن الضيف في الليل أكثر ، وقلت يقطرن من نجدة دما ، فدللت على قلة القتل ، ولو قلت يجرين لكان أكثر لانصباب الدم !!

وقد أعجب أهل زمانه بشعره . وكان النعمان بن المنذر مهووساً بشعر النابغة ، وقد نقل أن حسان بن ثابت قصد النعمان فنصحه رجل قريب من بلاط النعمان : « فإن أنت خلوته وأعجبته فأنت مصيب منه خيراً فأقم ما أقمت فإن رأيت أبا أمامة النابغة فاظعن فلا شيء لك عنده » .

وينقل الأصبهاني هذا الخبر : « قال النعمان أليس بأبي أمامة ؟ قالوا : بلى . قال : فأذنوا له . ودخل فحياه وشرب معه ، ثم وردت النعم السود ، ولم يكن لأحد من العرب بعير أسود يعرف مكانه ولا يفتحل أحد بعيراً أسود غير النعمان فاستأذنه النابغة في أن ينشده كلمته التي على الباء ، فأذن له فأنشده قصيدته التي يقول فيها :

فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

ووردت عليه مئة من الإبل السود الكلبية فيها رعاؤها وبيتها وكلبها ، فقال النعمان : شأنك يا أبا أمامة فهي لك بما فيها .

وكتب الخيل تزعم أن كل ناقة سوداء من عصافير النعمان كانت تباع بثمن أربعين ناقة سواها . وقد انتجع النابغة بشعره وأثرى ، « وكان النابغة لا يأكل ولا يشرب إلا في آنية الفضة والذهب من عطايا النعمان وأبيه وجده ولا يستعمل غير ذلك » .

أما الغساسنة فقد أثقلوه بالهدايا والعطايا ، وكانوا يمنحونه المحفزات ليلبث عندهم

ويزهد بسواهم ، وقد صار النابغة إلى غسان ونزل عند ملكها عمرو بن الحارث الأصغر بن الحارث الأعرج بن الحارث الأكبر وأم الحارث الأعرج هي مارية بنت ظالم بن وهب الكندية ، وهي ذات القرطين اللذين يضرب بها المثل ، فيقال لما يغلى به الثمن بقرطي مارية وأختها هند الهنود امرأة حجر آكل المرار ! وكان النابغة مبتكراً في شعره فهو أحسن شعراء زمانه ديباجة وأكثرهم رونق كلام ، وأجزلهم بيتاً فشعره مطبوع غير متكلف قال أبو عبيدة : « يقول من فضل النابعة على جميع الشعراء إنه أوضحهم كلاماً وأقلهم سقطاً وحشواً وأجودهم مقاطع وأحسنهم مطالع ولشعره ديباجة إن شئت قلت : ليس بشعر مؤلف من تأنثه ولينه ، وإن شئت قلت : صخرة لو رديت بها الجبال لأزالتها » .

وكان الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قد قال : يا معشر غطفان من الذي يقول :

أتيتك عارياً خَلِقاً ثيابي على خوف تظن بي الظنون ؟

قلنا : النابغة .

قال : ذاك أشعر شعرائكم .

ثم قال : من أشعر الناس ؟ قالوا : أنت أعلم يا أمير المؤمنين ، قال الذي يقول :

إلاّ سليمان إذ قال الإله له قم في البرية فاحددها عن الفند
وخيّس الجن إني قد أذنت لهم يبنون تدمر بالصفاح والعمد

قالوا : النابغة . قال : فمن الذي يقول :

حلفت فلم أترك لنفسكَ ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب
لئن كنت قد بلغت عني خيانة لمبلغك الواشي أغشّ وأكذب
ولست بمستبقٍ أخاً لا تلمّه على شعث أي الرجال المهذب

قالوا : النابغة . قال : فهو أشعر العرب .

وقام رجل إلى ابن عباس فقال : أي الناس أشعر ؟ فقال ابن عباس : أخبره يا أبا الأسود الدؤلي فقال الذي قال :

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

وقد بلغ من إعجاب الناس بشعر النابغة أن اختلق خيالهم حكايات عن الجن أبينا نحن نسير بين أنقاء الأرض وقد تذاكرنا الشعر والشعراء فإذا راكب أطيلس يقول : أشعر الناس زياد بن معاوية ثم تملس فلم نره وقال الشنقيطي : « واسم هاجس النابغة هاذر ، قال رجل من أهل الشام في قصة مع جني اجتمع به فسأله من أشعر العرب فأنشد :

ذهب ابن حجر بالقريض وقوله ولقد أجاد فما يعاب زياد
لله هاذر إذ يجود بقوله إن ابن ماهر بعدها لجواد

فقال له الشامي : من هاذر ؟ قال : حاجب زياد الذبياني وهو أشعر الجن وأضنهم بشعره ، فالعجب له كيف سلس لأخي ذبيان .

وعلماء الشعر يقولون (يونس بن حبيب) : أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب ، والنابغة إذا رهب ، وزهير إذا رغب ، والأعشى إذا طرب !

وسئل حماد الراوية بم تقدم النابغة ؟ فقال : باكتفائك بالبيت الواحد من شعره لا بل بنصف بيت لا بل بربع بيت قوله :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب

وقال الأصمعي سمعت أبا عمرو يقول : ما كان ينبغي للنابغة إلا أن يكون زهير أجيراً له ! وكان عبد الملك المروان وهو أحد أهم علماء الشعر حين يسمع : (حلفت فلم أترك ..) يقول : النابغة أشعر العرب ، وهذا أحسن الشعر .

وقال الشعبي : « دخلت على عبد الملك بن مروان وعنده الأخطل ، وأنا لا أعرفه ، فسأل عبد الملك الأخطل : من أشعر الناس ؟ قال : يا أمير المؤمنين الذي

أمامك يعني نفسه . فقلت لعبد الملك : من هذا يـا أمير المؤمنين ؟ فتبسم وقـال : هـذا الأخطل . فقلت في نفسي : خـذهـا ثنتين على وافـد العراق ، فقلت أشعر منـك الـذي يقول :

هـــذا غـلام حسن وجهـــه مستقبـــل الخير سريـــع التمام

والشعر للنابغة ، فقال الأخطل إن أمير المؤمنين إنما سألني عن أشعر أهل زمـانـه ، ولو سألني عن أشعر أهل الجاهلية لكنت حرياً أن أقول كما قلت أو شبيهاً به !

إن عمليـة تجميع شهـادات علمـاء الشعر التي صـدرت بحق الأعشى أمر فوق طـاقـة منهجنا ولمن يريد الاستزادة فثمة كتب الأدب حافلة ماثلة ، قال أبو عبيدة : فحلان في الجاهلية يُقويان النابغة وبشر بن أبي خازم .

أما بشر فقد قال له أخوه سواده : إنك تُقوي . قال : وما ذاك ؟ قال قولـك (من الأحلام إذ صحبي نيامُ) ثم قلتَ بعده (إلى البلد الشآم) ففطن فلم يعد .

وأما النابغة فقـد دخل يثرب فهـابوه أن يقولوا لـه : لحنت ، أو أكفـأت . فـدعوا قينـة وأمروهـا أن تغني في شعره ففعلت ، فلمـا سمع الغنـاء (وغير مـزوّدِ) و (الغرابُ الأسود) وبان له ذلك في اللحن فطن لموضع الخطأ ، فلم يعد . إ. هـ .

والمـدهش حقـاً أن النـابغـة استشعر وجـود عـاهـة في شعره بيـد أنـه لم يصـل إلى تحديدها . قال خلاد الأرقط : « كان النابغة يقول إن في شعري لعـاهـة مـا أقف عليهـا فلما قدم المدينة غني في شعره فلما سمع قوله : (واتقتنا بـاليـدِ) و (يكاد من اللطـافـة يعقدُ) تبيّن له لمّا مدّت باليد فصارت الكسرة ياء ومدت يعقـد فصـارت الضمـة كالواو فطن فغيره وجعله (غنم على أغصـانـه لم يعقـد) وكان يقول : وردت يثرب وفي شعري بعض العاهة فصدرت عنها وأنا أشعر الناس . إ. هـ الأغاني 157/9 » .

إن علوّ كعب النابغة في الحياة وكونـه واحـداً من الأشراف ، وعـذوبـة شعره وقوه

أسره ، وتسابق الشارع الثقافي لحفظ شعره أو تلقيّه ، وانشغال المجالس بذكره ، فضلاً عن حكومة الشعر التي انفرد بها دون غيره ، ومبالغة ملوك الحيرة في الشرق وملوك بصرى في الغرب في إكرامه بحيث كان يكافأ على القصيدة الواحدة بهدايا تزيد على ما يتقاضاه خمسة شعراء مهمين . ولنا أن ننقل مشاعر حسان بن ثابت وهو يرى إلى ضآلة جائزته قياساً إلى حجم جائزة النابغة .

قال حسان بن ثابت فحسدته على ثلاث لا أدري على أيتهن كنت له أشد حسداً ، على إدناء النعمان له بعد المباعدة ومسامرته له وإصغائه إليه ، أم على جودة شعره ، أم على مئة بعير من عصافيره أمر له بها .

وقد جلبت نجومية النابغة متاعب لا حصر لها ، فقد كثر حسّاده ومبغضوه ولنا أن نورد الآتي دليلاً على حجم الأذى الذي نال النابغة بسبب نجاحه وتميّزه !! نقلاً عن الأغاني 158/9 وبعدها .. كان النابغة مخنثاً أما سمعت قوله :

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليد

لا والله ما أحسن هذه الإشارة ، ولا هذا القول إلا مخنث ، وأنشدها النابغة مرة بن سعد القُرَيعي ، فأنشدها مُرة النعمان فامتلأ غضباً ، فأوعد النابغة وتهدده ، فهرب فأتى قومه ، ثم شخص إلى ملوك غسّان بالشام فامتدحهم وقيل : إن عصام بن شهبر الجرمي حاجب النعمان أنذره وعرفه ما يريده النعمان فهرب . إن السبب في هرب النابغة من النعمان أن عبد القيس التميمي ومرة السعدي عملا هجاء في النعمان على لسان النابغة وأنشد النعمان منه أبياتاً يقول فيها :

☆ ملِك يلاعب أمّه وقطينه رخو المفاصل .... كالمرود

☆ قبّحت الله ثم ثنى بلعن وارثَ الصائغ الجبان الجهولا

من يضرّ الأدنى ويعجز عن ضرّ الأقاصي ومن يخون الخليلا ، يعني بوارث الصائغ النعمان ، وكان جده لأمه صائغاً بفدك . يقال له : « عطية وأم النعمان سلمى بنت

عطية » « إن مرة القريعي الذي وشي بالنابغة كان له سيف قاطع يقال له : ذا الريقة من كثرة فرنده وجوهره فذكره النابغة للنعمان فأخذه فاضطغن ذلك القريعي حتى وشي به إلى النعمان وحرّضه عليه » « إن الذي من أجله هرب النابغة من النعمان أنه كان والمنخل بن عبيد بن عامر اليشكري جالسين عنده ، وكان النعمان دمياً أبرش قبيح المنظر . وكان المنخل اليشكري من أجل العرب وكان يرمى بالمتجردة زوجة النعمان ويتحدّث العرب أن ابني النعمان منها كانا من المنخل ، فقال النعمان للنابغة يا أبا أمامة صف المتجردة في شعرك ، فقال قصيدته التي وصفها فيها ـ جزءاً فجزءاً ـ فلحقت المنخل من ذلك غيرة ، فقال للنعمان : ما يستطيع أن يقول هذا الشعر إلا من جرّبه ، فوقر ذلك في نفس النعمان ، وبلغ النابغة ، فخافه ، فهرب فصار في غسان ، وكان المنخل يهوى هنداً بنت عمرو بن هند وفيها يقول :

ولقد دخلت على الفتا ة الخدر في اليوم المطير

فبلغ عمراً خبر المنخل فأخذه فقتله » ، « ثم إن النعمان اطلع على ما بين المتجردة امرأته والمنخل من الريبة فقتلها في قصة طويلة » ويبدو أن النعمان كاتب النابغة سراً يوم كان مقيماً في ديار آل جفنة بالشام ودعاه إلى العودة ، مؤكداً له أن جديداً جد .. فبانت براءة النابغة ولقي الوشاة والخونة جزاءهم .. فعاد النابغة إلى بلاط النعمان ثانية ليجده مكتئباً مريضاً بعد قتله زوجته وصديقه لخيانتها قال أبو عبيدة كانت ملوك العرب إذا مرض أحدهم حملته الرجال في سرير على أكتافها يتعاقبونه ... عاد النابغة ليجد مليكه وصديقه محمولاً على سرير المرض والكآبة والعبيد يتنقلون به ما بين الغمر وقصور الحيرة وقد حزن النابغة ، وقال شعراً جميلاً يخاطب فيه عصام حاجب النعمان :

ألم أقسم عليك لتخبرني أمحمول على النعش الهمام
فإني لا ألومك في دخولي ولكن ما وراءك يا عصام
فإن يهلك أبو قابوس يهلك ربيع الناس والشهر الحرام

أما معلقته فقد كتبها ليسترضي النعمان بالمديح ، ويدافع عن براءته ، ويعتذر إليه نافياً وشاية المنخل بشأن العلاقة المزعومة بين النابغة والمتجردة أو في الأقل بشأن التأويل الماكر الذي لجأ إليه خصومه حين حللوا شعره !! وقد بدأت المعلقة بالوقوف على الأطلال والحنين إلى الماضي ثم أمر الشاعر نفسه بالكف عن الحنين (فعدّ عما ترى) لينطلق على ناقته وسط الصحراء مشبهاً الناقة بثور الوحش على طريقة الشعراء الجاهليين ليصطنع صراعاً دموياً بين ثور الوحش من جهة والصياد وكلابه من جهة واحدة .. وبعد أن ينتصر الثور في المعركة لأن القصيدة في المديح يقول الشاعر : إن هذه الناقة التي أشبهت ثور الوحش المنتصر المجرّح هي التي ستوصلني إلى الممدوح . وفي المعلقة استثمار للرموز التاريخية والدينية مثل (سليمان) و (لبد) و (الجن) و (تدمر) و (فتاة الحي/الزرقاء) و (الحج إلى الكعبة) و (الأنصاب) ليصل إلى ضرب من الاعتذار الشجي . ثم أخيراً إلى المديح المبتكر .

☆ معلقة (يا دار مية) . البحر : البسيط . القافية : د . عدد الأبيات : 50

1- يـا دارَ ميّـةَ بـالعليـاء فـالسنَـد ... أقـوت وطـال عليهـا سـالف الأبـد
2- وقفت فيهـا أصيـلاً كي أسـائِلهـا ... عيّت جـواباً ومـا بـالربـع من أحـد
3- إلا الأواريّ لأيـاً مـا أبيّنهـا ... والنؤي كالحـوض بـالمظلومـة الجلـد
4- ردت عليـه أقـاصيـه ولبّـده ... ضربُ الوليـدةِ بـالمسحـاةِ في الثـأد
5- خلت سبيـل أتيٍّ كان يحبِسُـه ... ورفّعتـه إلى السجفين فـالنّضـد
6- أضحت خلاء وأضحى أهلهـا احتملوا ... أخنى عليهـا الـذي أخنى على لبـد
7- فعـدّ عمـا ترى إذ لا ارتجـاع لـه ... وانمِ القتـودَ على عيرانـةٍ أُجُـد
8- مقـذوفـة بـدخيص النحض بـازِلُهـا ... لـه صريفٌ صريفَ القعـو بـالمسـد
9- كأن رحلي وقـد زال النهـار بنـا ... بـذي الجليـل على مستـأنس وَحَـد
10- مِن وحْش وجرةَ مـوشيٍّ أكارعُـه ... طـاوي المصيرِ كسيفِ الصيقـل الفَرَد
11- سرت عليـه من الجـوزاء سـاريـةٌ ... تُـزجي الشمالُ عليـه جـامـدَ البرَد
12- فارتـاع من صوت كلاّب فبـات لـه ... طوْعَ الشوامتِ من خـوف ومن صرد
13- فبثّهنّ عليـه واستمر بـه ... صُمْعُ الكعـوب بريئـات من الجرد
14- وكان ضمرانُ منـه حيث يـوزِعُـهُ ... طعْن المعـارك عنـد المُحْجر النحـد
15- شك الفريصـة في المـدرى فـأنفـذهـا ... شـكّ المبيطر إذ يَشفي من العضـد
16- كأنـه خـارجـاً من جنب صفحتـه ... سفُّـودُ شَرب نسـوه عنـد مفتـأد
17- فظـل يعجم أعلى الروق منقبضـاً ... في حـالـك اللون صـدقٍ غير ذي أود
18- لمـا رأى واشِـقٌ إقعـاص صـاحبـه ... ولا سبيـل إلى عقـل ولا قـود
19- قـالت لـه النفس إني لا أرى طمعـاً ... وإنّ مـولاك لم يسلم ولم يصـد
20- فتلـك تُبلغني النعمانَ إنّ لـه ... فضلاً على الناس في الأدنى وفي البَعَد
21- ولا أرى فـاعـلاً في النـاس يشبهـه ... ومـا أحـاشي من الأقـوام من أحـد
22- إلا سليمـانَ إذ قـال الإلـهُ لـه ... قم في البريـة فـاحْـدُدْهـا عن الفنـد

23- وخيّس الجنّ أني قـــد أذنتُ لهم ... يبنـون تـدمرَ بـالصُّفّـاح والعُمُـد
24- فمن أطـاع فـأعقِبـه بطـاعتـه ... كما أطـاعـك وادلُلْـه على الرُّشَـد
25- ومَن عصـاكَ فعـاقبـه معـاقبـةً ... تنهى الظلـوم ولا تَقْعـد على ضمـد
26- إلا لمثلـك أو مَن أنت ســابقُـه ... سبْـق الجـواد إذا استـولى على الأمـد
27- واحكم كحكم فتـاةِ الحي إذ نظرت ... إلى حمـــام سراعٍ واردِ الثّمـــد
28- قـالت: ألا ليتمـا هـذا الحمـامُ لنـا ... إلى حمـامتنـا ونصفـه فَقَـد
29- يحفّـهُ جـانبـا نيـقٍ وتتبعُـه ... مثلَ الزجـاجـةِ لم تكحـل مِن الرّمَـد
30- فحسّبـوهُ فـألفـوه كما حَسَبَتْ ... تسعـاً وتسعين لم تنقص ولم تـزِد
31- فكمّلتْ مئـة فيهـا حمـامتُهـا ... وأسرعَتْ حسبـةً في ذلـك العـدد
32- أعطى لفـارهـةٍ حلـوٍ تـوابعهـا ... من المـواهب لا تُعطى على نكـد
33- الـواهِبُ المئـة الأبكارَ زَيَّنهـا ... سعـدانٌ تـوضحَ في أوبـارها اللَّبَـد
34- والسـاحبـات ذيـولَ المرط أتّقهـا ... برْدُ الهـواجر كالغـزلان بـالجرد
35- والخيـلُ تمـزعُ غربـاً في أعنّتهـا ... كالطير تنجو من الشؤبـوبَ ذي البرد
36- والأدمُ قـد خيّست فُتـلاً مرافقُهـا ... مشـدودةً برحـال الحيرةِ الْجُـدُد
37- فـلا لعمْرُ الـذي مسّحت كعبتـه ... ومـا هُريقَ على الأنصاب من جسد
38- والمؤمن العـائـذات الطيرَ يمسحُهـا ... ركبـانُ مكّـةَ بين الغيض والسَّنـد
39- مـــا إن أتيتُ بشيءٍ أنت تكرَهُـه ... إذن فـلا رفعت سـوطي إليَّ يـدي
40- إذن فعـاقبني ربي معـاقبـة ... قرّت بهـا عينُ من يـأتيـك بـالحسد
41- هـذا لأبرأ من قـولَ قُـذِفتُ بـه ... طـارتْ نـوافـذه حرّاً على كبـدي
42- مهـلاً فـداءٌ لـك الأقـوامُ كلّهم ... ومـــا أُثَمِّرُ من مـــالٍ ومن ولـد
43- لا تقـذفنّي برُكن لا كفـاء لـه ... ولـو تـأثّفـكَ الأعـداء بـالرّفـد
44- فـا الفراتُ إذا جـاشتْ غـوارِبُـه ... ترمي أواذيَّـةُ العَبْرين بـالـزَّبـد
45- يمـــدُّه كلُّ وادٍ مُـزبـــدٍ لجب ... فيـه حطـامٌ من الينبوت والخضـد

46- يظلُّ من خوفه المـلاّحُ معتصماً بالخيزرانة بعد الأين والنّجد
47- يوماً بأجود منه سيبَ نافلةٍ ولا يجولُ عطاءُ اليومِ دون غد
48- نبئتُ أنّ أبا قابوسَ أوعدني ولا قرارَ على زأرٍ من الأسد
49- هذا الثناءُ فإن تسمعْ لقائله فما عرضْتُ أبيتَ اللعنَ بالصّفَد
50- ها إن تا عَذرةً إلا تَكُنْ نفعَت فإن صاحبها قد تاه في البلد

☆ معاني الكلمات

1 - مية : اسم امرأة . العلياء والسند : موضعان أقامت فيها مية ، وزعم أن العلياء مكان مرتفع والسند سند الوادي في الجبل وهو ارتفاعه !! أقوت : خلت من أهلها . السالف : الماضي . الأبد : الدهر .

2 - الأصيل وقت غروب الشمس وتلوّن الأفق والمرئيات بلون أصفر فيه حمرة . عيت : عجزت عنه . الربع : ديار الحبيبة استحالت آثاراً .

3 - الأواري مفردها آري وهو محبس الدابة . اللأي : البطء . النؤي : حاجز ترابي يعمل حول البيت أو الخيمة لمنع وصول الماء إلى أي منهما . المظلومة : الأرض التي حفر فيها في غير موضع الحفر . الجلد : الأرض الغليظة الصلبة من غير حجارة .

4 - أقاصيه : ماشذّ منه . لبدّه : التلبدّ التراكم . الوليدة : الخادمة . الثأد : التراب الندي . المسحاة : آلة زراعية لشق الطين وجرفه .

5 - الأتيّ : السيل الجارف أو النهر الصغير . السجفان : ستران رقيقان يكونان في مقدمة البيت . النضد : مانضد من متاع البيت والضمير في (خلّت) يعود إلى الخادمة في بيت4 .

6 - الخلاء : الخلو والفراغ . احتملوا : سافروا . أخنى عليها : نزل بها وغير سعدها نحساً . لبد : آخر نسور لقمان فلما أهلك الله عاداً طلب إلى لقمان أن يختار مدة بقائه من اثنين : أن تفنى سبع بعرات لا يمسّها المطر أو إلى أن تنتهي أعمار سبع نسور كلما هلك واحد خلفه آخر ، فاختار النسور ولبد هو اسم آخر النسور السبعة ، وحين كبر لبد وعجز عن النهوض قال له لقمان : انهض لبد فأنت الأبد .

7 - عدّ : اترك هذا الأمر أي الحنين والشوق للماضي وهذا تقليد شاع في القصيدة الجاهلية ،

يمثّل نقله فنية بين الوقوف على الأطلال وممارسة الحنين والبكاء وبين الانتقال إلى السفر بوساطة ناقة قوية تشبه ثور الوحش أو حمار الوحش[22] . انم : ارفع . القتود : خشب الرحل . العيرانة : الناقة المشبهة بالعير أي الحمار . الأجد : الناقة القوية الموثقة الخلق .

8 ـ مقذوفة : مرمية باللحم . الدخيص : الكثير المتداخل . النحض : اللحم . البازل : الكبير . الصريف : الصياح من شدة الإعياء أو النشاط !! القعو : ما يضمّ البكرة إذا كان خشباً . المسد : الحبل المفتول القوي من ليف أو خوص أو شعر أو وبر أو صوف .

9 ـ زال : انتصف . رحلي : ناقتي . الجليل : واد قرب مكة يكثر فيه نبات الثمام . المستأنس : الناظر بعينه . الوحد : المنفرد .

10 ـ وجرة : موضع بين مكة والحيرة وهي أربعون ميلاً ليس فيها منزل ولا نبات ولا ماء يكثر فيها الوحش . الموشي : الملوّن بالأبيض والأسود . الأكارع : القوائم . طاوي المصير : ضامر المصران . كسيف الصيقل : كناية عن اللمعان . الفرد : الذي ليس له نظير .

11 ـ سرت عليه : أمطرت عليه بنوء الجوزاء (كما يزعم) . تزجي : تسوق برفق . الشمال : ريح الشمال .

---

(22) رومية . وهب ، الرحلة في القصيدة الجاهلية ، طب اتحاد كتاب فلسطين 1975 . القيسي . د . نوري ، وحدة الموضوع في القصيدة الجاهلية ، طب دار الكتب ، الموصل 1974 .

أ ـ زهير

(دع ذا وعدّ القول في هرم خير الكهول وسيّد الحضر)

ب ـ أوس بن حجر

(فدعها وسل الهمّ عنك بجسرة عليها من الحول الذي قد مضى كتر)

جـ ـ لبيد

(فاقطع لبانة من تعرّض وصله ولشرُّ واصلِ خلّة صرّامها)

د ـ سلامة بن جندل

(دع ذا وقل لبني سعد بفضلهم مدحاً يسير به غادي الأراكيب)

هـ ـ الأعشى

(فدعها لما يعنيك واعمد لغيرها بشعرك واعلب أنف من أنت واسم)

و ـ امرؤ القيس

(فدع ذا وسلّ الهم عنك بجسرة ذمول إذا صام النهار وهجّرا)

12 ـ ارتاع : خاف . كلاّب : صياد يعتمد على الكلاب . الشوامت : القوائم . الصرد : البرد الشديد .

13 ـ بثهن : فرقهن . الصع : الضوامر . الكعوب : مفاصل العظام . الحرد : مرض يصيب أرجل البعير بالاسترخاء .

14 ـ ضمران : اسم كلب وربما صفة له لأنه يضمّر أي يدرّب فهو ضامر من الرياضة !!. يوزعه : يغريه . منه : الضمير عائد إلى الثور . المحجر : الملجأ . النجد : ذو المروءة والقوة والنجدة .

15 ـ شك : جرح وأنفذ . الفريصة : اللحم الذي بين الصدر والكتف من الإنسان والدابة وهي ترعد عند الخوف قبل سائر الأعضاء . المدرى : القرن . المبيطر : طبيب الحيوان . العضد : داء يصيب العضد من الجمل .

16 ـ السنود : بفتح السين وضمّها قناة رفيعة من الحديد ذات شعب معقفة لشيّ اللحم . الشرب : رفاق الخمرة . المفتأد : النار المخصصة لشيّ اللحم .

17 ـ يعجم : يعضّ أو يمضغ . الروق : القرن . الحالك : الشديد السواد . الصدق : الصلب . الأود : العوج .

18 ـ واشق : اسم الكلب الآخر . الإقعاص : القتل المعجّل في المكان عينه . العقل : دفع ديّة القتيل وقد يكون الحبس والتقييد عقلاً !! القود : قتل النفس بالنفس وهو القصاص .

20 ـ فتلك : الناقة المشبهة بالثور .

21 ـ أحاشي : استثنى من حاش فلاناً .

22 ـ أحددها : أمنعها . الفند : الخطأ والضلالة .

23 ـ خيسّ : ذلل وأمر وأخبر . تدمر (معجم البلدان 433/1) مدينة قديمة مشهورة في برية الشام في طريق حلب وهي من عجائب الأبنية موضوعة على العمد الرخام زعم قوم أنها مما بنته الجن لسليمان عليه السلام ، وأهل تدمر يزعمون أن ذلك البناء قبل سليمان بن داوود بعشرات القرون ولكن الناس إذا رأوا بناءً عجيباً وجهلوا بانيه أضافوه إلى سليمان وإلى الجن ، ونقل ياقوت الحموي كلاماً لخالد بن عبد الله القسري يقول فيه : « كنت مع مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية حين هدم حائط تدمر دون إذنه بسبب خلاف بين جماعتين فقتل الجماعتين وفرّق الخيل عليهم تدوسهم وهم قتلى فطارت لحومهم وعظامهم في سنابك الخيل ، وقد أفضى هدم حائط المدينة إلى

جرف عظيم فكشفوا عنه صخرة فإذا ببيت مجصص كأن يد البناء رفعت عنه تلك الساعة وإذا فيه سرير عليه امرأة مستلقية على ظهرها وعليها سبعون حلة وإذا لها سبع غدائر مشدودة بخلخالها ! قال فذرعت قدمها طولها ذراعاً من غير الأصابع وإذا في بعض غدائرها صحيفة ذهب فيها مكتوب : باسمك اللهم ، أنا تدمر بنت حسّان أدخل الله الذل على من يدخل بيتي هذا فأمر مروان بالجرف فأعيد كما كان ، ولم يأخذ مما كان عليها من الحلي شيئاً ، قال : فوالله ما مكثنا على ذلك إلا أياماً حتى أقبل عبد الله بن علي فقتل مروان وفرّق جيشه واستباحه وأزال الملك عنه وعن أهل بيته .

وكان من جملة التصاوير التي شوهدت بتدمر صورة جاريتين من حجارة وهي بقية صور كانت هناك ... 433/1 .

وتعليقنا على تلك المزاعم أنها مزيج من خيال وواقع ، ويبدو أن مثل هذه القصص العجائبية كانت تلقى رواجاً بين الناس والأمراء على حد سواء مما حبّذ للقصاص خلط الواقع بالأسطورة !! إ.هـ . الصفاح : مفردها صفاحة وهي حجارة رقيقة وعريضة . العمد مفردها عمود : أسطوانة من الرخام .

25 ـ الضمد : الحقد .

26 ـ مثلك : من كان من نسلك أو شبيهاً لك . الأمد : الغاية .

27 ـ احكم : كن حكيماً . فتاة الحي : زرقاء اليمامة . الثمد : الماء .

28 ـ فقد : فحسب .

29 ـ يحفّه : يقاربه أو يحيط به . النيق : أعلى الجبل . مثل الزجاجة : أي إن عينها صافية مثل الزجاجة لم تكحل من الرمد : كناية عن صحتها وجمالها .

30 ـ حسّبوه : أحصوه . ألفوه : وجدوه .

31 ـ الحسبة : الجهة التي يحسب منها زنة اللبسة والجلسة والحسبة المرة الواحدة . وقصة زرقاء اليمامة مذكورة تفصيلاً في معجم البلدان باب الياء والميم وما يليهما ، اليمامة 505/4 وما بعدها حتى ص509 .

32 ـ الفارهة : الكريمة من الإبل والفتية أيضاً . توابعها : العطايا الممنوحة معها . النكد : الشؤم والضيق . المواهب مفردتها موهبة وهي الهبة .

33 ـ السعدان : نبت تسمن عليه الإبل وتغزر ألبانها ويطيب لحمها . توضح : اسم موضع . اللبد : ما تلبدّ من الوبر واحدتها لبدة .

34 ـ الساحبات : الجواري . المرط : ثوب أخضر من ثمين الخز أو الصوف أو الكتان جمعه مروط . أنّقها : أعطاها ما يُعجبها ، أو يجعلها موضع إعجاب . الهواجر مفردها هاجرة : حرّ منتصف النهار وهو أشدّ الحر ، وهذه الجواري الحسان لا تسير في شدة الحر . الجرد : الموضع الذي لا نبت فيه ولا ظل .

35 ـ تمزع : تُسرع . غرباً : حدّة : الشؤبوب . السحاب العظيم المطر ، ولا يقال للمطر شؤبوب إلا وفيه برد .

36 ـ الأدم : النوق . خيست : ذللت . فُتلاً مرافقها : مرافقها مفتولة مما يعيقها في السير . الجدد : الرحل يوضع على ظهر الدابة وقوله الحيرة الجدد إشارة إلى أنها مصنوعة في الحيرة إشارة لغلائها .

37 ـ صدر البيت قسم بالله تعالى رب الكعبة . وعجز البيت (!!) هريق : لغة في أريق الأنصاب حجارة كانت الجاهلية تنصبها وتذبح عندها . الجسد : الدم والصبغ .

38 ـ العائذات : ما عاذ بالبيت . الغيض والسند مرتفعان يتألف منهما جبل أبي قبيس وقيل : إن الغيض الماء ينزل بهيئة شلال من أبي قبيس .

39 ـ فلا رفعت سوطي إليّ يدي : عبارة شائعة في الجاهلية تحل محل القسم ، وهي كناية عن الشلل ، والمعنى شلّت يد الشاعر إن أتى بشيء يكرهه النعمان .

40 ـ قرّت العين : بردت والقرور الدمع البارد .

41 ـ النوافذ : جراح عميقة . قذفت به : أتهمتُ به إتهاماً باطلاً .

43 ـ الكفاء : الشبيه . تأتّفك : قاربوك فاستندت إليهم كما يستند القدر على الأثافي . الرفد : العطاء أو المساعدة .

44 ـ جاشت : فارت . الغوارب : الأعالي ومعناها هنا الأمواج والفيضان . الأواذي : الأمواج . العبرين : الضفتين .

45 ـ اللجب : ذو الصوت والتكاثف . الينبوت : شجر الخشخاش ، وقيل غير ذلك : شجرة شوكية لها فروع كثيفة الورق ، وقيل : هو الخروب ثمرته مثل التفاحة فيها حب أحمر والجاهليون

يتداوون بها من أوجاع البطن ، وقيل الينبوتة تشبه شجرة التفاح الكبيرة ، لها ورق أصغر من ورق التفاح ، وثمرها أصغر من الزعرور شديدة السواد والحلاوة ويستعمل نواها مثاقيل في الموازين . الخضد : ماثني وتكسر من النبت .

46 ـ الخيزرانة عصاة مرنة تتثنى وأراد المردي ، وقيل : إن الخيزرانة خشبة في مؤخرة السفينة يمسكها الملاح ليتماسك . الأين : الإعياء . النجد : الكآبة . السيب : العطاء . النافلة : الزيادة .

وقفة فنية : الأبيات (44ـ47) سلوك جمالي دشنته القصيدة الجاهلية واسمه (النفي والجحود) ، ويقوم هذا النمط الأسلوبي على ترتيب عدة صور لجلاء صورة أو حدث ، وقد أورده ابن معصوم المدني نمطاً ثانياً للتفريع ، فالنمط الأول حدوده بأن يثبت لمتعلق أمر حكماً بعد إثبات ذلك الحكم لمتعلق آخر على وجه يشعر بالتفريع والتعقيب ، وهذا النمط غير مشهور . أما النمط الثاني فقد قال بشأنه ابن معصوم : وسماه بعضهم النفي والجحود وهو أن يأخذ المتكلم في وصف فيقول : ما كذا ويصفه بمعظم أوصافه اللائقة به في الحسن أو القبح ثم يجعله أصلاً يفرّع منه معنى فيقول .. بأفعل من كذا وهو المعنى المشهور للتفريع ، ومثاله قول الأعشى : (ديوانه ق4 ب36ـ39) :

وما مزبد من خليج الفرا ت جونٌ غواربه تلتطم
يكُب الخليلة ذات القلا ع قد كاد جوجؤها ينحطم
تكأكأ ملاحها وسطها من الخوف كوثلها يلتزم
بأجود منه بما عونه إذا ما ساؤهم لم تغم

والذي نراه أن النفي والجحود نمط من الأسلوب التصويري ينم عن دراية الشاعر بمواضع التأثير في نفس المتلقي ومواضع السحر في الشعر ، فمثل هذا النمط قادر على بث شحنات من الإيحاء تقرب صورة من يحب ثم يجلوها ويزينها ، وقد غلا في ذلك أبو ذؤيب الهذلي حتى لاتكاد تخلو منه قصيدة من قصائده[23] .

48 ـ أبو قابوس : النعمان بن المنذر ، الزأر : صياح الأسد .

(23) الصائغ ، د. عبد الإله ، الصورة الفنية معياراً نقدياً ، انظر مبحث النفي والجحود ، الفصل الخامس ص383 .

49 ـ والصفد العطية والمكافأة . أبيت اللعن : عبارة يُخاطب بها الملوك ومعناه أيها الملك أنت أبيت أن تأتي شيئاً تلعن عليه .

50 ـ هذا البيت يلخص همّ المعلقة ومعناه .. هذه القصيدة هي اعتذاري إلى الملك فإن لم يقبلها الملك فإن صاحب القصيدة أي النابغة سيضيع في الأرض .

10 ـ عَبِيد بن الأبرص (ت 565 ق . هـ/605م)

هو عبيد (بفتح العين وكسر الباء) بن الأبرص بن عوف بن جشم بن عامر بن مالك بن الحارث بن سعد بن ثعلبة بن دودان بن أسد على رواية ابن قتيبة ص166 وعبيد بن الأبرص بن حنتم بن عامر بن مالك .. بن أسد وصولاً إلى مضر على رواية الأصبهاني 84/19 والتبريزي ص323 .

وهو عبيد بن الأبرص بن عوف بن جشم بن عامر بن مالك وصولاً إلى مضر على رواية الشنقيطي ص143 .

وقد وضعه الجمحي ص78 في الطبقة الرابعة مع طرفة بن العبد وعلقمة بن عبدة وعدي بن زيد .

وذكر جرجي زيدان 114/1 أن عبيد توفي (555م) وهو (من شعراء الطبقة الأولى) !! أما أبو زيد القرشي ص173 فقد وضعه ضمن شعراء المجمهرات ، وهو أولهم ، ويتلوه عدي بن زيد ، وبشر بن أبي خازم ، وأمية بن أبي الصلت ، وخداش بن زهير ، والنمر بن تولب !! ويعني القرشي بالمجمهرات القصائد المحكمة السّبك ، واللفظة مأخوذة من الناقة المجمهرة وهي المتداخلة الخلق كأنها جمهور من رمل ، وترتيب أصحاب المجمهرات هو أنهم من الطبقة الثانية يأتون بعد شعراء المعلقات المنعمين بالطبقة الأولى ، وهم عند القرشي (امرؤ القيس وزهير والنابغة والأعشى ولبيد وعمرو بن كلثوم وطرفة) !! وكلما اختلف المؤرخون وعلماء الشعر في شاعر فإن ذلك يعني أهمية مقام الشاعر بين شعراء عصره وفي موازين النقد التي سادت في زمانه !!

يقول ابن قتيبة : وكان عبيد شاعراً جاهلياً قديماً من المعمرين وشهد مقتل حجر أبي امرئ القيس وهو القائل لامرئ القيس :

يـاذا المخـوفنـا بقتـل أبيـه إذلالاً وحَينـا
أزعمت أنـك قـد قتلت سراتنـا كـذبـاً ومينـا
هـلا على حُجر بن أم قطـام تبكي لا علينـا
إنـا إذا عضّ الثقـاف برأس صعـدتنـا لـوينـا
نحمي حقيقتنـا وبعض القـوم يسقـط بين بينـا
هـلا سألتَ جموع كنـدة يـوم ولـو أين أينـا
أيـامَ نضرب هـامهم ببـواتر حتى انحنينـا

وقتله النعمان بن المنذر يوم بؤسه ، وحين رآه النعمان شيخاً فانياً مرعوباً قال لـه : هلا كان هذا لغيرك يا عبيـد ، أنشـدني شيئـاً من شعرك فربمـا راقني شعرك ، فقـال لـه عبيد وهو يرتجف : « حال الجريضُ دونَ القريض » ولم يتركه النعمان ، بل طلب إليـه أن ينشده : (أقفر من أهله ملحوب) فأنشده عبيد فرقّ النعمان لحـالـه ومنحـه حريـة اختيار الطريقة التي يموت فيها !! وحين أدرك عبيد أنه ميت لا محالـة التمس الملـك أن يسقيـه الراح حتى إذا ثمل وفقـد وعيـه يقطع لـه عرقـاً في الأكحـل فـاستجـاب النعمان لالتماسه ، وجمع دمه في طست ولطّخ به الغريين وموقعه في النجف ، ومـا زالت النجف تسمى حتى اليوم أرض الغري والغريان طرباً لأنّه كان يلطخها النعمان بدماء ضحـايـاه يوم بؤسه ، وقد بناها ليكونا نصباً تذكارياً فوق مثوى نـديمـيـه اللـذين قتلهما في لحظـة سكر ملعونة وحين أفاق ندم على فعلته وبكاهما مرّ البكاء وكانت الكآبة وذكراهما تعتاداه فيجعل يوم كآبتـه يوم بؤس وبـدلاً من أن يكفّر عن جريمتـه ، نراه قـد أمعن في القتل فأضاف إليهما جيشاً من الأبرياء .. كان عبيد واحداً من هذا الجيش ! ويرى الأصبهاني أن عبيداً فحل فصيح من شعراء الجاهلية ، ونقل خبراً عن أبي عمرو الشيبـاني : كان من حديث عبيد بن الأبرص أنه كان رجلاً محتاجاً ولم يكن له مال ، فأقبل ذات يوم ومعه

غنية له ومعه أخته ماوية ليوردا غنمها فمنعه رجل من بني مالك بن ثعلبة وجبهه ، فانطلق عبيد حزيناً مهموماً وشق عليه أن يهان أمام أخته حتى أتى شجيرات فاستظل تحتها فنام هو ونامت أخته إلى جانبه (فزعموا) أن المالكي نظر إلى عبيد وأخته ماوية إلى جنبه فقال :

ذاك عبيد قد أصاب ميا ـ ياليته ألقحها صبيّاً ـ فحملت فوضعت ضويّا فسمعه عبيد فرفع يديه إلى السماء ثم ابتهل وقال : اللهم إن كان المالكي ظلمني ورماني بالبهتان فانصرني عليه ، ثم عاد إلى النوم ثانية ولم يكن قبل ذلك قد قال الشعر ، فأتاه آت في الحلم وكبّ في فمه شعراً ثم أمره بالقيام فقام وهو يرتجز ، وأسمع المالكي رجزاً هجاه فيه أقذع الهجاء وأفحم المالكي فاعتذر له ولأخته ، ثم استمر بعد ذلك في قول الشعر ، وكان شاعر بني أسد غير مدافع .

وقد حيكت حول شاعريته حكايات عجائبية أخرى فقيل : إن عبيداً في واحدة من أسفاره رأى شجاعاً (أفعى) يتعك على الرمضاء ، وكان مع عبيد فضلة من ماء ليس معه ماء غيرها فنزل فسقاه الماء عن آخره حتى روي وانتعش وانساب الشجاع في الرمل .. وقد اتضح أن هذا الشجاع واحد من شياطين الشعر فعقدت بين الاثنين صداقة متينة وصار الشجاع مثل (السوبرمان) ينجد عبيداً في اللحظات المهلكة ، ولا ندري أين كان هذا الشجاع حين قتل عبيد ؟!

وقيل في قتله كلام كثير ، يدل أكثره على تفاهه حياة الإنسان في العصر الجاهلي وتسلّط الحكام برقاب الناس ، أما شعره فأكثره قد ضاع وذكر جرجي زيدان ما يلي : « ولعبيد ديوان تحت الطبع على يد لجنة تذكار جيب بإنجلترة مع ديوان عامر بن الطفيل بتصحيح المستشرق LYALL » وقد طبع ديوان عبيد بن الأبرص مفرداً بتحقيق الدكتور حسين نصار عام 1957 بمصر مطبعة مصطفى البابي ، ولكن ديوانه المطبوع لم يتضمن سوى جزء من شعره ! يقول ابن سلام ص79 : وعبيد بن الأبرص

قديم عظيم الـذكر ، عظيم الشهرة ، وشعره مضطرب ذاهب لا أعرف لـه إلا قولـه (أقفر من أهله ملحوب) ولا أدري ما بعد ذلك . ا . هـ .

وقد شكـك د . طـه حسين بعبيـد وشعره « فـالرواة لا يحـدثوننـا عن عبيـد بشيء يقبل الصدق إنما عبيد عند الرواة والقصاص شخص من أصحاب الخوارق والكرامـات ، كان صديقـاً للجن والسماء معـاً .. ولعبيـد مع الجن أحـاديث لا تخلو من لـذة وعجب ، ولكن كل ما نقرأ من أخبار عبيد لا يعطينا من شخصيته شيئـاً ، ولا يبعث الاطمئنـان إلا في أنفس العامة أو أشباه العامة »[24] .

ويلاحـظ المتمعن في كلام طـه حسين شيئـاً من العجرفـة التي لا تنـاسب الخطـاب العلمي المستند إلى الأدلة العلمية فهو يتهم خصومه بأنهم من عامة النّاس أو أشباه العامـة أي إنهم غير مثقفين فضلاً عن لهجـة الاستعلاء التي درج عليهـا رجل من العـامـة حصـل على الدكتوراه من باريس ، ولماذا لا يطمئن طه حسين مثلاً لمعلقة عبيد وهي مضطربة الوزن ، ولو رضينا عن اعتدادها من شغل الوضّاح لبلغتنـا موزونـة مثلاً !! والقـدمـاء يقولون : إن (أقفر من أهله ملحوب) كانت خطبة ألقاها عبيد فاستقام وزنها ثم عـدّل فيها ونقّح .

---

(24) حسين . د . طه ، في الشعر الجاهلي ، طبعة دار المعارف سوسة ـ تونس 1997 ، ص 163 .

☆ معلقة (أقفر من أهله ملحوب) . البحر : مخلّع البسيط . القافية : ب .

عدد الأبيات : 48

1- أقفر من أهلـــــه ملحـــوب ... فـــالقطّبيـــاتُ فـــالـــذنـوب

2- فراكس فثعيلبـــــــات ... فـــــذاتُ فرقين فـــــالقليب

3- فعردةٌ فقفـــــــــا حِبرّ ... ليس بهـــــــا منهم عريب

4- وبـــــدّلت منهمُ وحـــوشـــاً ... وغيّرت حـــالهـــا الخطـــوب

5- أرض تـــوارثهـــا شُعـــوب ... فكل من حلّهـــــــا محروب

6- إمـــا قتيـلاً وإمـــا هـــالكاً ... والشيب شين لمن يشيب

7- عينـــــــاكَ ومعُها سرُوبُ ... كأن شـــــــأنيهما شعيب

8- واهيـــــــــة أو معين معْن ... من هضبـــة دونهـــا لُهُـــوب

9- أو فلـــــــــجٌ ببطن وادٍ ... للمـــــاءِ من تحتـــــه قسيب

10- أو جـــدولٌ في ظـــلال نخـــل ... للمـــاء من تحتـــه سُكـــوب

11- تصبـــو وأنى لـــك التصـــابي ... أنى وقـــد راعـــكَ المشيبُ

12- فـــان يكن حـــالَ أجمعُهـــا ... فـــلا بـــــديٌّ ولا عجيب

13- أو يـــك أقفر منهـــا جـوُّهـــا ... وعـــادهـــا المحـلُ والجُـــدوب

14- فكل ذي نعمـــــة مخلـــوس ... وكل ذي أمـــلٍ مكـــــذوب

15- وكل ذي إبـــــل مـــــوروث ... وكل ذي سلب مسلـــــــوب

16- وكل ذي غيبـــــةٍ يـــؤوب ... وغـــائبُ المـــوت لا يـــؤوب

17- أعـــــاقِرٌ مثـــلُ ذات رحْم ... أو غـــــانم مثـــلُ من يخيب

18- مَن يســـأل النـــاسَ يحرمـــوه ... وســـــائِـــلُ الله لا يخيبُ

19- بـــــالله يُـــــدركُ كل خيرٍ ... والقـــولُ في بعضِـــــهِ تلغيبُ

20- والله ليس لـــــه شريـــــكٌ ... عَـــلاّمُ مـــا أخفتِ القلِـــوب

21- أفلـح بمـا شئتَ فقـد يُبْلـغُ بـالـ ... ـضَعْف وقـــد يُخْـــدعُ الأريبُ

22- لا يعِـظُ النـاسُ من لا يعـظُ الـدَّ ... هْرُ ولا ينفـــــــع التلبيبُ

23- إلا سجيـــــاتٌ مِ القلـــوب ... وكم يُصيرنَّ شـــانئـــاً حبيبُ

24- ساعِـدْ بـأرضٍ إن كنتَ فيهـا ... ولا تقـــــــل إنني غريب

25- قـد يـوصَلُ النـازِحُ النـائي وقـد ... يُقْطـــعُ ذو السُّهْمـــةِ القريبُ

26- والمرءُ مـا عـاشَ في تكـذيبٍ ... طـولُ الحيـاة لـه تعـذيب

27- بـل رُبّ مـاءٍ وردْتُـهُ آجنٍ ... سبيلـه خـائفٌ جـديب

28- ريشُ الحمـامِ على أرجـائـه ... للقلبِ مِن خـوفِـه وجيب

29- قطعتُـه غُـدوةً مشيحـاً ... وصـاحبي بـادن خَبـوبُ

30- عيرانـةً مـؤجَـدٌ فَقَـارُهـا ... كأنّ حـاركهـا كثيبُ

31- أخْلَفَ بـازلاً سـديسُ ... لاحِقّـةٌ هي ولا نَيـوبُ

32- كأنهـا من حمير عـانـاتٍ ... جـوْنٌ بصفحتـه نـدوب

33- أو شببٌ يرتعي الرُّخـامى ... تلُطّـهُ شمألٌ هَبـوبُ

34- فـذاك عصْرٌ وقـد أراني ... تحملني نهـدةٌ سُرْحُـوب

35- مُضبَّرٌ حلقُهـا تضبيراً ... ينشـقُّ عن وجْهِهـا السبيبُ

36- زيتيـةٌ نـائمٌ عُرُوقُهـا ... وليِّنٌ أسْرُهـا رطيبُ

37- كأنهـا لقـوةٌ طلـوبٌ ... تيبّسُ في وكْرِهـا القلـوب

38- بـاتت على إرْمٍ عـذوبـاً ... كأنهـا شيخـةٌ رقـوبُ

39- فـأصبحتْ في غـداةِ قُرٍّ ... يسقـطُ عن ريشهـا الضريبُ

40- فـأبصرتْ ثعلبـاً سريعـاً ... ودونَـهُ سبسبٌ جـديبُ

41- فنفّضت ريشهـا وولّتْ ... وهي من نهضـة قريب

42- فـاشتـالَ وارتـاع مِن حسيسٍ ... وفِعْلُـه يفعِـلُ المـذؤوبُ

43- فنهضت نحـوه حثيثـاً ... وحَرَدت حرْدَه تسيبُ

44- فـدبّ من خلفِهـا دبيبـاً ... والعينُ حِمْـلاقُهـا مقلـوب

45- فـــأدركتْـــه فطرّحتْـــه والصيـــدُ من تحتهـــا مكروب

46- فجـــدّلتـــه فطرّحتْـــه فكـــدحت وجْهَـــةُ الجبـــوبُ

47- فعـــاودتْـــهُ فرفّعتْـــه فـــأرسلتـــه وهـــو مكروب

48- يضغـــو ومخلبُهـــا في دَفّـــه لا بـــدَّ حيزومـــه منقـــوبُ

☆ معاني الكلمات

1 ـ أقفر : خلا . ملحوب : ماء لبني أسد . القطبيات : بالضم ثم التشديد ثم باء ثم ياء مشددة : اسم جبل . الذنوب : اسم موضع .

2 ـ راكس وثعيلبات : موضعان . القليب : البئر . ذات فرقين : هضبات متفرقة مثل الأسنة .

3 ـ عردة : هضبة فيها ماء لكعب بن عبد بن أبي بكر . حبر : بكسرتين وتشديد الراء جبل بديار بني سليم . عريب ومعرب : أحد .

5 ـ شعوب : اسم للمنية . المحروب : المسلوب .

6 ـ والنصب في (قتيلاً وهالكاً) على تقدير ، إما أن يكون ذلك المحروب قتيلاً ، وإما أن يكون هالكاً . الشيب شين : الجاهليون يستحبون أن يموت الإنسان وفيه بقية قبل أن يزري به الكبر .

7 ـ سروب : يطلع دون إرادة . الشأن : مجرى الدمع . الشعيب : المزادة المنشقة .

8 ـ واهية : بالية . المعين : الذي يأتي على وجه الأرض من الماء فلا يردّه شيء . المعن والممعن : السريع . اللهوب مفردها لهب : شق في الجبل والمعنى : كأن دمعه ماء يمعن من هذه الهضبة منحدراً وفي أسفله شق !

11 ـ تصبو : تعشق من الصبوة . أنى لك : كيف لك بهذا . راعك : أفزعك .

12 ـ حال : تغيّر وانتقل . البدي : المبتدأ وأول الديار ، وتأتي بدي بمعنى غريب وعجيب وفري .

13 ـ الجو : الوسط . عادها : انتابها وأصابها وأصله من عيادة المريض . المحل والجدوب : واحد .

14 ـ المخلوس : المسلوب على غفلة منه . وكل ذي أمل مكذوب : الأمل الذي لا يُنال يشبه الكذب على النفس أو الآخر .

15 ـ كل من كان له شيء سلبه من غيره فهو يسلب يوماً ما .. وإن لم يسلبه أحد مثله فلسوف يسلبه الموت ..

16 ـ يؤوب : يعود .

17 ـ العاقر : المرأة التي لا تلد والرملة التي لا تنبت . ذات رحم : المرأة الولود .

19 ـ تلغيب : ضعف والسهم اللغب الذي لا يراهن عليه لتعرّجه وانتفاخه .

21 ـ أفلح : من الفلاح وهو البقاء ، أي عش كيف شئت فلا عليك فقد يدرك الضعيف بضعفه ما لا يدرك القوي . الأريب : العاقل وقد سئل الحطيئة من أشعر الناس ؟ قال الذي يقول أفلح بما شئت ..

22 ـ التلبيب : تكلف اللب أي العقل من غير طبع ولا غريزة .

23 ـ إلاّ سجيات : إلا أن يكون العقل سجية وليس ادعاء و (م) لغة في من ، والمعنى أن العقل سجية من القلب ، وليس ادعاء من اللسان . الشانيء : المبغض .

25 ـ النازح والنائي واحد . يقطع : يعق . السهمة : النصيب . والمعنى قد يقف الناس القريب ويصلون البعيد فاعلم ذلك أيها الغريب .

27 ـ الآجن : المتغيّر الطعم والرائحة . خائف : مخوف والعرب تريد أحياناً بصيغة الفاعل المفعول .

28 ـ أرجاؤه : نواحيه . الوجيب : الخفقان . ريش الحمام : كناية ذكية أراد بها أن الحمام يأتي الماء ليشرب فيجد من يختبئ له ويصطاده ويأكله فلا يبقى منه سوى الريش .. وريش الحمام استعارة تصريحية جميلة لمشبه محذوف هو ملابس وأمتعة الناس المقتولين الذي يأتون للحياة فكأنهم يأتون للموت !!

29 ـ قطعته : أي قطعت موضع هذا الماء المفخخ بالقتلة واللصوص وطلاب الثأر . مشيحاً : الحذر الجاد أو الذي لا يلتفت إلى الشيء حتى لا يراه . بادن : ناقة قوية البدن . خبوب : تخبّ في سيرها .

30 ـ العير : الحمار المتوحّش والأليف ، ووصف الناقة بحمار الوحش يشبه التقليد بما يؤسس قوة الناقة في الذهن .. لأنهم يرون إضفاء صفة الفحول على ناقة إشارة مهمة لقوتها .. فهي عيرانة

وجمالية . المؤجد : ناقة قوية موثّقة الخلف وأجد متصلة الفقار تراها كأنها عظم واحد . والأُجُد : اشتقاقه من الإجاد والإجاد هو الطاق القصير . الفقار : خرز الظهر . الحارث : المنسج . الكثيب : الرمل وهذه الصورة كناية عن ملاسة ظهر الناقة وقوته .

31 ـ أخلف : أتى عليها سنة بعد ما بزلت ، والسديس ينبت قبل البازل والسديس السن بعد الرباعية وذلك في السنة الثامنة . وفي الحديث : « إن الإسلام بدأ جذعاً ثم ثنيّاً ثم رباعياً ثم سديساً ثم بازلاً » .

حقة : الناقة ابنة الثلاث التي دخلت في الرابعة سميت بذلك لاستحقاقها أن يحمل عليها وأن ينتفع بها . الناب والنيوب : الناقة المسنّة سمّوها بذلك حين طال نابها وعظم .

32 ـ عانات : مدينة كأن بيوتها عانات أي قطع من الظباء ، وهي قرى مضمومة إلى هيت . لجون : أبيض وأسود . صفحته : جنبه . ندوب : آثار العض مفردها ندبة .

33 ـ الشبب : الذي قد تمّ شبابه وسنه . الرخامى : نوع من البقول مغبّر الخضرة له زهرة بيضاء لها عرق أبيض تحفره الحمر بحوافرها والوحش لتأكله فهو حلو وطيّب (كذا) . تلفه : يعني تلّف الثور واللف الإحاطة بالشيء . الشمأل : ريح الشمال . هبوب : الهابّة .

34 ـ عصر : زمان مضى . نهدة : فرس قوية . سرحوب : سريعة سمحة وقيل طويلة الظهر .

35 ـ مضبّر : موثّق والإضبارة إضامة من كتب . أو من صحف أو سهام وضبرت الشيء جمعته . السبيب : شعر الناصية ، يقول هي حادة البصر فناصيتها لا تستر بصرها .

36 ـ زيتية : لينة الركوب مريحته . نائم عروقها : ساكنة لصحّتها . ليّن : مرن . أسرها : خلقها وتكوينها . رطيب : مرن ولين ومتثن وقيل في (نائم عروقها) إنها ليست ناتئة العروق لأنها مكتنزة لحماً !!

37 ـ اللقوة : أنثى العقاب الخفيفة السريعة الاختطاف وقال أبو عبيدة : سميت لقوة لسعة أشداقها ، وقال التبريزي : لأنها سريعة التلقي لما تطلب . وقيل : اللقوة العقاب أنثى كان أو ذكراً . طلوب : لا تخطيء مطلبها . القلوب : هي قلوب الطير .

38 ـ الإرم : الجبل والمرتفع . العذوب : الذي لا يأكل شيئاً ولا يشرب . الرقوب : التي لا يبقى لها ولد والمعنى استناداً للتبريزي : باتت لا تأكل ولا تشرب كأنها عجوز ثاكل يمنعها الثكل من الطعام والشراب .

39 ـ الضريب : الجليد وضربت الأرض إذا أصابها الضريب .

40 ـ السبسب : الأرض المستوية القفرة البعيدة لا ماء بها ولا أنيس .

41 ـ النهضة : الطيران يقول التبريزي : يقول عبيد : حين رأت الصيد بالغداة وقد وقع عليها الجليد نشرت ريشها وانتفضت رمت بذلك عنها ليمكنها الطيران وإنما خص بها الندى والبلل ، لأنها أنشط ما تكون في يوم الطل ، وقيل : لأنها تسرع إلى أفراخها خوفاً عليها من المطر والبرد ، وصفها بأنها أصبحت والضريب على ريشها فطارت إلى الثعلب يقول : هي قريب أن تنهض إذا ما رأت صيدها .

42 ـ اشتأل : يعني الثعلب أي رفع ذنبه من حسيس العقاب . المذؤوب : الفزع بكسر الزاي وأصله من خوف الإنسان أو الحيوان من الذئب .

43 ـ نهضت : طارت . نحوه : أي الثعلب . حثيثاً : سريعاً . حرّدت : قصدت . تسيب : تنساب .

44 ـ دبّ : يعني الثعلب أي إن الثعلب دبّ حين رآها مقبلة نحوه دبيباً . الحماليق : عروق في العين (من الفزع انقلب حملاق عينه وقيل الحملاق جفن العين أو ما غطته العيون ، وقيل بياض العين أو العروق التي في بياض العين) .

46 ـ جدّلته : طرحته بالجدالة وهي الأرض . الجبوب : الحجارة أو الأرض الصلبة وقيل : الجدل شدة الفتل وجدل الشيء أحكم فتله ، والجديل : الزمام المجدول من الجلد ، والأجدل هو الصقر صفة غالبة من الجدل الذي هو الشدة . والمجادلة : المصارعة .

47ـ48ـ مكروب : محزون ومغموم ويائس . يضفو : الضغاء صوت الثعلب . المخلب : الظفر . دفه : جنبه . الحيزوم : الصدر (لا بد حين وضعت مخلبها في دفه أنه منقوب ولا بد معناها لا شك وقيل البد الفراق ، لا بد اليوم من قضاء هذا الأمر أي لا فراق منه) والمنقوب : المثخن بالجراح والثقوب .

الفصل السادس
الفروسية وشعراؤها

يتعذّر على دارس الحياة العربية قبل الإسلام وأدبها تجاوز ظاهرة الفروسية والاستغناء عن تحليلها ، لأنها ببساطة شديدة تمثّل القطب الذي دارت حوله مفردات الحياة وموضوعات الأدب ، فجلُّ موضوعات الشعر الجاهلي مثلاً تبدأ بها أو تمرّ أو تنتهي مثل الغزل والفخر والهجاء والرثاء والنجدة ، فالفارس سيد قبيلة وحلم الصبايا في الحجال وفي الخدور ؛ وهو الجدير بالفخر ، والمصدّق في الهجاء ، والفروسية هي الصفة التي يشرف بها الميت حين يرثيه الشاعر ، ولسوف نرى امتدادات الفروسية وقيمها في حيوات الناس .. فهي صفة تنطبق على ممتطي الفرس إذا كان شجاع القلب ، ولا يقال للجبان فارس وإن امتطى أشرف الخيول وامتلك أعزّها .. ثم تطوّرت دلالة الفروسية في حاضنتي الحرب والسلم فشملت الرجل ذا الخلق السامي ، وإن أمضى حياته راجلاً غير راكب !! وباتت الفروسية مزاجاً من الرأي والشجاعة والكرم والمروءة والسيادة بما هيأ للفارس مكاناً علياً في الضمير الجمعي الجاهلي ، وقد اندغمت دلالتا الفارس والفتى في نسق وحّد بين الحاملين ، وقد لاحظ المبرّد (ت 285) عدداً من النصوص التي تشاكل بين الفروسية والفتوة من خلال الفخر أو الرثاء ، واستنكر رغبة الراثي في أن يكون موت المرثي في المعركة (فهذا الشعر من أجفى أشعار العرب ، ينبئ صاحبه أن تقديره في المرثي أن تكون منيته قتلاً ، ويتأسّف من موته حتف أنفه ، ويقول في مدحه : وأمار بإرشاد وغي .

وشبيه بهذا قول لبيد في أخيه إربد لما أصابته الصاعقة وأصابت عامراً الغدة بدعوة

رسول الله ﷺ)[1] ثم أورد المبرد النص التالي ليعضد مقولته التي حصرناها بين قوسين :

قال أعرابي :

ألا لهف الأرامل واليتامى ولهف الباكيات على قصي
لعمرك ما خشيت على قُصيّ متالفَ بين حَجْر والسليّ
ولكني خشيت على قصي جريرةَ رمحه في كل حيّ
فتى الفتيان محلول ممرٌّ وأمّار بإرشاد وغي

وقد رثى لبيد أخاه لأمه إربد وقد مات بصاعقة إثر محاولته اغتيال النبي ﷺ ودعوة النبي عليه !!

أخشى على إربد الحتوفَ ولا أرهبُ نوءَ السماك والأسد
فجعّتني الرعد والصواعق بالـ ـفارسِ يوم الكريهةِ النجد
الحارب الجابر الحريب إذا جاء نكيباً وأن يعد يعد
يعفو على الْجَهْد والسؤال كما أنزل صوب الربيع ذي الرّصد
لم يبلغ العين كلّ نهمتها ليلة تمسي الجياد كالقدد
يا عينُ هلا بكيتِ إرْبَدَ إذ قمنا وقام الخصوم في كبد
وعين هلا بكيت إربد إذ ألوت رياح الشتاء بالعضد
فأصبحت لاقحاً مصرّمةً حين تقضت غوابر المدد
إن يشغبوا لا يبال شغبهم أو يقصدوا في الحكوم يقتصد
حلو كريمٌ وفي حلاوته مرٌّ لطيف الأحشاء والكبد
الباعث النوح في مآتمه مثل الظباء الأبكار بالجرد

(1) المبرّد . أبو العباس محمد بن يزيد (ت285) ، الكامل في اللغة والأدب 324/2 ، طب مؤسسة المعارف بيروت (د:ت) .

وقال أيضاً :

يـــا إربـــدَ الخيرِ الكريمَ جـــدودُه	أفردتني أمشي بقرن أعضب
إن الرزيـــــة لا رزيـــــة مثلهـــــا	فقـــدان كلِّ أخٍ كضـــوء الكـــوكب
ذهب الـــذين يعـــاش في أكنـــافهم	وبقيت في خلف كجلـــــد الأجرب
يتـــأكّلـــون مغـــالـــة وخيـــانـــة	ويُعـــاب قـــائلهم وإن لم يشغب
ولقـــــد أراني تـــــارة من جعفر	في مثـــل غيثِ الـــوابـــل المتحلّب
من كلّ كهـــل كالسنـــان وسيـــد	صعْب المقـــادة كالفنيـــق المصعب
من معشر سنّت لهم آبـــــــاؤهم	والعـــزُّ قـــد يـــأتي بغير تطلّب
فبرى عظـــامي بعـــد لحمي فقـــدهم	والـدّهر إن عـــاتبتُ ليسَ بمُعتب[2]

وقد ينفعنا في درسنا الفروسية تأصيل دلالاتها في اللغة لإضاءة جوانب الائتلاف والاختلاف بين مستويي الفروسية : الاصطلاحي الذي رصدناه في التوطئة واللغوي الذي يرصده الآتي : فرَسَ زيدٌ ، بالضم ، يفرُس فروسة . وفراسة إذا حذق أمر الخيل ، والفَراسة بالفتح العلم بركوب الخيل وركضها ، وهذه دلالات متحوّلة عن الثابت اللغوي ، أو الجذر الدلالي للمفردة الذي ينشره الآتي . الفارس الحاذق في تصرّفه أو تفكيره أو حزمته ، ومنه قولنا : زيد فارس النظر ثم : فرس السبع الشاة أي أخذها ودقّ عنقها وأكلها ، وهذه هي المعاني البدئية لمادة فرس ثم استيعرت للفرس وصاحبها ، وقال ابن السكيت (ت 244 هـ) إذا امتطى الرجل فرساً أو بغلاً أو حماراً أو برذوناً فهو فارس ، واعترض عمارة بن عقيل (ت 239 هـ) على تأويل ابن السكيت ، وقال : إن راكب البغل هو البغّال بالغين المشددة ، وراكب الحمار حمّار ، أما الفروسية فهي فن امتطاء الخيل[3] .

---

(2) لبيد بن ربيعة العامري ، ديوانه ، النص الأول (قافية الدال) ق 12 ص 49 وبعدها ، النص الثاني (قافية الباء) ق 5 ص 36 وبعدها ، طب دار صادر ـ بيروت (د : ت) .

(3) اللسان (فرس) .

وقد أفادتنا هذه المقاربات لنفهم أن الفروسية في دلالتها اللغوية الأولى هي الحذق والاستكناه وتزيق الطريدة وأكلها ، ثم تطورت إلى معاني الحذق في امتطاء الخيل ، ثم تطوّرت وفق متطلبات المصطلح فشملت المروءة والفحولة والقيم النبيلة ، وذلك ما تكفّلت به التوطئة مطلع هذا الدرس .

وتحبّيء الفرس في لا وعي النص الشعري مثالاً أعلى للوفاء والجمال والرشاقة والألفة ، فاقترنت صورة الفرس بصورة المرأة الحسناء ، وقد فات هذا الاقتران النقّاد القدامى ، فعابوا مثلاً على امرئ القيس أنه جعل شعر فرسه كثيفاً ، ولم يحاولوا كشف الصلة في مخيلة الشاعر بين الفرس والمرأة :

وأركب في الروع خيفانة كسا وجهها سعف منتشر

ولا ندري لماذا لم يلاحظوا الأبيات اللاحقة لهذا البيت في القصيدة نفسها :

لها حافر مثل قعب الولي ـد رُكّب فيه وظيف عجر
لو ساقان كعباهما أصمعا ن لحْم حمايتهما منبتر
لها عجُز كصفاة المسي ـل أبرز عنها جُحافٌ مُضِر
لها ذنب مثل ذيل العروس تسدّ به فرجها من دبر
لها عُذَرٌ كقرون النسا ءِ ركّبن في يوم ريح وصِرّ
لها جبهة كسراة المجن حذّقه الصانعُ المقتدر
وعين لها حدرةٌ بدرةٌ شُقّت مآقيها من أخرُ
لها وثباتٌ كوثب الظباء فوادٍ خِطاءٌ ووادٍ مَطِر[4]

وقد شغف عنترة بفرسه شغفاً كبيراً ، حتى أصبح شغفه شاهداً مهماً على عمق العلاقة بين الفارس الجاهلي وفرسه ، وقد فضل عنترة فرسه على زوجه في الطعام والشراب :

(4) امرؤ القيس . ديوان ق29 ص163 وبعدها ، وانظر كتابنا الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام ، مبحث الفرس ص228 ففيه تفصيل للمستزيد .

لا تـــذكري فرسي ومـــا أطعمتـــه فيكون جلدُك مثل جلد الأجرب
إنّ الصبـوح لـــه وأنتِ مســوءةٌ فتـــأوّهي مـــا شئتِ ثم تحـوّبي[5]

وقد التفت إلى أوجاع حصانه في أشدّ اللحظات هلعاً :

يـــدعـون عنتر والرمـــاح كأنهـــا أشطـــان بئر في لبـــان الأدهم
فـازورّ من وقـع القنـا بلبـانـه وشكا إليّ بعبرة وتحمحم
لـو كان يعرف مـا المحـاورة اشتكى ولكان لـــو علم الكـــلام مكلّمي

ومـا ارتبـاطهم بـالخيل في الجـاهليـة سـوى دليـل أكيـد على معرفتهم لفضلهـا فهم يصبرون على الخمصـة واللأواء ولا يصبرون على جوع الفرس أو عطشهـا فيؤثرونهـا على الأهل والولد ، وقد سئل فارس عن بكاء الصبيان فأجاب (وأمـا بكاء صبيـاننـا فـإننـا نبدأ الخيل باللبن قبل العيال)[6]

وقـد نسب الأعشى طحن أعـدائـه إلى (خيـل بكر) فكأن الخيـل وبكر حـالـة واحدة :

وخيـل بكر فمـا تنفـك تطحنهم حتى تـولـوا وكاد اليـوم ينتصف

وكذلك وحد عنترة بين الخيل والخيالة وهو يناجي عبلـة ، ويرسم صورة لمروءتـه مرة ولفرسه أخرى !!

هـلاّ سألت الخيـل يـا ابنـة مـالـك إن كنتِ جـاهلـة بمـا لم تعلمي
يخبرك من شهـد الـوقيعـة أنني أغشى الـوغى وأعفّ عنـد المغنم
إذ لا أزال على رحـالـة سـابـح نهْـد تعـاوره الكمـاة مكلّم

(5) عنترة . ديوانه ق 11 ص 272 تح سعيد مولوي ، مط المكتب الإسلامي 1970 . وانظر مقدمة ديوان الأعشى ص 22 والمفضليات رقم 41 ب 19 ب 20 شعر الأخنس التغلبي .

(6) الأغاني (بولاق) 18/9 (م . س) . القيسي . د . نوري ، الفروسية في الشعر الجاهلي 140 ، طب دار التضامن بغداد 1964 .

طـوراً يجرّد للطعـــان وتـــارة يـــأوي إلى حصـــد القسيّ عرمرم
مـــــــا زلت أرميهم بثغرة نحره ولبـــانـــه حتى تسربـل بـالـدم

إن وصف عنترة لفرسه القوي الذي يسبح في المعركة ورسمه لتفاصيل حركتـه عن قرب ، يذكّرنا بوصف امرئ القيس لفرسه الذي يمتطيـه قبل صحوة الطير متلبثاً عنـد حركته ومرونتها :

وقـد أغتـدي والطير في وكنـاتهـا بمنجرد قيـــد الأوابـــد هيكل
مكر مفر مقبـل مـــدبر معـــاً كجلمود صخر هـدّه السيـل من عـل

والفرس سيماء شجاعة الفارس وعدته في الحرب ، وعبيـد بن الأبرص لا يصبر البتـة على فرسه :

ولا يفـارقني مـــا عشت ذو حقب نهـد القـــذال جـواد غير ملـواح
أو مهرة من عتـاق الخيـل سـابحـة كأنهـــا سحـق برد بين أرمـــاح[7]

أمـا هنـد ابنـة النعمان نهي تـوصي فـارسهـا بضرورة الحفـاظ على أصلـه (النفيس الأرفع) بالشجاعة وارتباط الخيل :

حـافـظ على الحسب النفيس الأرفـع بسـواعـــد مـوصـولـــة لم تمنـع
وســلاهب من خيلكم معروفـــــة بـالسبت عـاديـة بكل سميـدع[8]

شغف الفـارس بـالفرس أصيل عميق ، وليس شعوراً عـابراً ، وقـد أسبغ عنترة على فرسه مشاعر الإنسـان الـذي يعبّر بـالنظرة والحمحمـة عن عـذابـه ، وثمـة نصوص أخرى فعلت الشيء نفسه مع الفرس بحيث صار الأمر ظاهرة :

1 ـ قيس بن زهير (شعره ب ، ص 41) :

فـلأهبطن الخيـــل حرّ بـــلادكم لحـق الأيـاطـل تنبـذ الأمهـــارا

(7) ابن الأبرص . عبيد ، ديوانه ص 50 ، تح حسين نصار ، مط مصطفى البابي ، مصر 1957 .
(8) الجباوي . محمد فتـاح ، الموثبـات ق2 ص336 ، رسـالـة مـاجستير مطبوعـة على الآلـة الكاتبـة ، كليـة الآداب ، جامعة بغداد 1981 .

2 ـ مهلهل (شعر المراقسة ق 27 ب 28 ص 272) :

تركنـا الخيـل عـاكفـة عليهم كأنّ الخيـل تـدحض في غـدير

3 ـ المعقر البارقي (العقد الفريد 11/6) :

يفرّج عنـا كل ثغر نخـافـه مسحّ كسرحـان الفطيمـة ضـامر
وكل طمـوح في العنـان كأنـه إذا اغتمست في المـاء فتخـاء كاسر

4 ـ خداش بن زهير (الحماسة الشجرية 116/1 ق 83 ب 1 ب 2) :

جلبنـا الخيـل سـاهمـة إليهم عـوابس يـدّرعن النقـع قـودا
تبـاري في الأعنـة مصغيـات حـداد الطرف يعلكن الحـديـدا

5 ـ لبيد (شرح ديوانه ق 3 ص 22) :

يحملن فتيـان الـوغى من جعفر شعثـاً كأنهم أسـود الغـاب

6 ـ الشنفري (الطرائف الأدبية ، شعره ق ـ ح ـ ص 35) :

إذا انفلتت مني جـواد كريمـة وثبت فلم أخطر عنـان جـوادي

وكانت الفرس هاجس أم جنـدب حين احتكم إليهـا الغريمـان زوجهـا امرؤ القيس وعلقمة بن عبدة ، فـاقترحت عليهما رسم صورة الفرس بـالشعر وعلى قـافيـة واحـدة .. فقال امرؤ القيس :

خليليّ مرّا بي على أم جنـدب لنقضي لبـانـات الفـؤاد المعـذّب
فللسـاقِ ألهـوب وللسـوط درّة وللزجر منـه وقـع أهـوج مِنْعبِ
فـأدرك لم يجهـد ولم يثن شـأوَهُ يمرُّ كخـذروف الوليـد المثقب

وقال علقمة :

ذهبتُ من الهجرانِ في كلّ مـذهب ولم يـك حقـاً كلّ هـذا التجنّب
فـولى على آثـارهنّ بجـاصب وغبيـة شـؤبـوب من الشّـد ملهب
فـأدركهنّ ثـانيـاً من عنـانـه يمرّ كمرّ الرائـح المتحلّب

وقد قرفت أم جندب من سلوك امرئ القيس الخشن مع فرسه الوديع فهو يركلها برجله ، ويلهبها بسوطه ، ويروعها بزجره . فأدرك شأوه بتعنيف الفرس وإيذائها .. بينا هي آنست إلى سلوك علقمة ورحمته بفرسه ، وقد أدرك شأوه ثانياً من عنان الفرس ، تاركاً له حرية الجري ، هكذا انتصرت أم جندب للفرس وتعاطفت مع غريم زوجها ، وفوّزته لحسن سلوكه مع الفرس ، ولا أظن أنها حزنت كثيراً حين طلقها امرؤ القيس ، واتهمها بحب علقمة ، لأنها ذكية تدرك خطورة قولها وأثره ونتائجه[9] ، والعربي حميم مع الفرس ويأنس للحديث الذي يقول : « خير الأموال فرس يتبعها فرس »[10] فظهرها حرز وبطنها كنز . وسميت بعض الخيول (أزواد الركب) نظراً للخير العميم الذي كانت تجلبه لفرسانها ، وزعم بعض الفرسان أنه يستطيع بوساطة النظر إلى الفرس المهقوع قياس وفاء زوجه له أو خيانتها حتى لو كان بعيداً عنها !! وكل الأخبار القديمة في الخيول تعبّر عن النظرة الخاصة إليها المقترنة دائمة بالمحبة والخير والإعجاب ، فلا غرابة من اقتران الفرس في الشعر الجاهلي بالرشاقة والمرأة والخير والمطر والأساطير ، وقد تخصص شعراء كبار بوصف الخيل وأبدعوا في صورها الفنية كما أفرطوا في حبّها[11] وقد انتقينا لوحة شعرية أنتجها طرفة بن العبد .. عرضت مشاهد قتالية أسفرت عن نصر معقود على نواصي الخيل :

1- سائلوا عنّا الذي يعرفنا ... بقوانا يوم تحلاق اللمم
2- يومَ تبدي البيض عن أسوُقها ... وتلفّ الخيلُ أعراج النعم
3- ونكرّ الخيل في أدبارها ... يوم لا يعطف إلا ذو كرم
4- أجدرُ الناسِ برأس صلدم ... حازم الأمر شجاع في الوغم
5- كاملٍ يحملُ آلاءَ الفتى ... نَبِهٍ، سيّدِ ساداتٍ خضمّ

(9) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء 130/1 وانظر العلوي ، ابن طباطبا ، عيار الشعر ص 96 .
(10) القشيري . أبو الحسين مسلم بن الحجاج ت 261 ، صحيح مسلم 1492/3 باب الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة . وانظر ابن قتيبة ، عيون الأخبار 153/2 ثم انظر ابن الكلبي ، أنساب الخيل ص 14 .
(11) الصائغ . د. عبد الإله ، الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام ص228 وبعدها .

6- من بني بكر إذا مـــا نُسبـــوا ... وبني تغلب ضرّابي البُهَم

7- حين يحمي النـاسُ نحمي سربنـا ... واضحي الأوجـــه معروفي الكرم

8- بحســامـــاتٍ تراهـــا رُسّبـــاً ... في الضريبـــاتِ، مترّاتِ العُصَم

9- وفحـــولٍ هيكـــلاتٍ وُقُـــحٍ ... أعـوجيـــاتٍ على الشـــأوِ أُزِم

10- وقنـــا جُرْد وخيـــلٍ ضُمّرٍ ... شُزّبٍ من طـــول تعـــلاك اللُّجم

11- أدّت الصنعـــةَ في أمتنهـــا ... فهي من تحت مُشيحـــات الحُـزُم

12- تتقي الأرضَ بِرُحٍّ وُقُـــحٍ ... وُرُقٍ، يقعرن أنبـــاكَ الأكم

13- وتفرّي اللحم من تعـــدائهـــا ... وتغـــالي فهي قبٌّ كالعجم

14- خلـج الشّـــدّ ملحّـــاتٌ إذا ... شـالتِ الأيـدي عليهـا بـالجِـذم

15- قُـدُمـاً تنضـو إلى الـــداعي إذا ... خلّـلَ الـــداعي بـــدعـوىً ثم عمّ

16- بشبـــابٍ وكهـــولٍ نُهُـــدٍ ... كليـــــوثٍ بين عرّين الأجم

17- نُمْسِـــكُ الخيـل على مكروهها ... حين لا يُمسِـــــكُ إلا ذو كرم

18- تـــذرُ الأبطـــالَ صرعى بينهـــا ... تعكف العقبـان فيهـا والرخم (12)

---

(12) ابن العبد . طرفة ، شرح ديوانه ص 87 وبعدها ، تقديم سيف الدين الكاتب وأحمد عصام الكاتب ، طب دار مكتبة الحياة بيروت (د:ت) .

ب 1 : يوم تحلاق اللمم : اليوم معناه الحرب وسمّى مقترناً بتحلاق اللمم إشارة لنصر بكر على تغلب وقد أمر الحارث بن عباد بحلق رؤوس .

ب 2 ـ الصدر كناية عن الهرب . الأعراج : أكثر من خمسين وأقل من مئتين .

4 ـ الصلدم : الصعب الشديد . الوغم والوغى : القتال .

5 ـ الآلاء : العطايا . الخضم البحر كناية عن الكرم .

6 ـ البُهم : أقوياء القلوب الذين لا يخيفهم الموت .

8 ـ الضريبة : الموضع الذي يضربه السيف . المترات : القواطع . العصم : المعاصم .

9 ـ الهيكلات : الضخمة . الوقح : ذو الحافر الصلب . الأعوجيات نمط من الخيول الكريمة زعم أن جدها اسمه أعوج . الشأو : الغاية والمسافة . أزم : تعض اللجام .

10 ـ القنا : الرماح : جرد : ملساء . الشزب : العنامرة .

12 ـ رُحّ : متفخة . وقح : صلبة . ورق : سود . أنباك : مرتفعات .

☆ التماهي بين الفروسية والفتوة :

إذا كانت الفروسيةقد تماهت مع القيم النبيلة والأخلاق الجليلة بحيث يكون الرجل ذو البأس والمروءة فارساً وإن افتقد الفرس ، فإن مفهوم الفروسية في العصر الجاهلي قد تماهى مع مفهوم الفتوة !! ولا يمكن لهذا المبحث أن يكوّن صورة جادة وأكيدة عن الفروسية ، إذا غيّبت عنها صورتها التوأم (الفتوة) ! فالثنتان (الفروسية /الفتوة) تمتلكان قواسم مشتركة في الذهنية الشعرية الجاهلية وفي متخيّل جمهور الشعر عهد ذاك ..

الفروسية	الفتوة
1 ـ تحمل معاني القوة واليفاعة والحذق في امتطاء الفرس .. ثم حملت معاني الخلق الحميد والتفوّق	1 ـ تحمل معاني القوة واليفاعة ثم حملت معاني الخلق النبيل والتفوّق
2 ـ قد يكون فارساً من لم يركب الفرس وليس كل من ركب الفرس فارساً !!	2 ـ قد يكون فتى من جاوز سنّ الفتوة وقد لا يكون الشاب فتّى حين يفتقد المروءة والطموح
3 ـ الفروسية ذات بعدين : حسي ويتوفرّ على الفرس والفارس ومعنوي ، ويتوفر على المروءة وصاحبها والشجاعة ومالكها ، والشهرة بين الفرسان	3 ـ الفتوة ذات بعدين : حسي ويتوفّر على شكل الوجه والجسد وصغر العمر ، ومعنوي ويتوفر على الخلق العربي القويم والشهرة بين الفتيان

وبين أيدينا مشهد للفتوة أسسه طرفة بن العبد قائم على سطوع الاسم والقول والفعل ، مندغم مع التفوّق على الأقران ونجدة الملهوف ومساندة الغريب ، والكرم ،

= 13 ـ القُب : الضوامر . العجم : النوى .

14 ـ الجذم : السوط .

16 ـ عرين : بيت الأسد .

والسفر ، ومشاكسة الموت ، وفق تضادات فنية دلالية قوامها الشجاعة والخوف ، الكرم والشح ، الحياة والموت ، الكياسة والعبث !! الحب والمقت !!

إذا القوم قالوا من فتى خلت أنني ... عنيت فلم أكسل ولم أتبلد
ولستُ بحلاّل التلاع مخافة ... ولكن متى يسترفد القوم أرفد
فإن تبغني في حلقة القوم تلقني ... وإن تلتمسني في الحوانيت تصطد
وإن يلتقي الحيّ الجميع تلاقني ... إلى ذروة البيت الشريف المصمّد
إلى أن تحامتني العشيرةُ كلها ... وأفرِدْتُ إفرادَ البعير المعبّد
ألا أيهذا الزاجري احضر الوغى ... وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي
فإن كنتَ لا تستطيع دفع منيتي ... فدعني أبادرها بما ملكت يدي
ولولا ثلاثٌ هنّ من عيشةِ الفتى ... وجدّك لم أحفل متى قام عوّدي
فمنهن سبقي العاذلات بشربة ... كميتٍ ماتُعْل بالماءِ تزبد
وكرّي إذا نادى المضافُ محنّباً ... كسيد الغضا نبهته المتورد
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب ... ببهكنةٍ تحتَ الطراف العمّد
أرى قبر نحّام بخيل بماله ... كقبر غوي في البطالة مفسد
ترى جثوتين من تراب عليهما ... صفائح صمّ من صفيح منضّد
أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي ... عقيلة مال الفاحش المتشدّد
أرى العيش كنزاً ناقصاً كلّ ليلة ... وما تنقص الأيامُ والدهر ينفد
لعمركَ إن الموتَ ماأخطأ الفتى ... لكالطوّل المرخى وثنياه باليد
متى ما يشا يوماً يقده لحتفه ... ومن يك في حبل المنية ينقد
وإن أدع للجلى أكن من حماتها ... وإن يأتك الأعداء بالجهد أجهد
وإن يقذفوا بالقذع عِرضَك أسقِهم ... بشرب حياض الموت قبل التهدّد
وظلم ذوي القربى أشدّ مضاضة ... على المرء من وقع الحسام المهنّد
أنا الرجل الضرب الذي تعرفونه ... خشاش كرأس الحيّة المتوقّد

فآليت لا ينفك كشحي بطانة ... لعضب رقيق الشفرتين مهنّد
حسام إذا ما قمت منتصراً به ... كفى العود منه البدء ليس بمعضد
أخي ثقة لا ينثني عن ضريبة ... إذا قيل مهلاً قال حاجزه قدي
إذا ابتدر القومُ السلاحَ وجدتني ... منيعاً إذا بلّت بقائمه يدي
فإن متّ فانعيني بما أنا أهله ... وشقّي عليَّ الجيب يا ابنة معبد
ولا تجعليني كامرئ ليس همّه ... كهمّي ولا يغني غنائي ومشهدي
بطيء عن الجلّى سريع إلى الخنا ... ذلول بأجماع الرجال ملهد
فلو كنت وغلاً في الرجال لضرّني ... عداوة ذي الأصحاب والمتوحد
ولكن نفى عني الرجال جراءتي ... عليهم وإقدامي وصدقي ومحتدي
على موطن يخشى الفتى عنده الردى ... متى تعترك فيه الفرائص ترعد

وقد مرت بنا هذه المشاهد ضمن معلقة طرفة في فصل المعلقات ، وإنما : استعدنا بعضاً من الأبيات الخاصة بالفتوة لتعزيز القول بأن صورة الفروسية والفتوة حالة واحدة في المتخيّل الجاهلي الإبداعي ، أما دريد بن الصمة سيد بني جشم فهو يقدّم بين يدي حزنه مشهداً عريضاً نرى من قراءة تفاصيله صورة الفتى الفارس ، أو الفارس الفتى في إطار فني ودلالي واحد ، وهو الفارس الفتى رغم تجاوزه الثمانين ، وقد قاده إحساسه بالفتوة المعنوية إلى الإمعان في تبني الفتوة العمرية وقد غادرته ، فخطب شاعرة في سن بناته وهي تماضر ابنة الشريد (الخنساء) فاعتذرت له عن قبول اقترانها به بأدب جم ، حتى لا تجرح فيه إحساسه المرضي بالفتوة الطاغية فهجاها وجرّحها !! وإذا كان أخوه قد قتل في معركة غير متكافئة فلأنه فتى ، والفتى لا يفرّ في المعركة ولا يخشى الموت قدرة خشيته من مغبة الهزيمة ، وقد آسى أخاه بنفسه ولكن قومه خذلوه ، لأنهم لم يروا مثلما يرى دريد ، فأهملوا نصيحته في حينها وقد ندموا وأرادوا سماعها بعد فوات الأوان ومقتل أخيه عبد الله ، ولكن لماذا ترك دريد قومه (غزيّة) يمارسون الخطأ ؟ أما كان بإمكانه إسكات الأصوات المعارضة ، وهو القائد والسيد

والزعيم ؟! الجواب إن دريداً فتى فارس وأخلاق الفتيان لا تحبّذ للزعماء والقادة الاستعلاء على قرارات القبيلة التي أجمعت عليها ، وإن كانت هذه القرارات من وجهة نظره خاطئة ومضرّة ، دريد لم يتعال على قومه ، بل انحنى أمام إجماعهم وهو القادر على فرض رأيه بالسيف أو الذهب ، ولكن إيمانه بالحرية جعله في إطار السّرب ، فالقائد الفارس الفتى هو الذي يوحّد بين كرامته وكرامة جماعته ، فيكون مع الأكثرية ضد نفسه وقرارها !! أما أخوه عبد الله فقد قتل في المعركة فارساً فتى وآية ذلك :

1 ـ ليس وقّافاً ، أي لا يتردد لحظة اتخاذ القرار المنحاز للخير والقرار في المواقف الصعبة .

2 ـ لم يكن عبد الله طائش اليد ، وطيش اليد شيء من طيش العقل ، فهو هادئ وحكيم .

3 ـ كبير الهمّة عظيم الطموح بعيد عن الانحطاط الاجتماعي .

4 ـ طلاّع أنجد .. أي مغامر ثابت الجنان .

5 ـ قليل التشكّي حين تحل به المصائب .

6 ـ له وعي مناسب بالزمن فيوازن بين اليوم والغد ..

7 ـ خميص البطن (جائع) وهو القادر على التخمة والتكرّش ، لأن الفتيان ذوو همم عاليه فضلاً عن أنه يؤثر بزاده الآخرين ..

فقال دريد بن الصمة سيد جشم يرثي أخاه الفتى عبد الله وقد قتلته بنوعبس :

1ـ أرث جديد الحبل من أمّ معبد ... بعاقبة وأخلفت كلّ موعِد

2ـ وبانت ولم أحمل إليك نوالها ... ولم ترج فينا رِدّة اليوم أوغد

3ـ من الخفراتِ لا سقوطاً خمارها ... إذا برزتْ ولا خروج المقيّد

4ـ وكل تباريح المحب لقيته ... سوى أنني لم ألق حتفي بمرصد

5ـ وأني لم أهلِك خُفاتاً ولم أمت ... خفاتاً ، وكلاًّ ظنه بي عوّدي

6ـ كأن حول الحيّ إذ تلع الضحى ... بناصفةِ الشجناء عصبة مِذود

7- أو الأثـــأبُ العمُّ المخرَّمُ سـوقُـــهُ بشـابـــةَ لم يخبِـط ولم يتعضّـــد
8- أعـاذلُ مهلاً بعض لـومـك واقصـدي وإن كان علم الغيب عندك فارشـدي
9- أعـــاذلتي كلّ امرئ وابن أمّـــه متـــاعٌ كـــزاد الراكب المتزوّد
10- أعـاذل إن الرزءَ في مثـل خـالـد ولا رزء فيما أهلـــك المرءُ عن يـــد
11- عـلانيـة ظُنّـوا بـألفي مـدجّـج سراتهمُ في الفـــــارسيّ المسرّدِ
12- وقلت لهم: إن الأحـاليف أصبحت مطنبـــةً بين الستـــار فثهـــد
13- فمـــا فتئـوا حتى رأوهـــا مغيرة كرجـل الدبى في كلّ ربع وفـدفـد
14- ولمـــا رأيتُ الخيـل قبـلا كأنهـــا جرادٌ يبـاري وجهـة الريح مُعتـدي
15- أمرتهمُ أمري بمنعرج اللـــــوى فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغـد
16- فلمـا عصـوني كنت منهم وقـد أرى غـــوايتهم وأنني غيرُ مُهتـــــدي
17- وهـل أنـا إلا من غـزيـةَ إن غـوتْ غـويتُ وإن ترشـد غـزيـــةُ أرشُـد
18- دعـاني أخي والخيـل بيني وبينـــه فلمـــا دعـــاني لم يجـدني بقعـــدد
19- أخي أرضعتني أمـــه بلبـــانهـــا بثـدي صفـــاء بيننـــا لم يُجـــدد
20- فجئتُ إليـــه والرمـــاح تنـوشـــه كـوقـع الصيـاصي في النسيـج الممدّد
21- وكنتُ كـذاتِ البـوّ ريعت فـأقبلت إلى جلـد من مسـك سقب مقـــدد
22- فطـاعنت عنـه الخيـلَ حتى تنهنهت وحتى عـلاني حـالـك اللـون أسـود
23- فمـــا رمت حتى حرّقتني رمـــاحهم وغـودرتُ أكبـو في القنـا المتقصّـد
24- قتـــالَ امرئ آسى أخـــاه بنفســـه ويعلمُ أن المرء غيرُ مخلّـــــــد
25- تنـادوا فقـالوا: أردت الخيل فـارساً فقلتُ: أعبـــــد الله ذلكم الردي
26- فـإن يـكُ عبـد الله خلّى مكانـه فما كان وقّـافـاً ولا طـائش اليـد
27- ولا برمـاً إذا الريـاح تنـاوحت برطب العضـــاه والهشيم المعضّـــد
28- كميش الإزار خـارجٌ نصف سـاقـه صبـورٌ على الجـلاّء طـلاّع أنجـد
29- قليـل تشكّيـه المصيبـاتِ حـافـظٌ من اليوم أعقـابَ الأحـاديث في غـد

30- صبا ما صبا حتى علا الشيبُ رأسه ... فلما علاهُ قال للباطلِ ابعِد
31- تراه خميصَ البطن والزاد حاضرٌ ... عتيد ويغدو في القميص المقدَّد
32- وإن مسّه الإقواءُ والجهد زادَه ... سماحاً وإتلافاً لما كان في اليد
33- إذا هبطَ الأرضَ الفضاءَ تزيّنت ... لرؤيتهِ كالمأتم المتبدد
34- فلا يبعدنْكَ اللهُ حياً وميتاً ... ومن يعله ركنٌ من الأرض يَبْعُد
35- رئيس حروب لا يزال ربيئةً ... مشيحاً على محقوقف الصُّلب ملبد
36- وغارةِ بين اليوم والأمس فلتةٍ ... تداركتُها ركضاً بسيدِ عمرّد
37- سليم الشظى عبل الشوى شنج النسا ... طويل القرا، نهد، أسيل المقلّد
38- يفوتُ طويلَ القوم عقد عذاره ... منيفٌ كجذعِ النخلة المتجرّد
39- وهوّن وجدي أنني لم أقل له ... كذبتَ، ولم أبخل بما ملكت يدي
40- فإن تعقِب الأيامُ والدهرُ تعلموا ... بني قارب أنا غِضابٌ بمعبد[13]

وقد تمادينا في إيراد دالية دريد ، واخترنا أربعين بيتاً منها لتوصلنا إلى أنها نص نفيس يكشف بأمانة نظرة الشاعر الجاهلي للفتوة المتماهية مع الفروسية فثمة مقدّمة غزلية رمزية ترينا مكابدة الشاعر مع أم معبد ، الحبيبة الشريفة الجميلة التي شاءت من جهتها ترك الحبيب في أشدّ أيامه وأصعبها ، وكان عليها الوفاء معه وله ، ونرجّح أن (أم معبد) رمز لثلاثة مرموزات هي :

1 ـ المرأة بشكل عام وهي نظرة تقليدية جاهلية قاسية تجرّد المرأة من مزية الوفاء وبخاصة إذا شاب حبيبها أو وهنت قواه أو انتصر عليه أعداؤه .

2 ـ الشباب الذي يترك الإنسان في ذروة احتفاله به .

3 ـ الزمان المتقلّب .. والملاحظ أن حبيبته (أم معبد) كانت مطلع البيت الأول

(13) ابن الصمّة . دريد الجشمي ، ديوانه ق 15 ص 45 وبعدها . تح : محمد خيري البقاعي ، طب دار قتيبة 1981 . والقصيدة أنحاء مبثوثة كاملة ومنجّمة في الشعر والشعراء 507/2 ، والأغاني (كتبخانة) 2/9 ، وجمهرة أشعار العرب ص 213 .

و (معبد) وهو اسم أخيه الفارس القتيل (عبد الله) وكان اسم معبد قريباً إلى نفس أهل عبد الله بما يشبه عندنا الآن (اسم الدلع) أو اسم التحبب .. فالقصيدة تبدأ بأم معبد وتنتهي بمعبد !! ثم إن دريداً لم يكن بكاء فقط ، ولم يهمل شأن فتوته وفروسيته وهو يرثي أحبّ الناس إلى نفسه ، بل فخر بنفسه ، التي لم يعرف قدرها رجاله الأقربون ، ثم تفجّع على مقتل أخيه الذي لم تترك الرماح والسهام موضعاً سليماً في جسده ، بعدها رسم لنا صورة دقيقة وقريبة لأخيه الفتى الذي جمع الشجاعة والمروءة في إهاب واحد .

وهكذا نجد أن الفتى الفارس معنيٌّ قبل سواه بحماية قومه والمنافحة عنهم ، وغالباً ما تكون حياة الفتى الفارس ثمناً لمجده وترسيخ منزلته في نفوس الأقربين والأبعدين معاً .

بل إن الفارس (ربيعة بن مكدّم الكناني) فعل أكثر من هذا !! فقد حمى أهله حياً وميتاً ، حتى صار مضرب الأمثال : « أحمى من مُجير الظعن » ، قال أبو عمرو بن العلاء : ما نعلم قتيلاً حمى الظعائن غير ربيعة بن مكدّم . ا.هـ .

وها نحن أولاء ننشر حكايته عن طريق أبي عبيدة بنصّها (خرج بنيشة السلمي غازياً فلقي ظعناً من كناية بالكديد فأراد أن يحتويها فانعه ربيعة بن مكدم في فوارس وكان غلاماً له ذؤابة ، فشدّ عليه بنيشة فطعنه في عضده فأتى ربيعة أمّه وقال :

شدّي عليّ العصب أمّ سيّار فقد رزئتِ فارساً كالدينار

فقالت أمه :

إنا بني ربيعة بن مالك
نرزأ في خيارنا كذلك
من بين مقتول وبين هالك

ثم عصبته ، فاستقاها ماء ، فقالت له اذهب فقاتل القوم فإن الماء لا يفوتك .

فرجع وكرَّ على القوم فكشفهم ورجع إلى الظعن . وقال : إني لمائت ، وسأحميكن ميتاً كما حميتكن حياً ، بأن أقف بفرسي على العقبة واتكيء على رمحي ، فإن فاضت نفسي كان الرمح عمادي ، فالنجاء النجاء فإني أردّ بذلك وجوه القوم ساعة من النهار ؛ فقطعن العقبة ووقف هو بإزاء القوم على فرسه متكئاً على رمحه ونزفه الدم ففاض والقوم يإزائه يحجمون على الإقدام عليه ، فلما طال وقوفه في مكانه ورأوه لا يزول عنه فرموا فرسه فقمص وخرّ ربيعة لوجهه ، فطلبوا الظعن فلم يلحقونهم . ا.هـ . وقد رثاه حفص بن الأحنف الكناني بعد أن وسّده بيديه وأمال عليه أحجاراً من الحرّة :

لا يبعدن ربيعة بن مكدّم ... وسقى الغوادي قبره بذنوب
نفرت قلوص من حجارة حرة ... بُنيتْ على طلْقِ اليدين وهوب
لا تنفري يا ناق منه فإنه ... شرّاب خمر مسْعِرِ لحروب
لولا السفار وبعده عن مهمه ... لتركنها تحبو على العرقوب[14]

إذن يمكن لقصائد الرثاء توليد مؤشرات دقيقة نتلقى بوساطتها صورة الفارس الفتى والفتى الفارس في مرآة ذلك العصر المضطرب لأن قصيدة الرثاء حريصة على تعداد مزايا المرثي ، لتكون مزايا (الفتوة-الفروسية) في طليعتها إن لم تتوفر عليها كلها .. قالت الخرنق بنت بدر بن هفان أخت طرفة بن العبد ترثي زوجها بشر بن عمرو ورهطه الذين قتلوا معه في يوم قُلاب :

لا يبعدن قومي الذين همُ ... سُمّ الغداة وآفةُ الجُزُر
النازلون بكلّ معتركٍ ... والطيّبون معاقد الأزر
الضاربون بحومة نزلت ... والطاعنون بأذرع شُعُر
والخالطون نحيتهم بنضارهم ... وذوي الغنى منهم بذي الفقر

(١٤) الميداني ، مجمع الأمثال 275/1 .
الصائغ . عبد الإله ، الفارس ربيعة الكناني حمى قومه حياً وميتاً ، جريدة القادسية ـ بغداد ، العدد 258 ص6 في 1981/5/30 ، وانظر أيضاً بحثنا : الفتوة العربية (رؤية جديدة) ، جريدة الجمهورية ـ بغداد في 1985/8/23 .

إن يشربوا يهبوا وإن يذروا ... يتواعظوا عن منطق الهُجْر
قومٌ إذا ركبوا سمعت لهم ... لغطاً من التأييه والزجْر
مِن غير ما فحشٍ يكون لهم ... في منتج المهرات والمهر[15]

وقد كانت الخنساء ، أكثر الشعراء دقة ومهارة في رسم صورة الفارس الفتي ، إذ جمّعت كل الشمائل المحببة في الرجل لدى النساء والرجال معاً والأباعد والأقارب ، ومزجت ذلك بتجربتها الخاصة وحزنها الشخصي ورؤيتها للجالين الخارجي والداخلي اللذين ينبغي توفرهما في الفارس الفتى !! وسنلاحظ توكيدها (الخنساء) على دلالات الفارس الفتى :

1- بكت عيني وعاودها قذاها ... بعُوّار فما تقضي كراها
على صخر وأيُّ فتى كصخر ... إذا ما النابُ لم ترأمْ طلاها
فتى الفتيان ما بلغوا مداه ... ولا يكدي إذا بلغت كُدّاها
لئن جزعت بنو عمرو عليه ... لقد رزئت بنو عمرو فتاها
له كفٌّ يُشدُّ بها وكفٌّ ... تحلَّبَ ما يجفُّ ثرى نداها
ترى الشُّمَّ الجحاجح من سُليم ... يبلُّ ندى مَدامِعِها لحاها
على رجل كريم الخيم أضحى ... ببطن حفيرة صخب صُداها
ليبكِ الخيرُ صخراً من معدٍّ ... ذوو أحلامها وذَوو نُهاها
وخيلٍ قد لففتَ بَجُول خيل ... فدارت بين كبشيها رحاها
ترفّعَ فضلُ سابغة دِلاص ... على خيفانةٍ خفقٍ حشاها
وتسعى حين تشتجرُ العوالي ... بكأس الموت ساعة مصطلاها
فمن للضيف إن هبّت شمالٌ ... مزعزعةً تجاوبها صباها
وألجأ بردُها الأشوال حُدْباً ... إلى الحجرات بادية كُلاها

(15) الخرنق بنت بدر ، ديوانها ق4 ص43 وبعدها ، تح : يسري عبد الغني ، طب دار الكتب العلمية - بيروت 1990 .

فلم املـــك غـــداة نعيٌ صخر ... ســوابـق عَبرةٍ حلبت صراهـــا
أمطعمكُم وحـــــاملكم تركتم ... لـدى غبراء منهـدمٍ رجـاهـــا
حـذيفـة لاسقيت من الغـوادي ... ولا روّتـك هـاطلـة نـداهـا
كما أفجعتني بفتى كريم ... إذا وزنت بنـو عبس وفـاهـــا
ليبكِ عليك قومُك للمعـالي ... وللهيجـاء إنـك مـا فتـاهـــا
وقد فقدتك (طلقةُ) فاستراحت ... فليت الخيل فـارسُهـا يراهـا[16]

2- أعينيّ جـــودا ولا تجمـــــدا ... ألا تبكيـــان لصخر النـــدى
ألا تبكيـــان الجريء الجميـل ... ألا تبكيـــان الفتى السيـــدا
طـويـل النجـاد رفيـع العما ... د ســـادَ عشيرتـــه أمردا
إذا القـومُ مـدّوا بـأيـديهم ... إلى المجـد مـدّ إليـه يـدا
فنـال الـذي فـوق أيـديهم ... من المجـد ثم مضى مصعِـدا
ترى المجـد يهـوي إلى بيتـه ... يرى أفضل الكسب أن يحمـدا
وإن ذكِر المجـدُ ألفيتـه ... تـأزّر بـالمجـد ثم ارتـدى

3- يا عين مـالـك لا تبكين تسكابا ... إذ راب دهرٌ وكان الدهر ريّابا
فـابكي أخـاكِ لأيتـام وأرملـة ... وابكي أخاك إذا جاوزت أجنابا
وابكي أخاك لخيل كالقطا عصباً ... فقـدن لمـا ثـوى سيباً وأنهـاباً
يعـدو بـه سـابح نهـد مراكلـه ... مجلبب بسواد الليـل جلبـابـا
هو الفتى الكاملُ الحامي حقيقته ... مأوى الضريك إذا ما جاء منتابا
المجـد حَلّتُـه والجـود علتـه ... والصدقُ حوزته إن قرنـه هـابـا
خطّـاب محفلـةٍ فرّاج مظلمـة ... إن هاب معضلـةً سنّى لهـا بـابـا
حمّـال ألويـة قطّـاع أوديـةٍ ... شهّـاد أنجيـة للـوتْر طـلاّبـا
سمُّ العـداة وفكاك العنـاة إذا ... لاقى الوغى لم يكن للموت هيّابا[16]

(16) الخنساء . ديـوانهـا ، النص الأول ص 96 ، والنص الثـاني ص 35 ، والنص الثـالث ص 22 ، تـح عبد السلام الحوفي ، طب دار الكتب العلمية بيروت (د:ت) !! =

ولقد حبّذت الشاعرة الفارعة بنت شداد اختصار معاني الفتوة والفروسية في نص قوامه أربعة أبيات ، فحددت ذلك بـ (جماع كلّ خصال الخير) وهي إشارة بالغة الأهمية في مبحثنا هذا فالفارس التفى ليس المقاتل فقط بل هو المقاتل والكريم والشريف والأمين والحكيم والقادر على البناء والنّقض معاً ، والنفع والإيذاء معاً بيد أنه ميال بطبيعته إلى التسامح والبناء والنفع قبل أي شيء آخر :

أبـــا زرارة لا تبعـــد فكل فتى ... يـومـاً رهين صفيحـات وأعـواد
نعم الفتى ويمين الله قـــد علمـــوا ... يحلو بـه الحي أو يغـدو بـه الغـادي
قـوّال محكمـة نقّـاض مبرمـة ... فتّـاح مبهمـة حبّـاس أوراد
جمّـاع كل خصـال الخير قـد علموا ... زين القرين نكال الظالم العـادي[17]

ولقد اختلط شعر الفروسية بكثير من فنون الشعر الجاهلي ، فأنت واجد الفارس في الغزل ، والحبيبة لا تحب الجبان ، وتعشق الجريء الذي تشدو بذكره الركبان ، وفي الفخر ، فإذا فخر الشاعر بنفسه ذكر مناقب الفارس وشمائله ، وفي الهجاء .. فالمهجو عادة ذو صفات تصلح لأن تكون نقيضاً لصفات الفارس ، فهو أي المهجو جبان في الحرب ، خؤون في العشرة ، بخيل في الشدّة ، صغير في نفسه وقومه . أما الرثاء فهو كما رأينا أقرب أغراض الشعر الجاهلي إلى معاني الفروسية ، فالندّابات عادة يعدون مزايا الميت ويمتدحنه ، أما الشعراء والشواعر ، فهم يكتبون عن الفقيد بحرارة قد لا نجدها في معظم أغراض الشعر ، وحين سئل عن سرّ هاتين الحرارة والمصداقية في شعر الرثاء أجاب : إننا نقول الرثاء وأكبادنا تتفطرّ ، ويظل المديح سبباً وجيهاً لرؤية شمائل الفارس في الممدوح ، فهو جدير بصفات المرثي بيد أنه حي يرزق .. فكل خصال الخير

= اللامي ، د. جبار عباس ، شعر المرأة في العصر الجاهلي ، انظر الفصل الأول ص27 (الرثاء في شعر المرأة) ، طب مركز عبادي للدراسات والنشر ـ صنعاء 1998 .
الصائغ . د . عبد الإله ، الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنية ، انظر الفصل الثاني البيان الثالث ص 82 (صورة الفارس في ذهنية الحبيبة) ، طب المركز الثقافي العربي ـ بيروت / كازابلانكا 1997 .

(17) غريب . جورج ، شاعرات العرب في الجاهلية ص146 ، طب دار الثقافة بيروت 1984 .

والشجاعة والمروءة متوفرة في الممدوح .. ولنا أن نقترب من صورة سلامي ذي فائش في عيني الأعشى .. فالناس أجناس منتعل وحاف شحيح وكريم ، لكن الممدوح يعطي الكثير الكثير فهو يعطي دون منّة ، الفرس النهد ، والجواري ، والعبيد ، والإبل الضخام التي يتبعها أطفالها ، فإذا زاره ضيف أكرمه وأكرم مطيته ؛ جزاء لها بما عملت أخفافها وما لقيت من متاعب . فلو كان الممدوح ينبوعاً لاجتمع ماؤه وتكاثر حتى يرتوي الناس فهو الولد النجيب لأبوين نجيبين ، والممدوح يفخر بشجاعته كما يفخر بمروءته ، لأنه ليث لدى الحرب فاستحق المديح قلادة له أو وساماً :

والنـــاس شتى على سجـــائحهم ... مستـوقحـاً حـافيـاً ومنتعـلاً
بسيْر من يقطـــع المفـــاوز والـ ... ـبُعْـــدَ إلى من يثيبُـــه الإبـلا
يكرِمُهـا مـاثـوت لـديـه ويجـ ... ـزيهـا بمـا كان خفُهـا عمِـلا
أصبـح ذو فـائش سـلامـة ذو الـ ... ـتفضـال هشـاً فـؤاده جـذِلا
أبيضُ لا يرهبُ الهـــزالَ ولا ... يقطـــع رِحْماً ولا يخـــونُ إلا
يـــا خيرَ مَن يركبُ المطيّ ولا ... يشربُ كأســاً بكفٍّ من بخـلا
قلـدتـكَ الشِّعْر يـا سلامـة ذا الـ ... ـتفضـال والشيء حيثمـا جعـلا
لـو كنتَ مـاءً عِـدّاً جمتَ إذا ... مـا ورد القـوم لم تكن وشـلا
أنجبُ أيـام والـديـه بـه ... إذ نجّـلاه فنعم مـا نجـلا
هـل تـذكرُ العهـدَ في تنّصَ إذْ ... تضربُ لي قـاعـداً مثـلا
ليثٌ لـدى الحربِ أو تـدوخَ لـه ... قسراً وبـذّ الملـوك مـا فعـلا[18]

وقد وجدنا قواسم مشتركة بيّنه بين صورة الممدوح وصورة المرثي فالمديح تمجيد الحي ، والرثاء تمجيد الميت ، وفي كلا التمجيدين ثمة الرجل الاستثنائي الخارج عن القطيع ، الفارس الذي يحقق حلم قومه ، فهو يجمع السماحة والنجدة والحزم والقوة وهو الألمعي الذي يكون حدسه في الشخص البعيد عنه صادقاً كأنه رآه وسمعه فهو يتلف

(18) الأعشى . ديوانه ق 35 ص 285 وبعدها .

أمواله ليخلف السمعة الحسنة ، ولا شيء يكشف كرمه أكثر من فصل الشتاء حين يستشري الجوع والمرض بسبب من البرد والثلج اللذين يمنعان الناس من مغادرة بيوتهم ويقتلان الإبل والبقر .. فإذا الفتاة الكاعب الجميلة لا تجد ما تأكله فإن وجدت نسيت أناقتها وجمالها وأنوثتها وأقبلت على الطعام كما يقبل السبع على الفريسة !! هذا الفارس الفتى الكريم هو قمر الليل وشمس النهار ، فإذا غاب بكاه الفتيان والفتيات وبكاه الحي جميعاً لأنهم لن يأمنوا الاعتداء عليهم بعد غيابه . قال أوس بن حجر وهو يصبّر نفسه بعد أن خسر صديقاً عزيزاً كان مثالاً للفارس المحبوب !!

أيّتها النفس أجملي جزعاً ... إنّ الذي تحذرين قد وقعا
إن الذي جمعَ السماحة والنجـ ... ـدة والحزم والقُوى جُمعا
الألمعيُّ الذي يظن لكَ الظـ ... ـنَّ كأن قد رأى وقد سمِعا
والمُخلِفَ المتلفَ المرزّأ لمْ ... يُمْتَع بضعفٍ ولم يمت طبعا
والحافظ الناسَ في تحوط إذا ... لم يرسلوا تحت عائذ رُبعا
وازدحمت حلقتا البِطان بأقـ ... ـوامٍ وطارت نفوسُهم جزعا
وعزّت الشمألُ الرياحَ وقد ... أمسى كميعُ الفتاة ملتفعا
وشُبّة الهيدبُ العَبامُ من الـ ... أقوامِ سقباً ملبّساً فرعا
وكانتِ الكاعبُ الممنعةُ الـ ... حسناءُ في زاد أهلها سبعا
أودى وهل تنفع الإشاحةُ من ... شيء لمن قد يحاولُ البدعا
ليبككَ الشَربُ والمدامةُ والـ ... ـفتيانُ طراً وطامِعٌ طمَعا
وذاتُ هِدْمٍ عارٍ نواشِرُها ... تُصمتُ بالماءِ تولباً جدِعا
والحيُّ إذ حاذروا الصباحَ وقد ... خافوا مُغيراً وسائِراً تلِعا[19]

والفارسُ إنسان ذكي ، نال نجوميته بذكائه ، فإذا مات مات كريماً ، وإذا عاش

(19) ابن حجر . أوس ، ديوانه ق 26 ص 53 وبعدها ، تح : د. محمد يوسف نجم ، مط دار صادر ـ بيروت 1960 .

عاش حميداً ، وإذا وجد الفارس أن الرأي أنفع من الحرب فضّل الرأي .. ومعظم هموم الفارس تتجلى في كيفية حفاظه على نسائه وعرضه ، فعنترة يدافع عن عرضه بحياته ، ولا ينسى ذلك حتى وهو يبالغ في شرب الخمرة !!

وإذا شربت فإنني مستهلك مالي وعرضي وافرٌ لم يكلم

أما عمرو بن معد يكرب الزبيدي يستشعر أحياناً أنه أضاع شبابه في الشهرة والفروسية ، فهو إنما يقاتل ليحفظ شرف سمعته وشرف حبيبته بيد أنه يفاجأ بأن الحرب قد ضغطت عليه ، وغيّرت ملامحه ، وعجلت في مشيبه :

أعاذل إنما أفنى شبابي ركوبي في الصريخ إلى المنادي
أعاذل شكتي سيفي ورمحي وكلّ مقلص سلس القياد
ولو لاقيتني ومعي سلاحي تكشّف شحم قلبك عن سواد
أريد حياته ويريد موتي عذيرك من خليلك من مراد
ويبقى بعد حلم القوم حلمي وينفد قبل زاد القوم زادي[20]

كان عمرو فارساً ، وابن فارس ، وحفيد فارس ، وقد فاتشه الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وقال له : ما الحرب ؟

فقال : مرة المذاق إذا قلّصت عن ساق ، من صبر فيها عُرِف ، ومن ضعف عنها تلف .

ثم سأله عمر عن السلاح ؟ فقال : الرمح أخوك وربما خانك ، والنبل منايا تخطئ وتصيب ، والترس هو المجن وعليه تدور الدوائر ، والدرع مشغلة للفارس متعبة للراجل ، وإنها لحصن حصين[21] .

(20) البصري . صدر الدين علي بن أبي الفرج ت659 ، الحماسة البصرية ق 77 (35/1) ، طب عالم الكتب ـ بيروت 1983 ، تح : مختار الدين أحمد .

(21) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء 240/1 .

ورجل فارس بمثل هذه الخبرة كان يتفادى الحرب ، لكنه يخوضها إذا اضطر إليها .. فهذه لميس حبيبته الجميلة وقد فضحها أعداؤه .. (وكان الأمر جدّا) !!

ليس الجمال بمئزر ... فاختر وإن أرديت بردا
إن الجمال معادن ... ومناقب أورثن مجدا
.. لما رأيت نساءنا ... يفحصن بالمعزاء شدا
وبدت لميس كأنها ... بدر الزمان إذا تبدى
وبدت محاسنها التي ... تخفى وكان الأمر جدا
نازلت كبشهم ولم ... أرَ من نزال الكبش بدا

ثم ينفثها أنّةً حرّى .. كيف جعلته الحرب يخسر أعزّ إخوانه وأصحابه ..

كم من أخ لي صالح ... وسدته بيدىّ لحدا
ذهب الذين أحبّهم ... وبقيت مثل السيف جلدا[22]

ولهذا السبب .. رفض هذا الفارس تحقير حبيبته له ؛ لأنه فرّ في واحدة من المعارك غير المتكافئة التي دارت بين قومه وبني عبس ، وكنّى لحبيبته بـ (أم الحصين) وقد أنصف أعداءه بأنهم أقوياء كأنهم يرتدون جلود النمور .. وقد خرّقوا ترسه ، وقتلوا فرسه فلمس الأرض ، وما العيب في أن يفرّ يوماً في حياته وهو الشجاع الذي شهد أمسه له بها ؟

أجاعلة أم الحصين خزايتي ... عليّ فراري أن لقيت بني عبس
لقيت أبا شأس وشاساً ومالكاً ... وقيساً فجاشت من لقائهم نفسي
كأن جلود النمر جيبت عليهم ... إذا جعجعوا بين الإناخة والحبس
أتونا فضموا جانبينا بصادق ... من الطعن فعل النار بالحطب اليبس
ولما دخلنا تحت فيء رماحهم ... خبطت بكفي أطلب الأرض باللمس

(22) الزبيدي . عمرو بن معد يكرب ، ديوانه ص 68 وبعدها ، تح : هاشم الطعان ، طبعة بغداد 1970 .

فـأبت سليمـاً لم تمـزّق عمـامتي ولكنهم بـالطعن قـد خرقـوا ترسي
وليس يعـاب المرء من جبن يـومـه وقد عرفت منه الشجاعـة بـالأمس[23]

خصائص شعر الفروسية :

1 ـ التخفف من المقدمـات الطللية ، والاستعـاضـة عن وقفـة الأطلال بمخـاطبـة الحبيبة أو عتابها أو الفخر بالنفس أمامها ، وإشعارها أن الحروب التي يخوضها الفرسـان ويعرّضون فيها حياتهم للخطر إنما هي من أجل الحفاظ على شرف المرأة !!

2 ـ الإيجاز في القول وعدم الميل إلى التفاصيل الزائدة ، فثمة قيم عليا محـدّدة يـدور حولها الشعر ويعززها .

3 ـ سهولة العبارة ووضوحها مع اختيار إيقاعات قوية صـاخبـة للبحور والقوافي والحروف بما يعزز مقولة المشاركة الإيقاعية في جلاء الصورة والفكرة ..

4 ـ جل أغراض الشعر الجاهلي ممكن الاختراق من خلال فيض الفروسية والفـارس محبوب الرجال والنساء والعجـائز والصبيـان ، تتجلى صورتـه المشرقـة من خلال الغزل والفخر والمديح والرثاء والهجاء ..

5 ـ لم نجـد نصـاً واحـداً يعزّز فكرة الظلم والعتو ، فـالفرسـان بشر مشرقون ، وهم عادة يظلمون الظالم ، عمرو بن كلثوم حقر الملك عمرو بن هند .. هـذا الإنسـان المعتوه المغرور الغادر مثلاً .. والفرسـان يصفحون عن الضعفـاء وينجـدون الصريخ ويترفّعون عن الأسلاب والنظر في العورات !

6 ـ وشاع بين الفرسان فن الإنصـاف ، فـالمنصفـات قصـائـد أنصف فيهـا الشعراء خصومهم ، وذلك أدنى لمجدهم ، لأن الانتصـار على الجبـان ليس انتصـاراً وإنمـا الفخر أن ينتصر الفارس على البطل .. وهذا وعي إعلامي فيه الكثير من الفطنة .

(23) البصري . الحماسة البصرية 27/1 .

7 ـ التماهي الحاد بين دلالات الحماسة والفروسية والفتوة فهي الأثافي الثلاث التي يستقر عليها المثل الأعلى للفروسية ..

8 ـ اعتماد شعر الفروسية على تقنيات الصور الفنية ، فالشعر مولع بوصف المشاهد وكأننا نرى ونسمع ، ونذوق ، ونشم . كما حذق الشعر توصيف المشاعر الداخلية الفائرة ..

9 ـ الميل إلى المبالغة في المدح أو الهجاء أو الفخر أو الرثاء بما يجعل في ذهن المتلقي من الفارس مثالاً نادراً في الإقدام والمروءة .

10 ـ الاتكاء على آلية الحكاية في هتك مشاهد الحرب والصرخات والدم والرجال والسلاح والأسماء والمناخ من خلال الحركة والحدث والعقدة والمفارقة والحوار الواضح أو الحوار الذي يغيّب طرفه الآخر .

11 ـ الإمعان في وصف عدة الحرب الفرس والفارس والدرع والبيضة والسيف والرمح والقوس .. إلخ وإضاءة حركتها داخل المشهد .

12 ـ مساهمة المرأة الجاهلية الشاعرة في صناعة نصوص الفروسية والتغنّي بشمائل الفارس بما يشكّل ظاهرة تستحق الدراسة والتعليل ..

13 ـ أنسنة الحصان وإسباغ المشاعر الإنسانية عليه ، فهو يتوجّع من الجراح ، ويتعاطف مع الفارس ، ويحاوره بعينيه ، وغالباً ما ينسب الفعل للفرس والمقصود الفارس ، فالخيل تقتل ، وتطحن ، وتفكّر ، وتفر ، وتكرّ .. إلخ .

14 ـ نصوص شعر الفروسية أكثر عدداً من أي ضرب شعري آخر فثمة عشرات النصوص بل المئات ، كلها تتغنى بالفروسية والفتوة وتمجّد الخير . والدارس لهذه

النصوص الكثيرة يفاجأ بأنها تخبّيء رغبة أكيدة في السلام .. وغالباً ما يكون الموت من أجل الحياة[24] .

---

(24) كثيرة هي الكتب التي كرست كل فصولها لدراسة الفروسية ، أو الفتوة ، أو الحماسة ، أو كرست فصلاً أو مبحثاً .. نذكر منها على سبيل المثال وليس الحصر :

1 ـ ضيف . د. شوقي ، العصر الجاهلي ، طب دار المعارف بمصر 1960 .

2 ـ القيسي . د. نوري ، الفروسية في الشعر الجاهلي ، طب دار التضامن بغداد 1964 .

3 ـ البستاني . بطرس ، الشعر الجاهلي ، طب دار العلم بيروت 1965 .

4 ـ الجبوري . د . يحيى ، الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه ، طب بيروت 1972 .

5 ـ القيسي . د . نوري ، ود . عادل البياتي ، ود. مصطفى عبد اللطيف ، تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام ، طب دار الحرية بغداد 1979 .

6 ـ الحاج حسن . د. حسين ، أدب العرب في عصر الجاهلية ، طب المؤسسة الجامعية بيروت 1984 .

7 ـ الصائغ . د. عبد الإله ، الصورة الفنية معياراً نقدياً ، طب دار الشؤون الثقافية بغداد 1987 .
الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنية ، طب المركز الثقافي العربي بيروت 1997 .

8 ـ اللامي . د. جبار عباس ، شعر المرأة في العصر الجاهلي موضوعاته وخصائصه الفنية ، طب مركز عبادي للدراسات ـ صنعاء 1998 .

الفصل السابع

الصعلكة وشعراؤها

يلف ظاهرة الصعلكة في العصر الجاهلي ضباب كثيف يحجب الرؤية أحياناً ، فقد درست بمناهج مختلفة ، اقتصادية ، واجتماعية ، وجغرافية ، وإيديولوجية ، وفنية ، فكانَ لكل منهج عيناته الشعرية والنثرية التي يختارها ويهمل ما سواها ، ووثائقه التاريخية التي تعنيه دون غيرها ، فباتت الصعلكة صعلكات ، فمن قائل : إن الصعاليك مجرّد لصوص جعلوا رزقهم في السرقات ! إلى قائل : إنهم قتلة وفتّاك ، يميلون إلى سفك الدماء البريئة ، ومن قائل : إنهم فئة ضالة ملعونة خلعتهم قبائلهم وطاردتهم وأهدرت دماءهم . إلى قائل : إنهم كوكبة تحلم بتوزيع الثروة والجاه بين الناس دون استثناء .. ومقاربتنا للصعلكة لا تدّعي أنها قادرة على مخالفة الآراء وتفنيدها وتجهيلها وذلك أمر لا ينسجم مع الأخلاقية العلمية ، بله منهجنا الفني . ولسوف نتجنب ـ قدر الإمكان ـ وضع القاعدة أولاً ثم اللهاث وراء الشواهد ؛ لتنهض بالتعزيز والتعضيد .. بل ما نحاوله هو النظر إلى الصعلكة كما هي لا كما حمّلت من الدلالات . جاء في معظم المعجمات العربية أن الصعلوك هو الفقير الذي لا مال له ، ولا اعتماد ، قال حاتم الطائي :

غنينا زماناً بالتصعلك والغنى ... فكلاً سقاناه، بكأسيها الدهر
فما زادنا بغياً على ذي قرابة ... غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقر

وتصعلكت الإبل ، أي خرجت أوبارها وانجردت وطرحتها ، ورجل مصعلك الرأس مدوره أو صغيره ، وصعاليك العرب ذؤبانها ، وكان عروة بن الورد يسمى عروة

الصعاليك ؛ لأنه كان يجمع الفقراء في حظيرة فيرزقهم مما يغنمه[1] .. ويبدو اقتران دلالة الصعلوك بالفقير والذئب ومصطلح (ذؤبان العرب يشير إلى صعاليكهم وشطّارهم . وقد ذؤب فلان ذآبة خبث كالذئب)[2] وهكذا قرّت . الصعلكة في ذهنية الجاهلية حالة من التمرّد على الفقر والقبيلة والأمن .. وغلبت صفة اللصوص عليهم ، وقد درس بلاشير الشعراء الصعاليك مثل الشنفرى ، وتأبط شراً ، والسليك بن السلكة السعدي ، والحارث بن ظالم المري ، وعروة بن الورد ، وفق عنوان (الشعراء اللصوص)[3] .

وقال جرجي زيدان : « الشعراء الصعاليك هم طائفة من الشعراء اشتهروا بالعدو والإغارة على القبائل للنهب ، أشهرهم الشنفرى (ت 510 م) ، وتأبط شراً (ت 530 م) والسليك بن السلكة (ت 605 م) ، وعروة بن الورد (ت 596 م)[4] .

أما بطرس البستاني فقد نظر إلى الصعاليك من منظور مختلف ، فزجهم (الصعاليك) بالعبيد والفرسان فكان عنوان الفصل الذي درسهم فيه هو (العبيد والصعاليك والفرسان) ، ولم يجد في نشاط الصعاليك ما يعكرّ صفو الحياة الاجتماعية ، لأن الصعلكة واحدة من إفرازاتها . يقول بطرس البستاني : « فحرية الأفراد أقدس رمز في حرم القبيلة ، تؤلف منهم مجتمعاً اشتراكياً صغيراً ، تشد بعضه إلى بعض عصبية تعاونية نازلة من الأشراف إلى الصعاليك صاعدة من الفقراء إلى الأغنياء ،.. فالسيادة لها حدود والفقراء من أبناء القبيلة غير مستعبدين وإنما يستبعد من كانت أمُّه أمَةً سوداء وإن كان أبوه من أشراف القبيلة ، فتعصب العرب للنسب الصريح وللون الأبيض جعلهم يسترقّون كل أسود ، ويلقبونه بالغراب ، كما لقب عنترة والسليك ، وقد

---

(1) مثلاً انظر لسان العرب (صعلك) .

(2) الزمخشري . أبو القاسم جار الله محمود بن عمر (ت 538 هـ) ، أساس البلاغة (ذأب) ، تح : عبد الرحيم محمود ، طب دار المعرفة ـ بيروت .

(3) بلاشير . د. ريجيس ، تاريخ الأدب العربي ص 315 وبعدها .

(4) تاريخ أدب اللغة العربية 141/1 .

استطاع السليك أن يحرر نفسه من رق العبودية بشجاعته مثلما استطاع عنترة ، عرف السليك فضل ربه ، وفضل شجاعته ، عندما رأى أولاد الإماء مستعبدين لا يعترف بهم آباؤهم البيض إذا وجدوهم ضعافاً .. وكان السليك فارساً شجاعاً وشاعراً مجيداً ، كما كان شأن عنترة .. وهؤلاء العبيد والصعاليك لا يقلون فخراً واعتداداً بالنفس عن السادات والأشراف ، يغزون على الخيول وعلى الأقدام ، ويهاجمون القوافل السائرة في بطن القفار ، فيفتكون ويغنمون ، مباهين بشجاعتهم وكرمهم ؛ لأنهم يبذلون ما بأيديهم من الغنائم للفقراء والجائعين »[5] .

ثم يسأل د. عبد الحليم حفني : من الصعلوك ؟ ويتردد في الإجابة ، فيمهد لها بالتوفرّ على دلالات الصعلكة في اللغة والاصطلاح والذهنية الجاهلية ليجيب بعد عن هذا السؤال على هذا النحو : « إن تعريف الصعلكة بقولنا هي احتراف السلوك العدواني بقصد المغنم شامل لجوانب الصعلكة ، ومانع غيرها من مشاركتها في التعريف »[6] . ولا نريد الاسترسال في الإحالات ، لأن موقف الدارسين منقسم على نفسه ، بين محتقر للصعلكة ، وبين مقدّر ، وهذا الاختلاف حالة صحية ، فرضها اختلاف المناهج والإيديولوجيات ، ليستطيع الدارس المحايد النظر إلى الصعلكة على أنها حالة بين موقفين فثمة صعاليك أمعنوا في الغدر والإيذاء والسبي وإقلاق الأمن الاجتماعي مثل تأبط شراً ، وفي المقابل ثمة صعاليك ذوو مروءة ، فهم لا يغدرون ، ولا يظلمون ، حتى إن قبائلهم افتخرت بهم ، مثل عروة بن الورد ، وقولنا هذا ليس فتحاً علمياً .. فالنقائض سمة الحياة والحركة ففي كل مجموعة أو طبقة أو حرفة ، ثمة الإنسان الذي يؤثر الآخرين على نفسه والإنسان الآخر الذي يؤثر أطماعه على مصالح الآخرين ، فضلاً عن تعدد أساليب أولئك وهؤلاء نظافة أو اتساخاً !! لقد عرف العصر الجاهلي الصعلكة وشغل بحركتها بيد أنها لم تتبلور في ذهنيته وفق حديها النظري

(5) الشعر الجاهلي ص 69 .

(6) حفني . د. عبد الحليم ، شعر الصعاليك منهجه وخصائصه ص 39 ، طب الهيئة المصرية العامة للكتاب 1987 .

والفعلي ، وقد وجد من يمقتها ويعدها مروقاً عن القيم النبيلة وكسراً لتقاليد القبيلة ، وتحدياً للسلطان ، فأباح البرمون بالصعلكة لسكاكينهم نحر أي صعلوك يقع في قبضتهم ؛ لأن دماء الصعاليك مهدورة ، كما وجد من يتعاطف مع الصعاليك ويتفهم دوافعهم فيؤويهم أو يدافع عنهم .. ومن العمه القطع بشأن الصعلكة واعتدادها حالة واحدة ، والظن بأن كل الصعاليك كانوا مستهترين لصوصاً فقط ، أو أصحاب قضية ودعاة مساواة فقط ، نعم هناك من انخرط في الصعلكة ليعبث ويسرق ويسفك ، كما ينخرط نفر في حزبٍ ما لدوافع ذاتية تخصه ولا تخص الحزب .. ويرى د. شوقي ضيف أن القبيلة الجاهلية كانت مؤلفة من ثلاث طبقات :

1 ـ أبناؤها وهم الذين يربط بينهم الدم ، والنسب وهم عمادها .

2 ـ العبيد وهم رقيقها المجلوب من البلاد الأجنبية المجاورة ، وخاصة الحبشة .

3 ـ الموالي وهم عتقاؤها ويدخل فيهم الخلعاء الذين خلعتهم قبائلهم ونفتهم لكثرة جناياتهم وجرائمهم .

أما الخلع فكان معروفاً في تقاليد القبيلة التي تعلنه في الأسواق والنوادي والأحياء : « ومن هؤلاء الخلعاء طائفة الصعاليك ، وكانوا يمضون على وجوههم في الصحراء فيتخذون النهب وقطع الطريق سيرتهم ودأبهم .. على أن منهم من كان يظل في قبيلته لفضل فيه »[7] ، ومهما يكن الأمر فإن الصعلوك إنسان لا يستطيع الانسجام مع قيم القبيلة وأعرافها ، فيترك الناس ويهيم على وجهه في الفيافي والقفار ليواجه مصيره وحيداً[8] فهو الباحث عن حريته الشخصية وليس الباحث عن الحرية الاجتماعية ، وحريته الشخصية فوق حرية المجتمع وأغلى من حياته[9] ، والصعلوك إنسان مشاكس ، يستأنس بالوحشة ، ويستوحش من الناس ، وقد يشاكس الرحمة التي في أعماقه حتى

---

(7) العصر الجاهلي ص 97 .

(8) خليف . د. يوسف ، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ص 23 ، مط المعارف مصر 1959 .

(9) نالينو . كارلو ، تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية ص72 ، لوبون . غوستاف ، حضارة العرب ص93 .

لا يلين ، واجداً هناءه في الذعر الذي يسببه للآخرين[10] فإذا ضاق مكان القبيلة ، فإن مكانه لا يضيق وإذا زمان الناس ، فللصعلوك زمانه ، قارن عروة بن الورد :

إذا المرء لم يبعث سواماً ولم يُرح ... عليه، ولم تعطف عليه أقاربه
فللموتُ خير للفتى من حياته ... فقيراً، ومن مولى تدبّ عقاربه
وسائلةٍ: أين الرحيل؟ وسائل ... ومن يسألُ الصعلوك: أين مذاهبه
مذاهبه أن الفجاج عريضة ... إذا ضن عنه بالفعال أقاربه
فلاأترك الإخوان ماعشت للردى ... كما أنه لا يترك الماءَ شاربه
ولا يستضامُ الدهر جاري ولاأرى ... كمن بات تسري للصديق عقاربه
وإن جارتي ألوت رياح ببيتها ... تغافلت، حتى يستر البيت جانبه[11]

وهذه الأبيات لا تقدّم بين يدي الدارس صورة عن الصعلكة منفردة ، فهي شيء من الصعلكة والفروسية والمروءة ، وتلك سمة ربما انفرد بها عروة ، ذلك الفارس الشاعر الذي رعى الصعاليك وقادهم ، وحاول ضبط حركاتهم ، وزرع القيم العربية في نفوسهم فكان قد جعل من نفسه قدوة للصعاليك ، بيد أن الصعلوك إنسان ذاتي ، لا يرى إلا حنقه وثاراته :

وإني امرؤ عافي إنائي شركة ... وأنت امرؤ عافي إنائك واحد
أتهزأ مني أن سمنت وأن ترى ... بوجهي شحوب الحق والحق جاهد
أقسّم جسمي في جسوم كثيرة ... وأحسو قراح الماء والماء بارد[12]

وأراد حاتم الطائي تأسيس منهج إغلاقي ثابت للصعلوك ، بحيث يغسل سمعته أمام الناس ، فهو كما سنرى في القصيدة اللاحقة ، يلوم عاذليه لأنها نصحتاه بضرورة حفاظه على أمواله التي بدأ بإتلافها ، قائلاً لهما إن أخلاق الصعلوك ليست في إشباع

(10) أدونيس ، ديوان الشعر العربي 20/1 ، طب المكتبة العصرية ـ بيروت 1964 .
(11) ابن الورد ، عروة ، ديوانا عروة والسموءل ص 19 .
(12) نفسه ص 29 .

البطن ، وإكساء الجسد ، وكنز المال .. وإنما هي سبب مفضٍ إلى المجد والحمد مذكراً إياهما بأن الدهر لم يسالم أحداً من قبله ولا بعده :

وعاذلتين هبتا بعد هجعة ... تلومان متلافاً، مفيداً، ملوّما
تلومان، لمّا غوّر النجمُ ضلة ... فتى لا يرى الإتلاف في الحمد مغرما
فقلت وقد طال العتاب عليهما ... ولو عذراني، أن تبينا وتصرما
فإنكما لا ما مضى تدركانه ... ولست على ما فاتني متندما
فنفسك أكرمها، فإنك إن تهُن ... عليكَ، فلن تلفى لك الدهرَ، مكرما
أهِن للذي تهوى التلاد، فإنه ... إذا متَّ كان المالُ نهباً مقسّما
ولا تشقين فيه، فيسعد وارث ... به، حين تخشى أغبرَ اللون مظلما
وما ابتعثتني في هواي لحاجةً ... إذا لم أجد فيها إمامي مقدّما
وذو اللب والتقوى حقيقٌ إذا رأى ... ذوي طبع الأخلاقِ أن يتكرّما
وعوراء، قد أعرضت عنها فلم يضر ... وذي أود قوّمته فتقوّما
وأغفرُ عوراء الكريم ادخاره ... وأصفح من شتم اللئيم تكرّما
ولا أخذل المولى وإن كان خاذلاً ... ولا أشتم ابن العم، إن كان مفحما
وليلٍ بهيم قد تسربلت هوله ... إذا الليل بالنكس الضعيف تجهما
ولن يكسب الصعلوك حمداً ولا غنى ... إذا هو لم يركب من الأمر مُعظما
يرى الخمص تعذيباً وإن يلق شبعةً ... يبتْ قلبُه، من قلة الهم مُبْهما
لحى اللهُ صعلوكاً مناه وهمُّه ... من العيش أن يلقى لبوساً ومطعما
ينام الضحى حتى إذا ليلُه استوى ... تنبّه مثلوجَ الفؤاد، مورّما
مقيماً مع المثرين ليس ببارح ... إذا كان جدوى من طعام ومجثما
وللّه صعلوكٌ يساورُ همّه ... ويمضي على الأحداث والدهر مقدما
فتى طلبات لا يرى الخمص ترحةً ... ولا شبعة إن نالها، عدّ مغنما
إذا ما رأى يوماً مكارمَ أعرضت ... تيمّم كبراهن ثمت صمّما

ترى رمَحـــهُ ونبلـــه ومجنـــه وذا شُطب عضبَ الضريبة، مخذما
وأحنـــاءَ سرج فـــاتر ولجـــامـــه عتاد فتى هيجا وطِرفا مُسَوما[13]

هذه القصيدة قوامها أربعون بيتاً ، بدأت غزلية ظللية ، واستغرقت باستهلالها تسعة أبيات ، ثم اصطنع حاتم حواراً بينه وبين صاحبتيه ، لينهي إلينا أخلاق الصعلوك التي تجمع بين الكرم والشمم والفروسية وذلك أمرٌ يحيلنا إلى سؤال مهم وهو : هل عنى حاتم أولئك الصعاليك الذين يسكنون بين المضايق والكهوف والفجاج ويقطعون الطرق على السابلة ؟ والجواب : نعم ، ولكن !! هو لم يمتدح الصعاليك ولكنه ينصحهم بالتخلّق بأخلاق العرب في الكرم والمروءة والأمانة وذلك جانب تربوي ، فحاتم وعروة وهما ليسا فقيرين أو مخلوعين أرادا احتواء هذه الكوكبة الغاضبة من الفتيان الشجعان وترسيم خطاها وتقويم شمائلها .. وفق نظرة تربوية أبوية .. وقد لاحظ أحمد الشايب هذا التناقض بين ما يفعله الصعلوك من الأذى بالآخرين وبنفسه ، وبين ما يزعمه في شعره من سجاياه وهمومه الوجودية وأقرّ أن التناقض بين الفعل والقول ظاهرة صعلوكية[14] ، وهذا الرأي مشاكل ، ولا نقول متابع لرأي غوستاف لوبون الذي أورد فيما أورد رأي (ديفرجة) الذي يؤسس أن الصعلكة جمع بين النقيضين الكرم والسرقة والمروءة والقتل فكأن الصعلوك مصاب بانفصام الشخصية بسبب القهر[15] .

الصعاليك فتية غاضبون ، وجدوا المسافة شاسعة بين حلمهم وواقعهم ، بين نظرتهم إلى أنفسهم ونظرة قومهم الدونية إليهم ، فهم صرخةٌ احتجاج ضد زمن القبيلة وقيمها ، فالصعاليك على هذا النحو ليسوا فقراء فحسب وآية ذلك غنى بعضهم . وثراء فقرائهم بعد غزواتهم المباغتة للأحياء الثرية . وهذا الغنى لم يعدهم إلى زمان القبيلة أو مكانها أو

(13) الطائي . حاتم ، ديوانه ، حرف الميم ص 79 وبعدها ، تح : عادل سليمان ، مط المدني ـ القاهرة .

(14) الشايب . أحمد ، الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني ، طب السعادة بمصر 1976 .

(15) لوبون . غوستاف ، حضارة العرب ص92 .

قيمها ، بل كان سبباً في الإمعان والمبالغة ، فهم في نظر أنفسهم شجعان أقوياء ذوو حس مرهف ، واستغلوا المبدأ العسكري ، وهو الإقلاق والاستنزاف لمعسكر القبيلة ، وبخاصة الأثرياء ، فكان الأثرياء يساومونهم ويمنحونهم التعويضات مقابل أمنهم وأموالهم ، وقد ساعد الصعاليك على الاستمرار في حركتهم طبيعة الجزيرة العربية ، من جبال وكهوف وبطاح وأحراش ومفازات ، فضلاً عن قدرات خاصة لدى هؤلاء الغاضبين من نحو سرعة الجري حتى كان الراكض الراجل منهم يلاحق الفارس وينزله عن فرسه ومن نحو الصبر على الجوع ، والعطش ، والمرض ، والخبرة بطرق الصحراء . فانعكس ذلك على شعرهم مما خلّق صوراً فنية عالية القيمة[16] ، وقد ينضم إلى فريق الصعالكة نفر من الفتيان الفاشلين ، والمنبوذين ، والمعوّقين . وليس بمقدور الدارس المتأني القول بأن الصعاليك ذوو برنامج إصلاحي أو فكر سياسي ، أو منهج تنويري ، فهذا القول مجانب لطبيعة الحياة العربية عهد ذاك .. وقفزاً فوق قوانينها الحضارية ، وربما راقت كلمة (صعلوك) لكثير من الشعراء حين تدل على الفقر والصبر والشطارة ، ولم يفكروا في أبعادها الحربية ، وهذه أبيات نشاهد من خلالها نزق الأعشى وتصابيه ، وقد جاوز الثمانين ، فهو يتشبه بالفتيان الصعاليك الذين لا يفكرون في العواقب ، وإنما يحصرون تفكيرهم في اللحظة التي يحيونها .. والأعشى يتكلم عن الخمرة مباهياً بخبرته في أوقاتها وأنه شربها غنياً وصعلوكاً بيد أنه أذكى من أن يلمس الأفعى بيده !!

لنا من ضحاها خبث نفس وكأبه ... وذكرى هموم ما تُغِبُّ أذاتُها

وعند العشيّ طيبُ نفس ولذة ... ومال كثيرٌ غدوةً نشواتها

على كلّ أحوال الفتى قد شربتها ... غنياً وصعلوكاً وما إن أفاتها

أبا مسمع إني امرؤ من قبيلة ... بنى لي مجداً موتها وحياتها

(16) الصائغ . د. عبد الإله ، الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام انظر مبحث (الهرب من أهل الزمان ورموزه نحو المغامرة) ص 263 .

الحوفي . د. أحمد ، الحياة العربية من الشعر الجاهلي ص 91 .

جياووك . د. مصطفى ، الحياة والموت في الشعر الجاهلي ص 52 ، طب دار الحرية بغداد 1977 .

فلا تلمس الأفعى يداك تريدها ودعها إذا ما غيبتها سفاتها
كفى قومه شيبان أن عظيمه متى تأته تؤخذ لها أهباتها
إذا روّح الراعي اللقاح معجّلا وأمستْ على آفاقها غبراتها
أهنا لها أموالنا عند حقّها وعزّت بها أعراضنا لا نُفاتُها[17]

وقريب من الهم المركزي الذي بنى عليه الأعشى تائيته هم رائية حاتم ، وقد اكتشف الطائي أن الحوار مع المرأة التي تعذله على كرمه وصعلكته مما يهيئ له قول أشياء كثيرة ، ليفخر بنفسه ويزهو من جهة وليرسم لنا صورة لتلك العاذلة لا تبعد كثيراً عن قصر النظر والميل إلى الشحّ ... إذ هو يخاطب زوجه ماوية أو حبيبته .. مكرراً اسمها في روعنا !!

أماوي قد طال التجنب والهجر وقد عذرتني من طلابكم العذر
أماوي إن المال غاد ورائحٌ ويبقى من المال الأحاديث والذكر
أماوي إني لا أقول لسائل إذا جاء يوماً حلّ في مالنا نزر
أماوي إمّا مانع فمبيّن وإما عطاء لا ينهنهه الزجر
أماوي ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت نفسٌ وضاق بها الصدر
أماوي إن يصبح صداي بقفرة من الأرض لا ماء هناك ولا خمر
تري أن ما أهلكت لم يك ضرّني وأن يدي مما بخلت به صفر
أماوي إني ربّ واحد أمّه أجرتُ، فلا قتل عليه ولا أسر
غنينا زماناً بالتصعلك والغنى كما الدهر في أيامه العسر واليسر
كسينا صروف الدهر ليناً وغلظة وكلا سقاناه بكأسيها الدهر
فما زادنا بأواً على ذي قرابة غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقر[18]

(17) الأعشى . ديوانه ق10 ص 135 وبعدها .
(18) الطائي . حاتم ، ديوانه ص 50 وبعدها .

والصعلوك في أحسن أحواله عاتب على قومه وأهله ؛ لأنهم ضيّعوه ولم يعرفوا قدره ، وسواء في ذلك بنو أبيه أو بنو أمه ، فلماذا يرضخ لهؤلاء وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى ، ويجد الشنفرى مرارة في حلقه وغصة حين يتذكّر أن الحيوانات أكثر وفاء من أهله ، فالحيوانات لا تهتك السّر ، ولا تخذل بعضها ، ثم يفخر بنفسه على طريقة الصعاليك في إغاظة خصومه أو أهليه :

أقيموا بني أمي صدور مطيكم ... فإني إلى قومٍ سواكم لأميل
فقد حمّتِ الحاجاتُ والليلُ مقمرٌ ... وشُدّت بطياتٍ مطايا وأرحل
وفي الأرض منأىً للكريم عن الأذى ... وفيها لمن خاف القلى متعزّل
لعمرك ما بالأرض ضيقٌ على امرئٍ ... سرى راغباً أو راهباً وهو يعقل
ولي دونكم أهلون : سيد عملّس ... وأرقطُ زُهلولٌ وعرفاءُ حيئل
همُ الأهلُ لا مستودعُ السّرّ ذائعٌ ... لديهم ولا الجاني بما جرّ يخذل
وإن مدّتِ الأيدي إلى الزّاد لم أكن ... بأعجلهم إذ أجشع القوم أعجل
وما ذاك إلا بسطةٌ عن تفضّلٍ ... عليهم وكان الأفضل المتفضّل
وإني كفاني فقد من ليس جارياً ... بحسنى ولا في قربه متعلل
ثلاثة أصحابٍ : فؤادٌ مشيّعٌ ... وأبيضُ إصليتٌ، وصفراءُ عيطل
أديمُ مطال الجوعِ حتى أميته ... وأضربُ عنه الذِكْرَ صفحاً فأذهل
وأستفّ تُرْبَ الأرض كيلا يُرى له ... عليّ من الطولَ امرؤ متطوّل

ثم يغلب الطبع على التطبع ، فيعترف الشاعر بما جرّه من المصائب على الناس الذين غزاهم في الظلمة الممطرة ، فقتل الرجال وجعلت النساء أيامى ، وأيتم الأولاد :

دَعَسْتُ على غطش وبغشٍ وصحبتي ... سعارٌ وإرزيز ووجْرٌ وأفكل
فأيّمتُ نسواناً وأيتمتُ إلدةً ... وعدتُ كما أبدأتُ والليل أليل[19]

---

(19) العكبري . أبو البقاء عبد الله بن الحسين (ت 616 هـ) ، شرح لامية العرب ص16 وبعدها ، تح : د. محمد الحلواني ، طب دار الآفاق الجديدة ـ بيروت 1983 .

وقد عنّ بعدها لتأبط شراً أن يرثي الشنفرى بشعره ، فهو موقن أن لا أحد سيبكي عليه أو يتذكر مزاياه فقال :

على الشنفرى ســـار الغمامُ فرائـح ... غـزيرُ الكُلى وصيّبُ المـاء بـاكِرُ
عليكَ جزاءً مثل يومكَ بالجبا ... وقد رعفتْ منكَ السيوفُ البواتِرُ
تجيـلُ سـلاحَ المـوتِ فيهم كأنهم ... لشوكتكَ الحُدّى ضئينٌ توافِرُ
فيكفي الذي يكفي الكريمُ بحزمه ... ويصبرُ إن الحرَّ مثلك صابر
فإن تك نفسُ الشنفرى حُمَّ يومُها ... وراحَ له ما كان منه يحاذر
فما كان بدعاً أن يصاب فمثله ... أُصيبَ وأمّ المنجنون الغوادر
قضى نحبه مستكثراً من جميله ... مُقلاً من الفحشاءِ والعرضُ وافرُ
يجمُّ جموَ البحرِ طال عبُابُه ... إذا فاضَ منهُ أولٌ جاش آخر
لئن ضحكت منك الإماءُ لقد بكت ... عليك فأعولن النساء الحرائر
ومرقبةٍ شماءَ أقعيت فوقها ... ليغنم غازٍ أو ليدرك ثائر
وإنكِ لو لاقيتني بعدما ترى ... وهل يُلقين من غيبته المقابر
وأجلُ موتِ المرء إذ كان ميتاً ... ولا بدّ يوماً موته وهو صابر
وخفّض جأشي أن كلّ ابن حرة ... إلى حيثُ صرتَ لا محالة صائر
فلا يبعدنّ الشنفرى وسلاحه الـ ... ـحديدُ وشدٌّ خطّوه متواتِر[20]

وقد لاحظنا لوعته من ضحك النساء وشماتتهن حين سمعن بموت الشنفرى ، ودعاهن بالإماء ، لكي يرسم لنا صورة أخرى للحرائر اللواتي يعرفن قدره فيبكين عليه .

(20) الميني . عبد العزيز ، الطرائف الأدبية (ديوان الشنفرى) ص28 ، طب دار الكتب العلمية ـ بيروت ، والقصيدة موجودة في ديوان تأبط شراً وأخباره ق10 ص78 وبعدها ، تح : علي ذوالفقار شاكر ، طب دار الغرب الإسلامي ـ بيروت 1984 .

وقد اضطردت فكرة مخاطبة الصعلوك للمرأة زاجرة أو مزجورة قالية أو مومقة ! قارن الشنفرى :

أ- دعيني وقولي بعدَ ما شئت إنني ... سيغدى بنعشي مرة فأغيب
خرجنا فلم نعهد وقتل وصاتنا ... ثمانيةٌ ما بعدها مستعتب
سراحين فتيان كأن وجوههم ... مصابيحُ أو لونٌ من الماء مذهب

ب- لا تحسبيني مثلُ من هو قاعد ... على عثة أو واثق بكساد
إذا انفلتت مني جواد كريمة ... وثبتُ فلم أخطئ عنان جوادي

جـ- نأت أم قيس المربعين كليها ... وتحذر أن ينأى بها المتصيف
وإنك لو تدرين أن ربَّ مشرب ... مخوفٍ كداء البطنِ أو هو أخوف
وردت بمأثور يمان وضالة ... تخيّرتها مما أريش وأرصف

د- ألا هل أتى فتيان قومي جماعةً ... بما لطمت كفُّ الفتاةِ هجينها
ولو علمت تلك الفتاة مناسبي ... ونسبتها ظلّت تقاصَرُ دونها
أليس أبي خير الأواس وغيرها ... وأمّي ابنة الخيرين لو تعلمينها
إذا ما أرومُ الوُدَّ بيني وبينها ... يؤمُّ بياضُ الوجه مني يمينها

هـ- إذا ما جئت ما أنهاكِ عنه ... فلم أنكر عليك فطلقيني
فأنتِ البعل يومئذ فقومي ... بسوطِكِ لا أبالكِ فاضربيني[21]

وقد أنجز الشنفرى تائية أودعها رؤيته لجمال المرأة ثم روى لنا لقاءه بأمية فأنفق في ذلك ثمانية عشر بيتاً ، وفي البيت التاسع عشر أشاد بصديق دربه تأبط شراً ، فشبهه بأم العيال .. والعيال هم الصعاليك ، أما جوّ القصيدة فقد ذكره المحققان في هامش القصيدة ولمن يريد الاستزادة قراءة ذلك ..

ألا أمَّ عمرو أجمعت فاستقلّت ... وما ودّعت جيرانها إذْ تولّتِ
وقد سبقتنا أم عمرو بأمرها ... وكانت بأعناق المطيّ أظلّتِ

(21) الطرائف الأدبية (ديوان الشنفرى) ص 32 ، ص 42 .

بعينيّ ما أمست فباتت فأصبحت ... فقضّت أموراً فاستقلت فولت
فواكبداً على أميمة بعدما ... طمعتُ فهبها نعمة العيش زلت
فيا جارتي وأنت غيرُ مليمة ... إذا ذُكرتْ ولا بذاتِ تفلّت
لقد أعجبتني لا سقوطاً قِناعها ... إذا ما مشت ولا بذاتِ تلفّت
تبيتُ بعيد النوم تهدي غبُوقها ... لجارتِها إذا الهديةُ قلّت
تحلّ بمنجاةٍ من اللوم بيتها ... إذ ما بيوتٌ بالمذمة حُلّت
كأن لها في الأرض نسْياً تقصُّهُ ... على أمّها وإن تكلّمك تبلتَ
أميمةُ لا يُخزي نثاها حليلها ... إذا ذُكر النسوانُ عفّت وجلّت
إذا هو أمسى آبَ قرةَ عينهِ ... مآب السعيد لم يسل أين ظلّت
فدقّت وجلّت واسبكرّت وأكملت ... فلو جنَّ إنسانٌ من الحُسْنِ جُنّتِ
فبتنا كأن البيت حجّر فوقنا ... بريحانةٍ ريحتْ عشاءً وطُلّت
بريحانةٍ من بطن حليةَ نوّرت ... لها أرجٌ ما حولها غيرُ مسنت
وباضعةِ حمْر القسيّ بعثتُها ... ومن يغزَ يغنم مرّةً ويشمّتِ
خرجنا من الوادي الذي بين مشعل ... وبين الجبا هيهات أنشأتُ سربتي
أمشّي على الأرض التي لن تضُرّني ... لأنكيَ قوماً أو أصادفُ حُمتي
أمشي على أين الغزاةِ وبُعدها ... يقرّبني منها رواحي وغدوتي
وأمّ عيال قد شهدت تقوتُهم ... إذا أطعمتهم أوتحت وأقلّت
تخاف علينا العيلَ إن هي أكثرت ... ونحن جيعٌ أي آلٍ تألّت
وما إن بها ضنٌّ بما في وعائها ... ولكنها من خيفة الجوع أبقت
مصعلكةٌ لا يقصرُ السّترُ دونها ... ولا تُرتجى للبيت إن لم تُبيّت
إذا ما أتتني ميتي لم أبالها ... ولم تذرُ خالاتي الدموع وعمتي
ولو لم أرم في أهل بيتي قاعداً ... إذن جاءني بين العمودين حُمتي

وإني لحلـوٌ إن أريـدت حـلاوتي ومرٌّ إذا نفس العـــزوف استمرّتِ
أبيٌّ لمـــا آبى سريـعٌ مبـــاءتي إلى كلّ نفس تنتحي في مسرّتي[22]

أما تأبط شراً ، فقد حيكت حول حياته ومغامراته الأكاذيب والمبالغات قارن أسماء إخوته (ريش لغب ، ريس نسر ، كعب جدر ، لا بواكي له) !!

أما حكاية لقبه فيذكرها الأصبهاني : « كان رأى كبشاً في الصحراء فاحتمله تحت إبطه فجعل يبول عليه طول طريقه فلما قرب من الحي ثقل عليه الكبش فرمى به فإذا هو غول ، فقال له قومه : ماتأبطت ياثابت ؟ قال الغول : لقد تأبط شراً » . وحكاية أخرى تؤول اللقب : « ومضى فصاد أفاعي كثيرة من أكبر ماقدر عليه ، فأتى بهن في جراب متأبطاً به فألقاه بين يدي أمه ففتحته فتساعين في بيتها فوثبت ، وخرجت ، فقال لها نساء الحي ماذا أتاكِ به ثابت ؟ فقالت أتاني بأفاع في جراب ، وقلن لها وكيف حملها ؟ قالت لهن تأبطها ، فقلن : لقد تأبط شراً ، فلزمه تأبط شراً »[23] .

ويبدو أن تأبط شراً مغتبط بما أشيع حول لقبه ومغامراته فكان يزعم أنه يصادق نساء الغول ، أو يتزوجهن ، فكأنه يتباهى أمام صاحبته بأنه ما زال محبوباً ، وإن شاب شعره وبات يفناً حوقلاً :

تقـول سليمى لجـــاراتهـــا أرى ثـابتـاً يفنـاً حـوقـلا
لها الـويـل ماوجدت ثابتـاً ألفّ اليـــدين ولا زمّـــلا
ولا رعِشَ الســاق عنـد الجراء إذا بـــادر الحملـــة الهيضـلا
يفـوتُ الجيـــادُ بتقريبـــه ويكسـو هـواديها القسطـلا
وأدهمَ قـد جبت جلبـابَـه كما أجتـابتِ الكاعبُ الخيعـلا
إلى أن حـدا الصبـحُ أثنـاءه ومـزّق جلبـابَـه الأليـلا

(22) الضبي . المفضل ، المفضليات رقم 20 ص 108 وبعدها .

(23) الأصبهاني . الأغاني (كتبخانة) 209/18 .

على شيم نـــارٍ تنـورّتهـــا ... فبتُ لهـــا مـــدبراً مقبـلا
فـأصبحتُ والغـولُ لي جـارة ... فيـا جـارتـا أنتِ مَـا أهـولا
وطـالبتُهـا بُضْعهـا فـالتوت ... بـوجـــهٍ تهـوّلَ فـــاستغـولا
فقلتُ لهـا يـــاانظري كي تريْ ... فـولّتْ فكنتُ لهـــا أغـولا
فطـــار بقحْفِ ابنـــةِ الجن ذو ... سفـاسِفَ قـد أخلـق المِحمـلا
إذا كلَّ أمهيتُـــه بـــالصّفـــا ... فحـــــدّ ولم أره صيقـــلا
عضـــاءةَ قفرٍ لهـــا حلتـــان ... من ورقِ الطَلـــح لم تغـــزلا
فمن ســأل أين ثـوت جـارتي ... فـــإن لهـــا بـــاللـوى منزلا
وكنتُ إذا مـــاهممت اعتزمتُ ... واحرِ إذا قلتُ أن أفعـــلا[24]

وقال أيضاً :

أنـا الـذي نكـح الغيـلانَ في بلـد ... مـــاطـلَّ فيـــه سماكيٌّ ولا جـــادا
في حيث لا يصمتُ الغـادي عمـايتَـه ... ولا الظليم بـــه يبغي تهبّـــادا
وقـد لهـوتُ بمصقـول عـوارضُهـا ... بكْر تنـــازعني كأســاً وعنقـــادا
ثم انقضى عصرهـــا عني وأعقبـــه ... عصر المشيب فقل في صالح بـادا[25]

أما نونيته فقد بناها على آلية الحكاية وأدار صراعاً بينه وبين أنثى الغول !!

ألا مَن مبلـــغٌ فتيـــانَ فَهْمٍ ... بمـا لاقيت عنـــد رحى بطـــان
بـــأني قـــد لقيت الغـولَ تهـوي ... بسهْبٍ كالصحيفـــة صحصحـــان
فقلتُ لهـــا : كـلانـــا نضـوُأين ... أخـــــــو سفر فخلّي لي مكاني
فشـدّت شـدة نحـوي فـأهـوى ... لهـــا كفي بمصقـــول يمـــاني
فـــأضربهـــا بـــلادهش فخرت ... صريعـــاً لليـــدين وللجران
فقـالت : عُـد، فقلتُ لهـا رويـداً ... مكانـــك إنني ثبت الجنـــان

(24) تأبط شراً . ديوانه ق 27 ص 162 وبعدها .
(25) نفسه ق 9 ص 77 .

فلم أنفكّ متكئاً لديها ... لأنظرُ مُصبْحاً ماذا أتاني
إذا عينان في رأس قبيح ... كرأس الهرّ مشقوق اللسان
وساقا مُخْدَج وشواةُ كلب ... وثوبٌ من عباء أو شنان[26]

ولم يكن السليك بن السلكة رقماً مهملاً في قائمة الصعاليك والعدائين فهو ابن أمة سوداء ، هي السلكة ، وهو أحد العدائين الذين كانوا لا يلحقون ، ولا تعلق بهم الخيل إذا عدوا ، وهم السليك والشنفرى وتأبط شراً ، وعمرو بن براق ، ونفيل بن براقة .

وكان السليك إذا جاء الشتاء استودع بيض النعام ماء السماء ، ثم دفنه فإذا جاء الصيف وانقطعت إغارة الخيل بسبب شحة الماء أغار ، وفاجأ السابله أو الأحياء . وكان كما يقول الأصبهاني (134/18) أدلّ من فطاة . يجيء حتى يقف على البيضة ، وكان لا يغير على مضر وإنما يغير على اليمن ، وكان يقول حين يناجي ربه : « اللهم إنك تهيء ماشئت لما شئت إذ شئت ، اللهم لو كنت ضعيفاً كنت عبداً ولو كنت امرأة كنت أمة ، اللهم إني أعوذ بك من الخيبة فأما الهيبة فلا هيبة » .

وقد رويت في احتاله القرّ والقيظ . حكايات عجيبة ، وقد ضجّت الأحياء من بطشه وفتكه وكثرة غزواته ! وكان له صديق اسمه (صرد) ضلت ناقته في جوف الليل ، فخرج في طلبها فلقيه فرسان من مراد وخثعم فأسروه ومضوا .. فاعترضهم السليك وأسرّ قائدهم (قيس بن مكشوح) ، واستولى على نعمهم وأموالهم وسبى أم صرف بنت عوف الخثعمية ، واستردّ صديقه صرداً ، وقد قسّم الغنائم بين أصحابه من الصعاليك :

بكى صرد لما رأى الحي أعرضت ... مهامه رمل دونهم وسهوب
وخوّفه ريب الزمان وفقره ... بلاد عدوّ حاضر وجدوب
فقلت له : لاتبك عينك إنها ... قضية ما يقضي لها فتثوب

(26) نفسه ق 44 ص 222 وبعدها .

رددت عليـــه نفســـه فكأنمـــا تـــلاقى عليـــــه منسر وسروب
فـــا ذرّ قرن الشمس حتى رأيتـــه مصـاد المنـايـا والغبـار يثـوب
وضـاربتُ عنـه القـوم حتى كأنمـا يصعّـــد في آثـــارهم ويصـوب

وقـد خطـط كثير من الأحيـاء لمقتـل السليـك والتخلص من أذاه ورصـدوا المـال والرجال لهذه المخططات ، بيد أن السليك بذكائه ودهائـه كان يفلت من الموت ويكبّد الكامنين لـه خسـائر كبيرة .. إلى أن جـاء يوم أغـار فيـه السليـك على حي مـالـك بن ضبيعة فلم يجـد عنـدهم شيئـاً يغنم ، وفكّر فتيـان الحي بمنـازلتـه أو ملاحقتـه فقـال لهم شيخهم : لا تفعلوا ذلك فهو إذا عدا لم يستطع أسرعكم اللحاق بـه ، دعوه حتى يرد المـاء فـإذا شرب وثقل لم يستطع العـدو وظفرتم بـه ، فسمعوا كلام الشيخ ، وأمهلـوا السليـك حتى ورد المـاء وشرب ففـاجؤوه وأحـاطوا بـه ، فلمـا أدرك أنـه وقع في الفخ وأنـه ميت لا محالة ابتسم في وجوههم ، ودخل أحد بيوتهم ليستنجد بأهل البيت . وعادة العرب أن يحمي صاحب البيت من استجار به . ولم يجد السليك أحداً سوى امرأة اسمهـا فكيهـة ، فاستجار بها فقالت له : أبشر لن يمسك أحـدٌ بسوء . وأدخلتـه تحت عبـاءتهـا وامتشقت السيف وناضلت دون السليك فكاثروها وأدركت أنهم خاذلوها وقاتلوه فكشفت شعرهـا وصدرها واستغاثت بإخوتها ودافعوا عن السليك إكراماً لأختهم ونجـا السليـك من القتل فقال :

لعمر أبيـــك والأنبـــاء تنمى لنعم الجـــار أخت بني عـوارا
من الخفرات لم تفضـح أبـاهـا ولم ترفـع لإخـوتهـا شنـــارا
كأن مجـــامـع الأرداف منهـــا نقيّ درجت عليـه الريـح هـارا
يعـاف وصـالَ ذاتِ البـذل قلبي ويتّبـــع الممنعـــــة النـــوارا
ومـا عجزت فكيهـة يـوم قـامت بنصـل السيف واستلبـوا الخمـارا

وذكر الأصبهاني (137/18) أنه سابق في شيخوخته أربعين شـاباً وقـد سبقهم مع أنه أثقل جسمه بالدروع الثقيلة إمعاناً في التحدي .

وقد بلغ الأمر بالسليك أنه استحقر الفرسان لقوته ، واستخفّ بطلبهم لدمه لأنه ماكر .. فأغار على حيّ .. وأراد العودة إلى مغارته في الجبل فلقي قافلة من خثعم وفيها شابة بضة فسألها عن الطريق فأخبرته فأراد أن يتسنمها (يعتدي عليها) فاستغاثت بقومها فهرب فلحقه (أسد الخثعمي) فأدركه فقتله وقال :

إني وقتلي سليكاً ثم أعقلـــــــه ... كالثور يضرب لما عافت البقر
إني لتارك هامات بمجزرة ... لا يزدهيني سواد الليل والقمر
أغشى الحروب وسربالي مضاعفة ... تغشى البنان وسيفي صارم ذكر[27]

وقول السليك :

يعاف وصال ذات البذل قلبي ... ويتّبع الممنعة النوارا

فيه قراءة لطبيعة السليك إن لم نقل لطبائع الصعاليك .. فالقول كناية حاذقة تكشف زهدهم بالحياة الرخية المطمئنة ، وولعهم بالحياة الصعبة التي يكتنفها الموت !! وقد رثته أمه مرّ الرثاء فقالت :

طاف يبغي نجوة ... من هلاك فهلك
ليت شعري ضلة ... أي شيء قتلك
أمريض لم تعد ... أم عدوٌّ ختلك
أم تولى بك ما ... غال في الدهر السُّلك
والمنايا رصد ... للفتى حيث سلك
أيُّ شيء حسن ... للفتى لم يك لك
كل شيء قاتل ... حين تلقى أجلك
إن أمراً فادحاً ... عن جوابي شغلك
ليت نفسي قدّمت ... للمنايا بدلك[28]

(27) الأغاني 137/18 وبعدها .

(28) التبريزي . أبو زكريا يحي بن علي (ت 502) ، شرح ديوان الحماسة (378/1) ، تح : محمد =

لقد أرهق الصعاليك أنفسهم فهم مخيفون وخائفون ، فكان نومهم قليلاً واطمئنانهم ضئيلاً ، قال عمرو بن براق :

متى تجمع القلب الذكي وصارماً ... وأنفاً حمياً تجتنبك المظالم
متى تطلب المال الممنّع بالقنا ... تعش ماجداً أو تخترمك المخارم
وكيف ينام الليل مَنْ جُلّ ماله ... حسام كلون الملح أبيض صارم
ألم تعلمي أن الصعاليك نومهم ... قليل إذا نام الخليُّ المسالم

وقد أعجب ذوّاقو الشعر بقصائد الصعاليك وحرارة صورها الفنية وجزالة أسلوبها ، وصدق تجربتها ، بيد أنهم كانوا لا يحبّذون قراءتها لصبيانهم ؛ لأنها تحبذ الاغتراب عن الأوطان فقد قال عبد الله بن جعفر بن أبي طالب لمعلم أولاده : لا تروهم قصيدة عروة التي يقول فيها :

دعيني للغنى أسعى فإني ... رأيت الناس شرّهم الفقير

فشعر عروة يدعوهم إلى الاغتراب عن أوطانهم[29] وقد أعجب عبد الملك بن مروان (ت 86) وهو في زعمنا في طليعة متذوقي الشعر ونقاده ، أُعجب بعروة وشعره معاً فقد قال : ما يسرني أن أحداً من العرب ممن ولدني لم يلدني إلاّ عروة ، لقوله :

وإني امرؤ عافي إنائي شركة ... وأنت امرؤ عافي إنائك واحد
أتهزأ مني إن سمنت وأن ترى ... بجسمي شحوب الحق والحق جاهد
أفرّق جسمي في جسوم كثيرة ... وأحسو قراح الماء والماء بارد

وقال عبد الملك أيضاً : من زعم أنّ حاتماً أسمع الناس فقد ظلم عروة بن الورد[30] ولماذا نبعد كثيراً .. فقد كان النبي الأمين ﷺ يقدّر حاتماً . وجاء في الأغاني أن سفّانة

= محي الدين عبد الحميد ، طب حجازي مصر 1938 .
ابن منقذ . أسامة (ت 584) ، لباب الآداب 182 ، طب دار الكتب العلمية بيروت 1980 .

(29) الأغاني 184/2 .

(30) الأغاني 182/2 .

ابنة حاتم حين وقعت في الأسر واستعرض النبي الأسرى خاطبته قائلة : يا محمد ! هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فإن رأيت أن تخلي عني فلا تشمت بي أحياء العرب ، فإنني بنت سيد قومي ، كان أبي يفك العاني ويحمي الذمار ، ويقري الضيف ، ويشبع الجائع ، ويفرّج عن المكروب ، ويطعم الطعام ، ويفشي السلام ، ولم يرد طالب حاجة قط أنا بنت حاتم طيء . فقال رسول الله ﷺ : يا جارية هذه صفة المؤمن ، لو كان أبوك إسلامياً لترحمنا عليه ، خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق والله يحب مكارم الأخلاق[31] .

خصائص شعر الصعاليك :

1 ـ زهد الصعاليك باصطناع المقدمات الطللية والبكاء والاستبكاء وغاية ما يصطنعه الصعلوك في التقديم هو مخاطبة امرأة مغيبة ، وهذا لا ينفي وجود عدد ضئيل من قصائدهم استهل بالأطلال .

2 ـ وضوح العبارة وذكاء الإشارة ، وعمق المعنى ونباهة اللمحة .

3 ـ جمال الصور الفنية التي تحيل المقطعات والقصائد مشاهد تنبض فيها الحياة فكأننا جزء من الصورة ، ويمكن للرسامين التشكيليين استلهام صور الصعاليك التي رسموها للمغاور والكهوف والطرقات والوجوه لرسم لوحات عالية القيمة ، كما يمكن لكتاب الدراما إنتاج سيناريوهات عن حيوات الصعاليك المدهشة المسكونة بالمفارقة .

4 ـ العناية بالحوار دون أن يترك لنا الصعلوك سانحة سماع الطرف الآخر من الحوار ، وقد شاع الحوار مع المرأة المغيبة التي يخاطبها الصعلوك ، ويوبخها ويعلي شأنه عليها !!

5 ـ لم يكتف الصعاليك برسم المشاهد الخارجية ، بل التفتوا إلى مشاعرهم التي

---

(31) الأغاني 93/16 .

تعتمل في صدورهم فصوروها أدق تصوير فكأننا نسمع نبضات قلوبهم في الرهبة أو الرغبة وقد يشرك الصعلوك الطبيعة معه .. فهي تفرح لفرحه وتكفهر وتبكي لمصائبه .

6 ـ أغلب شعر الصعاليك متكئ على البحرين الطويل والبسيط وذلك لا يمنع من وجود قصائد ومقطعات مكتوبة على الوافر أو سواه .. أما القوافي فأكثرها الراء وتتلوها الدال .. وثمة عناية مقصودة أو غير مقصودة بالموسيقى الداخلية .. فكأن إيقاعات شعر الصعاليك محاكاة لحياتهم .. بل إن بعض الإيقاعات تسهم بشكل جزئي أو كلي في تصوير صليل السيوف وصرخات الموت .

الفصل الثامن

موضوعات الشعر الجاهلي

المعاني التي اقتسمت الشعر الجاهلي كانت موضع خلاف بين الدارسين قدامى ومحدثين ، فالقصيدة في وهلتها الأولى معنى يؤرّق الشاعر في الليل ، ويقلقه في النهار ، ثم يندلع المعنى من وجدان الشاعر نحو الناس ، متجلبباً بالشكل الذي يناسبه ، وهذه المعاني تحصل بثنائيات الحياة من رغبة ورهبة ، وحبّ ومقت ، وحياة وموت ، ومتكلّم ومخاطب ، وحاضر وغائب ، وسلم وحرب ، وعفة ومجون ، ومقدّس ومدنّس !! وقد يستطيع الدارس انتقاء ثنائية واحدة ليعمّمها قطباً تدور حوله الثنائيات الأُخرى مثل الرهبة والرغبة ، فيمكننا مثلاً وضع الهجاء والتثويب والاعتذار والشعر الديني في بابة الرهبة كما يمكننا بالمقابل وضع الحب والفخر والسلام والمديح في بابة الرغبة ، وقد نستطيع وضع المقدّس والمدنّس موضع الرغبة والرهبة ! وإذا سلّمنا بأثر اختلافات الرأي واجتهادات الدارسين في ترسيم حدود هذه الفنون واصطناع قرابات بينها أو عداوات فإن الأمر لا يقف عند هذا الحد ، فهناك طائفة من الدارسين جعلت المعاني التي تناولها الشعر الجاهلي خمسة فنون هي :

الغزل والفخر والهجاء والرّثاء والمديح .

وطائفة أخرى ادّعت أن المديح دائرة كبيرة يمكنها استيعاب الغزل واعتداده مديح الحبيبة ، والرّثاء واعتداده مديح الميت ، والفخر واعتداده مديح النفس !!

وطـائفـة ثـالثـة جعلت معـاني الشعر في اثني عشر فنّـاً وهي : 1 ـ الغـزل . 2 ـ المـديح . 3 ـ الارتزاق . 4 ـ الرّثـاء . 5 ـ الاعتـذار . 6 ـ الهجـاء . 7 ـ الفخر . 8 ـ التوثيب . 9 ـ السلام . 10 ـ الحكمة . 11 ـ الدين . 12 ـ الوصف .

وطـائفـة رابعـة اقترحت دراسـة فنون الشعر من خـلال نجـوميـة الشعراء وشهرتهم وذلك ما نلاحظه في تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ، فنفر هم :

شعراء المعلّقـات (امرؤ القيس والنـابغـة وزهير وطرفـة ولبيـد وعنترة وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة والأعشى وعبيد بن الأبرص) .

وثـان هم الشعراء الأمراء : (الأفوه الأودي ، ومهلهل بن ربيعـة ، وعبـد يغوث ، وزهير بن جناب ، وعامر بن الطفيل ، وأبو قيس بن الأسلت ، والحصين بن الحمام ، وقيس بن عاصم) .

وثالث هم الشعراء الفرسان : (الأغلب العجلي ، وحـاتم الطّـائي ، وزيـد الخيل ، وسـلامـة بن جنـدل ، وعلقمـة الفحـل ، وعمرو بن معـد يكرب ، وقيس بن الخطيم ، وأحيحـة بن الجـلاح ، وجحـدر بن ضبيعـة ، وأفنـون التغلبي ، وبسطـام بن قيس ، والحـارث بن طفيـل ، وذو الأصبـع العـدواني ، والحـارث بن عبـاد ، وسـويـد بن أبي كاهل ، وعمرو بن العجلان ، والفند الزماني) .

ورابع هم الشعراء الحكماء : (أميـة بن أبي الصّلت ، وورقـة بن نوفل ، وزيـد بن عمرو ، وقس بن ساعدة) .

وخـامس هم الشعراء العشّـاق : (المرقش الأكبر ، وعبـد الله بن عجـلان ، ومـالـك بن الصمصـامـة ، ومسـافر بن أبي عمرو ، وعنترة ، ومسعـود بن خراشـة ، ومنظور بن زبان) .

وسادس هم الشعراء الصعاليك : (الشنفرى ، وتأبّط شرّاً ، والسّليك بن السلكة ، وعروة بن الورد) .

وسابع هم النّساء الشواعر : (الخنساء ، وخزنق بنت بدر بن هفان ، وليلى بنت لكيز ، (العفيفة) ، وجليلة بنت مرة) .

وثامن هم الشعراء الهجاؤون : (الحطيئة ، وحسان بن ثابت) .

وتاسع وهم الشعراء الوصّافون للخيل : (أبو دؤاد الإيادي ، وطفيل الغنوي ، والنابغة الجعدي ، والشماخ بن ضرار ، وعبد بني الحسحاس) .

وزيدان ترسّم طريق أبي زيد القرشي في جمهرة أشعار العرب ، وإن خالفه في أسباب النجومية وشعرائها ، فالقرشي قسم الشعراء إلى :

1 ـ أصحاب المعلّقات . 2 ـ المجمهرات . 3 ـ المنتقيات . 4 ـ المذهبات . 5 ـ المراثي . 6 ـ المشوبات . 7 ـ الملحمات !! أما الطائفة الخامسة فقد جعلت الشعراء ضمن مدرستين ؛ الأولى هي مدرسة الشعر المطبوع ، مثل امرئ القيس والأعشى وعنترة والمنخّل ، ومدرسة الشعر المصنوع مثل بشامة بن العذير ، وأوس بن حجر ، وزهير بن أبي سلمى ، والحطيئة ، وهذا التقسيم بعيد عن منهج الطائفة السادسة التي درست كل شاعر منفرداً وفق موهبته الخاصة وحذقه في تطوير فنّه ؛ فالمهلهل هو أول من هلهل ألفاظ الشعر ، وعمرو بن سعد ، لقب بالمرقش الأكبر ، لأنه حسّن شعره ونمّقه ، ولقّبوا طفيل الغنوي بالمحبر ، لأنه بالغ في تزيين شعره . أما علقمة بن عبدة فقد احتاز لقب (الفحل) بعد أن تفوق على امرئ القيس بجودة شعره !! إن زوايا دراسة فنون الشعر الجاهلي كثيرة بسبب من تعدد الاجتهادات والمناهج ، والهموم العلمية ، فبلاشير مثلاً درس معاني الشعر الجاهلي وأغراضه من خلال أمكنة الشعراء وانتماءاتهم وولاءاتهم ، فنحن مثلاً قبالة شعراء بادية السماوة وإقليم البحرين واليمامة ، وشعراء أواسط الجزيرة

وتخوم الحجاز ، وشمالي اليمن ، وشعراء تيماء والطائف ومكة ويثرب ، والحيرة والغساسنة (تاريخ الأدب العربي) فضلاً عن محاولات دراسة الشعراء وفق قبائلهم كشعراء كندة ، وهذيل ، وتميم !! ولسنا ميّالين إلى تفضيل منهج على آخر . لعلمنا بأن لكل منهج مسوغاته ومزاياه مع إيماننا بحرّية الاجتهاد وأهمية تعددية الأسباب التي يوكل إليها كشف الحقائق الشعرية . وقد رأينا مناسبة المنهج الأول لهموم كتابنا وطموحاته . ويمكن من خلاله وضوح اجتهادنا وجهدنا في إيصال أغراض الشعر الجاهلي إلى القراء والدارسين من خلاله فاقتضت الإشارة !

1 ـ الغزل :

أ ـ فنّ يعتمد العواطف سبيلاً للتعبير عن الحبّ الذي يستشعره الشاعر نحو المرأة ، أو تستشعره الشاعرة نحو الرجل ، وقد شاع هذا الفن في الشعر الجاهلي بشكل يدعو إلى التأمل والتأويل ، فأكثر أغراض الشعر الجاهلي تحبّذ الابتداء بالغزل ، فإذا كان لنا أن نحلل السبب ، فهو أحد اثنين :

الأول أن الشاعر واجد في الغزل مفتاحاً لمغالق القصيدة ، فضلاً عن أن الغزل يفتح نفس الشاعر لقول أبيات كثيرة ومثيرة حقّاً ! فالمخيلة تكون أكثر نشاطاً وتحليقاً حين يشبّب الشاعر بحبيبته .

أما الثاني فهو ربحية سوق الغزل ، فأكثر جمهور الشعر ميّال إلى الغزل ، ومفارقاته وتهويماته ، الفتيان يجدون فيه تعبيراً ساخناً عن مشاعرهم ، والشيوخ ينقّبون فيه عن شبابهم الداثر ، وزمانهم الغابر ، كان الشعر الغزلي بحقّ فخّاً لأوسع عدد من المتلقّين ، وسبباً لاحتوائهم وضمان انحيازهم للقضية المركزية للقصيدة التي يسعى الشاعر إلى توكيدها ؛ فلو أن شاعراً وقف على مرتفع في سوق ما وقرأ شعراً في الفخر ، أو الهجاء ، أو الرثاء ، لما وجد أحداً ينتبه إليه ، أو يضيّع وقته في سماع أمور لا تهمّ المتلقي ، فقد يضيق المتلقي بشاعر يفخر بنفسه ، ويتهيّأ له أن الشاعر يسبغ على نفسه

أمجاداً كاذبة ، كما يضيق المتلقي بشاعر يهجو عدوّه ، ويسبغ عليه كلّ خطايا الآخرين وذنوبهم ، ولهذا يبدأ الشاعر بالغزل لأنه القاسم المشترك بين الشاعر والمتلقي ، ولا ينبغي الظن أن كل القصائد الغزلية تعبّر عن تجربة أكيدة صادقة عاشها الشاعر ، فقد يصطنع الشاعر قصة حبّ بينه وبين الحبيبة المزعومة إذ لا أحد يطالب الشاعر بالوثائق الثبوتية ، بل إن ضرباً من الغزل شبّ أواره في العصر الجاهلي لا يعكس عاطفة نبيلة البتة ، ونعني به الغزل الكيدي (ويسمّى الغزل السياسي غلطاً) ، فالشاعر اللئيم إذا أراد هجاء قبيلة أرسل عيونه (جواسيسه من النساء) ، لتأتيه باسم ابنة زعيم القبيلة أو فارسها أو حكيمها ، ومن ثم يكتب قصيدة غزلية كيدية يذكر فيها اسمها ومكانها وربما اسم أبيها وأمّها ، ويختلق مغامرات زاعماً أنها حدثت بينهما في غفلة من عيون الكاشحين ، وأن هذه الحبيبة منحته كل ما يصبو إليه العاشق من معشوقته ، وهذا الغزل ضرب من الخبث والمكر اللذين يترفّع عنهما العربي ، فالعاشق إذا أدرك أن ذكر اسم حبيبته مؤذ لها غيّره واصطنع اسماً موهوماً لها مثل رباب وليلى وزينب وفاطمة ... إلخ . فالمجتمع الجاهلي يحرّم كلّ أنواع الحبّ بين الرجل والمرأة ، حتى إن بعض الشعراء الذين أحبّوا وتورّطوا في ذكر أسماء حبيباتهم نكبوا ، أو نكبت حبيباتهم ، وإذا عرف الشاعر بحبّ امرأة معيّنة حرمت عليه ، فلن يستطيع خطبها مهما بالغ في المهر .. كما أن هناك ضرباً آخر من الغزل وهو الغزل الرمزي فالحبيبة معادل استعاري (تصريحي) للقبيلة التي حرمته نائله ، أو الزعيم الذي فضّل عليه من هم أقل قيمة منه ، أو الدنيا التي أرته العسل وأذاقته العلقم ، نحو نونية المثقب العبدي التي يعاتب فيها حبيبته التي وعدته مواعيد كاذبات .. فهي لا تحمل صفات الحبيبة حقّاً .. فكأنها صورة لصاحبه الذي أراده أخاً ، فخاب ظنّه فيه كما خاب ظنّه في فاطمة !!

أفاطمَ قبل بينك متعيني ... ومنعكِ ما سألتُ كأن تبيني
فلا تعدي مواعد كاذبات ... تمرُّ بها رياحُ الصيف دوني
فإني لو تخالفني شمالي ... خلافكِ ما وصلت بها بميني

إذن لقطعتهـــــا ولقلتُ بيني ... كـذلـك أجتوي من يجتويني
لمن ظُعنٌ تطـالـع مِن ضبيب ... فمـا خرجت من الـوادي لحين
وهنّ كـذاكَ حين قَطَعْن فلجاً ... كأن حمـــولهنّ على سفينِ
وهنّ على الرّجـائـزِ واكنـاتٌ ... قـواتـلُ كلّ أشجـع مستكين
كغـزلان خـذلن بـذات ضـالٍ ... تنـوشُ الـدّانيـات من الغصـون
ظهرن بكلّـة وسـدلن أخرى ... وثقّبن الـوصـاوص للعيـون
فسلّ الهمّ عنـك بـذاتِ لـوث ... عـذافرةٍ كمطرقـةِ القيـون
بصـادقـةِ الـوجيف كأن هرّاً ... يباريها ويـأخـذ بـالـوضين
إذا مـا قمت أرحلهـا بليـل ... تـأوّهُ آهـة الرجـل الحـزين
تقـولُ إذا درأتُ لهـا وضيني ... أهـذا دينـه أبـداً وديني
أكلّ الـدهر حـلٌّ وارتحـالُ ... أمـا يُبقي عليّ ومـا يقيني
ثنيت زمـامهـا ووضعت رحلي ... وغرقـة رفـدت بهـا يميني
إلى عمرو ومن عمرو أتتني ... أخي النجـدات والحلم الرصين
فـإمـا أن تكـون أخي بحـقّ ... فـأعرف منـك غثي أو سميني
وإلا فـاطّرحني واتّخـذني ... عـدوّاً أتقيـك وتتّقيني
ومـا أدري إذا يممتُ أمراً ... أريـد الخير أيها يليني
أألخير الـذي أنـا أبتغيـه ... أم الشّرّ الـذي هـو يبتغيني [1]

وقصيدة (ذو الإصبع العدواني) رمزية أيضاً كما تزعم فحبيبته (أم هارون) وابن عمه حالة واحدة ، وهما والدهر حالة واحدة ، فأصبح حبّ أم هارون شجناً وكان قبل فرحاً ، وأم هارون (أو ابن عمه أو الدهر) تحسده وخالته دونها وهي دونه !!

يـا من لقلب شـديـد الهمّ محـزون ... أمسى تـذكّر ريـا أم هـارون
أمسى تـذكّرهـا من بعـدمـا شحطت ... والـدهرُ ذو غلـط حينـاً وذو لين

(1) الضّبي . المفضّليات . رقم 76 ص 288 وما بعدها .

فإن يكن حبُّها أمسى لنا شجناً ... وأصبح الوأيُ منها لا يواتيني
فقد غنينا وشمل الدار يجمعنا ... أطيع ريا وريا لا تعاصيني
نرمي الوشاة فلا نخطي مقاتلهم ... بخالص من صفاء الودّ مكنون
ولي ابن عم على ما كان من خلق ... مختلفان فأقليه ويقليني
أزرى بنا أننا شالت نعامتنا ... فخالني دونه بل خلته دوني
يا عمرو إن لا تدع شتمي ومنقصتي ... أضربك حتى تقول الهامة اسقوني
لاه ابنَ عمك لا أفضلتَ في حسب ... عني ولا أنت ديباني فتخزوني
إني لعمركَ ما بابي بذي غلقٍ ... عن الصديقِ ولا خيري بممنون
عفٌّ يؤوس إذا ما خفتَ من بلد ... هوناً فلستَ بوقّافٍ على الهون
كل امرئ راجع يوماً لشيمته ... وإن تخلّق أخلاقاً إلى حين
ماذا عليَّ وإن كنتم ذوي رحمي ... أن لا أحبّكم إن لم تحبّوني[2]

ب ـ وتتداخل مفردتا (النسيب / التشبيب) مع الغزل ، فكأن الثلاث نقاط في دائرة واحدة ، فالغزل هو حديث الفتيان والفتيات واللهو بينهم والتغزّل تكلُّف الغزل والنسيب هو التشبيب بالنساء في الشعر ، والعرب تقول هذا الشعر أنسب من هذا ، أي أرقّ نسيباً ، والنسيب هو رقيق الشعر في النساء : أما التشبيب فهو النسيب بالنساء ، وتشبيب الشعر ترقيقه بذكر النساء[3] ، ومن هذا يتّضح عدم وجود حدود حقيقية بين هذه المفردات سوى أن الغزل مصطلح منفتح على الشعر والنثر الفني والنثر الاعتيادي ، أما النسيب والتشبيب فهما قاصران على الشعر وسوى ذلك فالكلمات الثلاث تنصرف من حيث الدلالة إلى محادثة النساء والتودُّد إليهن أو وصفهنّ وما إلى ذلك من المفردات المعروفة وما يقال عن مشاعر الرجل نحو المرأة يمكن أن يقال مع شيء من الاحتراز عن مشاعر المرأة نحو الرجل !

---

(2) المصدر السابق 31 ص 160 وبعدها ، وأكملناها من كتاب الأغاني (كتبخانة) 8/3 .

(3) لسان العرب (غزل / نسب / شبب) .

جـ ـ وأبدع الشاعر الجاهلي حقّاً في وصف عواطفه نحو المرأة ، فشاع ضربان من الشعر الغزلي : الأول : الهادئ العفّ ، والآخر الصاخب الماجن . وقد حفظت لنا مصادر الشعر قصائد ماجنة لامرئ القيس والأعشى والمنخل اليشكري والنابغة ، تبدو المرأة من خلالها دمية ، تقتنى ويعبث بها ، فتصف القصائد فتنتها الجسدية ، وغالباً ما يصوغ الغزلون المجّان قصائدهم في قوالب قصصية ، ويجرون حواراً بينهم وبينَ الحبيبات ، ثم يذكرون أمكنة الوصل وأزمنته ، أما الشعراء المتعفّفون في غزلهم فهم الأكثرية : عنترة وزهير ، وحسان ؛ والمرقّش الأكبر ، وعروة بن الورد ، وحاتم الطائي ، والسموءل ، هؤلاء يقفون على الأطلال باكين أو مستبكين ، ويسألون الآثار عن الوجهة التي ذهبت إليها الحبيبة ، ثم يندبون حظّهم العاثر وشبابهم الذي ولّى ، ونعيهم الذي زال .. كل ذلك بعبارة رقيقة أنيقة تعلي منزلة الحبيبة فكأنها صورة أخرى للحياة . قال المرقش الأكبر :

قل لأسماء أنجزي الميعادا ... وانظري أن تَزودي منك زادا
أينما كنتِ أو حللتِ بأرضٍ ... أو بلادٍ أحييتِ تلك البلادا
إن تكوني تركتِ ربعَكِ بالشّا ... م وجاوزتِ حِمْيراً ومُرادا
فارْتَجي أن أكونَ منكِ قريباً ... فاسألي الصّادرينَ والوُرّادا
وإذا ما رأيتِ ركباً مخبّيـ ... نَ يقودونَ مقرباتٍ جيادا
فهمُ صُحبتي على أرحل الميـ ... س يزجّون أينقاً أفرادا
وإذا ما سمعتِ من نحو أرضٍ ... بمحبٍّ قد ماتَ أو قيل كادا
فاعلمي غير علم شكٍّ بأنّي ... ذاكَ ، وابكي لِمُصْفَدٍ أن يُفادى[4]

(4) الضّبّي . المفضّليات ق و 12 ص 431 وبعدها .

2 ـ المديح :

فنّ التقرُّب إلى الممدوح بإظهاره فضله وإشهار شمائله ، ولسنا مع الزاعم أن المديح إنما استحدث للارتزاق والتكسُّب ، فمثل هذا القول يلغي نزعة الخير في الإنسان ! لقد أسّس الشعراء من خلال المديح قواعد للأخلاق والقيم النبيلة ، فإذا أراد الشاعر أن يمدح إنساناً ، فإنه يصفه بأوصاف تزيّنه بأعين الناس ، وتؤكّد شرفه ومصداقيته ، فهو فارس كريم وصادق رحيم ، يحترم الجار ، ولا يقرب الفاحشة ! وكم من مديح أحرج الممدوح فجعله حريصاً على أن يكون بمستوى الصورة التي رسمتها له قصيدة المديح . والمديح كما نراه (ونعني الصادق منه) ، دعوة لنشر الفضيلة بين الناس وتكريسها في الممدوح ؛ لأن المديح في أغلبه منصرف إلى الصفة قبل الموصوف ، إنه أنشودة تمجّد الخير ، ومن كان بمستوى المديح فهو جدير به ، وقولنا ليس استغفالاً للواقع لعلمنا أن جرثومة الكذب لن تترك المديح بسلام ، ولكننا نعرف أن هذه الجرثومة لم تستطع نشر وبائها .. فزهير بن أبي سلمى امتدح الحارث بن عوف ، وهرم بن سنان ؛ لأنهما أوقفا دولاب الدّم بين العشيرة ، والأعشى امتدح المحلّق وهو الفقير المئناث لأنه كريم النفس ، وها نحن نذكر دالية أوس بن حجر في مدح حلية بنت فضالة بن كلدة ، وفاءً لها وتنويهاً بذكرها ، فحين سقط من ناقته على الصخر نزف دمه ، وأمضى ليلته وحيداً بين الإغماء والصّحو والموت والحياة ، فعثرت عليه حلية ، وكانت قد بكّرت في الصباح لتسبق صويحباتها في اجتناء الكمأة ، فحدبت عليه وضمّدت جراحه وهرعت إلى أبيها وإخوتها ، وجاؤوا معه وأنقذوه من موت محقق ، وقد لبث أياماً وحلية تقوم بخدمته :

لعمركَ ما ملّت ثواءَ ثويّها ... حليةُ إذا ألقتْ مراسيَ مقعد
ولكن تلقّت باليدين ضمانتي ... وحلّ بشرج م القبائل عوّدي
وقد غبرت شَهْرَيْ ربيع كليهما ... بحمل البلايا والحِباء الممدّد
ولم تُلْهِها تلكَ التكاليفُ إنها ... كما شئتَ من أكرومةٍ وتخرّد

هي ابنَـــةُ أعراقٍ كرامٍ نمينهـــا ... إلى خلـــقٍ عفٍّ برازتُـــهُ قـــدِ
سأجزيـكِ أو يجزيـكِ على مثـوّب ... وقصركِ أن يثنى عليـكِ وتحمـدي
فـإن يُعـط منّـا القـوم نصبر وننتظر ... منى عَقب كأنهـــا ظِمءٌ مَـــوْرد
وإن تعطَ لا نجهل ولا ننطـق الخنـا ... ونجـزِالقروضَ أهلهـــا ثم نقصـــد
فـــلا تظهرن ذمّ امرئٍ قبـــل حُبره ... وبعـدَ بـلاءِ المرء فـاذمم أو احمـد[5]

وبين أيدينا حالة من المديح تستحق التّلبُّث عندها مليّاً ، كان بشر بن أبي خـازم قد بالغ في هجاء سعدى بنت حصن الطائية أم الفارس السيد أوس بن حـارثـة وأفحش في هجائها ، فنذر أوس لئن قبض عليه ليحرقه ، ولم يبال بشر واستمر في هجاء سعدى ، وقذف شرفها ، وكان أن أعلن أوس أنه خصص مئتي بعير هـديـة لمن يلقي القبض عليـه أو يدلّـه على مكانـه ، وكان لـه مـا أراد ، فـأصبح بشر في رحمـة ابن سعـدى ، ولم يشأ إحراقه وقتله دون أن يعذّبه فأدخلـه في جلـد بعير حين سلخـه وتركـه حتى جفّ عليـه فصـار فيـه كأنـه عصفور ، فبلـغ ذلـك أمـه سعـدى بنت حصن فخرجت إليـه فقـالت لولدها : ماتريد أن تصنع ببشر ؟ فقد أحرقه هذا الذي شتمنا ، وقال فينـا مـا لا يقـال (فقـالت : قبّح الله قوماً يسوّدونـك أو يقتبسون من رأيـك ؛ والله لكأنما أخـذت بـه رهْداً ، أما تعلم ما منزلته في قومه ، خلّ سبيلـه وأكرمـه فـإنـه لا يغسل عنـك مـا صنع غيره ، وأيمُ الله لو فعلت ما استقلتها أنت ولا قومـك) . وأفهمت ابنهـا (والشـاعر بشر يسمع وهو داخل جلد البعير) إن الهجاء الكاذب لن يمحوه غير المديح الصادق ، فامتثل أوس لكـلام أمـه ، وأخرجـه وكلّف الخـدم بغسـل جسمـه ، ثم داوى جراحـه ، وكسـاه وأطعمه !

ونقل ابن الشجري (ت 542 هـ) : « قال أوس لبشر : هجوتني ظالماً فـاختر بين قطع لسـانـك وحبسـك في جلـد بعير حتى تموت وبين قطع يـديـك ورجليـك وتخليـة سبيلك ، ثم دخل على أمه سعدى ، وقد سمعت كلامه فقالت : يـا بني لقـد مـات أبوك

(5) ابن حجر . أوس . ديوانه ق 12 ص 26 وبعدها .

فرجوتك لقومك عامة سيّداً فأصبحتُ والله لا أرجوك لنفسك ، أزعمت أنك قاطع رجلاً هجاك وهجاني فمن يمحو إذن ما قال فيك ؟ قال : فما أصنع به ؟ قالت : تكسوه حلّتك الخاصة ، وتحمله على راحلتك دون سواها ، وتأمر له بمئة ناقة ، حتى يغسل مديحه هجاءه ففعل) ، وقال الأخفش (ت 215 هـ) : « مدح بشر أوساً وأهل بيته مكان كل قصيدة هجاهم بها قصيدة ، وكان هجاهم بخمس فمدحهم بخمس) : قال بشر :

كفى بالنّأي من أسماء كاف ... وليس لحبّها إذ طال شاف
بلى إن العزاء له دواء ... وطول الشوق ينسيك القوافي
فيالكِ حاجةً ومطالَ شوق ... وقطعَ قرينةٍ بعد ائتلاف
وإنكِ لو رأيتِ غداةَ بنتم ... خشوعي للتفرُّق واعترافي
إذن لرثيتِ لي وعلمتِ أني ... بودّي غيرُ مطرّفِ التصافي
فسلّ طلابَها وتعزّ عنها ... بناجيةٍ تخيَّلُ بالرّادف
إلى أوس بن حارثةِ بن لأمٍ ... لربكِ فاعملي إن لم تخافي
فما صَدَعٌ بخبة أو بشرجٍ ... على زُلَقٍ زوالقَ ذي كهاف
تزلّ اللقوة الشغواءُ عنها ... مخالبُها كأظرافِ الأشافي
بأحرزَ موئلاً من جار أوس ... إذا ما ضيمَ جيرانُ الضعاف
وما ليث تعثّر في غريف ... تغنّيه البعوضُ على النطاف
مغِبٌّ ما يزال على أكيل ... يناغي الشمس ليس بذي عِطاف
بأبأس سورةً بالقرن منه ... إذا دعيت نزال لدى النقاف
وما أوسُ بن حارثةَ بن لأم ... بغمرٍ في الأمور ولا مضاف[7]

(6) ابن الشجري . أبو السعادات هبة الله . ت 542 . مختارات ابن الشجري ص 24 وبعدها . تح محمود حسن زناتي ، طب دار الكتب العلمية ـ بيروت 1980 . الرهْدن : طائر أصغر من العصفور .

(7) المصدر نفسه ص 28 . الصدع : الوعل الفتي الذي تحمي قرونه وجهه . خبة وشرج : جبلان أملسان . اللقوة : العقاب . الشغواء : الجارحة التي يركب منقارها الأعلى منقارها الأسفل ، وذلك أدعى لفتكها .. وصورة الوعل القوي ذي القرون المشتجرة على جبل أملس كناية عن أن هذا الوعل لا ينال =

3 ـ الارتزاق :

ضرب من شعر المديح يعتمد الصنعة ، والنفاق الاجتماعي ، وقد شاع في العصر الجاهلي ، ووجد له سوقاً تروّج بضاعته ، واستمر حتى لبط في عصرنا الحديث مدججاً بكل تقنيات الانحطاط !! والارتزاق أن يمتدح ذو الجاه أو السلطان أو الثراء بما ليس فيه لكسب ودّه وماله ، فالمديح للممدوح ليس لأنه فارس مرهوب ، أو زعيم مرغوب ، أو فتى محبوب ، أو كريم معروف ، فقد يقال لِمُسْعر الحروب إنك داعية سلام ، وللقاتل المعتدي إنك رحيم ذو مروءة ، واللّص إنك أمين ، فالغاية هي نيل الجائزة أو دفع الأذى ، ويا طالما حقق الشاعر المرتزق أحلامه بشعر لا يصدقه أحد ، أما الممدوح الذي ملأ أكياسه بالذهب وحظائره بالإبل وبيوته بالجواري والعبيد ، فهو مستعدّ ليهدي شيئاً مما يملك لأي شاعر يرتزق بشعر فيعلي مقامه ، وإنما كان يفعل ذلك لكي يغسل سمعته المتّسخة وأمواله المسروقة وتحسين صورته المنبوذة ، والشعر يصنع الأعاجيب ، فهو يرفع بيوتاً حقّها أن تخفض ، ويخفض بيوتاً حقّها أن ترفع ، وقد كلّفنا الارتزاق كثيراً ، فهو أحد أسباب ضياع القيم وفشو النفاق وتبلبل الأفئدة ، وقد يردّد الركبان والمغنون شعراً يمتدح الظالم ، وإذا كانت الأسواق العربية القديمة مثابات حصينة ومنابر أمينة ، فقد داهمها شعر الارتزاق وأحرج القائمين بأمرها ، فاضطروا بسبب من الضغوط إلى تعليق بعض القصائد الارتزاقية على جدران الأسواق ليطالعها الناس ، ومنهجنا لا يحبّذ وضع الشعر الارتزاقي في خانة شعر المديح لاختلاف المبادئ والدوافع .

= منه أحد حتى العقاب الطائر .. الموئل : الملجأ . الغريف : الشجر الكثيف . النطاف : قليل الماء . مغب : يصيد يوماً ويحجم آخر . يناغي الشمس : يرقب غيابها ليخرج . العطاف : المعطف أو الملحفة . أبأس : أشد . النقاف : المضاربة بالسيوف على الرؤوس . الغمر : غير المجرّب . المضاف : الخائف .

4 ـ الرِّثاء :

الرثاء أصدق فنون الشعر لغة ، وأقربها إلى الحقيقة الشعرية ، وقلما نجد شعراً في الرثاء مبنياً على المجاملة أو النفاق ، وإنما راج سوق الرثاء بسبب قسوة الحياة الجاهلية ، فالجاهلي إما غاز أو مغزوّ ، فكثر القتل ، والفقد ، فبات مألوفاً ظهور طبقة من الشواعر الندابات اللواتي يقلن شعراً شفاهياً أو يصغن شعرهن على قوالب جاهزة ومعان مكرورة ، وطبقة من الشعراء النّدابين ، ورحم الله الذي سئل عن سبب اللوعة في شعر الرثاء فقال : لأننا نقول الشعر وأكبادنا تتفطّر ..

والعرب تقول : دين بدين حتى دمعة العين . فكان على المعارف والأصدقاء الحضور إلى المأتم والبكاء على الميت ، وقد اعترف شاعر جاهلي بقسوة كبده وعدم وفائه بدين الدمعة :

يُبكى علينا ولا نبكي على أحد ... لنحن أغلظ أكباداً من الإبل

والشاعر عادة يرثي أخاه أو أباه أو ابنه أو حبيبته أو زعيمه أو ولي نعمته ، والرثاء صنو المديح والفخر والفروسية في أشياء كثيرة . ولأن الشاعر يصف مشاعره أولاً بفقد العزيز ، وهي مشاعر مأساوية تبعث على الكآبة ، ثم يعدد الشاعر مزايا الميت ، وهي لن تبعد عن الشجاعة والنجدة والسخاء واحترام حقوق الجار ومشاعره ، وقد رددت العرب شعر الخنساء في الرثاء وعينية أبي ذؤيب الهذلي وعينية أوس بن حجر ، وقد أوردنا نماذج كثيرة للرِّثاء في مباحث متعددة حين سلّطنا الضوء على قيم الفروسية والفتوة .. وها نحن ننتقي يائية عبد يغوث بن وقّاص الحارثي التي يرثي فيها نفسه :

ألا لا تلوماني كفى اللومَ ما بيا ... وما لكما في اللوم خيرٌ ولا لِيا
ألم تعلما أن الملامة نفعها ... قليل ، وما لومي أخي من شماليا
فيا راكباً إمّا عرضت فبلغن ... ندامايَ من نجران أن لا تلاقيا

أبـــا كرب والأيهمين كـلاهمـــا ... وقيسـاً بـأعلى حضرمـوت اليمانيـا
جزى الله قـومي بـالكُلاب ملامـةً ... صريحَهُمُ والآخرينَ المـــواليـــــا
ولـو شئتُ نجتني من الخيـل نهـدةً ... تَرى خلفهـا الحُوَّ الجيـاد تـواليـا
ولكنني أحمي ذمـــــــــار أبيكم ... وكان الرمـاحُ يختطفن المحـاميـا
أقـول وقـد شـدّوا لسـاني بنسعـةٍ ... أمعشرَ تيم أطلقـوا من لسـانيـا
أمعشر تيم قـد ملكتم فـأسجحـوا ... فـإن أخـاكُم لم يكن مِن بـوائيـا
أحقّـاً عبـادَ اللهِ أن لستُ سـامِعـاً ... نشيـدَ الرعـاء المغربينَ المتـاليـا
وتضحـك مني شيخـةٌ عبشميـة ... كأن لم ترَ قبلي أسيراً يمـانيـــا
وظـلَّ نسـاء الحيِّ حـولي ركّـداً ... يراودنَ مني مـا تريـدُ نسـائيـا
وقـد علمت عرسي مليكـةُ أنني ... أنـا الليث معـدواً عليَّ وعـاديـا
وقد كنتُ نحّار الجزور ومعمل الـ ... مطيّ ، وأمضي حيث لا حيَّ ماضيا
وأنحر للشرب الكرام مطيتي ... وأصـدع بين القينتين ردائيـا
وكنتُ إذا مـا الخيـلُ شمّعهـا القنـا ... لبيقـاً بتصريف القنـاة بتـانيـا
وعـاديـةٍ سَـوْم الجراد وزعْتهـا ... بكفّيْ وقـد أنحـوا إليّ العـواليـا
كأني لم أركب جـــواداً ولم أقـــل ... لخيلي كرّي نفّسي عن رجـاليـــا
ولم أسبـــأ الـزقّ الرويَّ ولم أقـل ... لأيسار صدق : أعظموا ضوء ناريا[8]

والرِّثاء فضلاً عن أنه بكاء وتفجُّع ، وذكرٌ لمزايا المرثي ، فهو سانحة للتأمل في الحياة والموت والاستعبار ، فأين أصحاب الممالك والمسالح والقصور .. كل شيء زائل والباقي فقط هو الله ، والذِّكْر الطيب الذي يعطِّر المجالس ، والشاعر علقمة ذو جدن الحميري يخاطب حبيبته (أجتني) لتبكي معه عليها أو عليه ، في عينية تهيئ للدارس أنها ليست في رثاء ميت حبيب على نفسه ، وإنما هي في رثاء الحياة !!

---

(8) المفضليات ق 30 ص 55 / وبعدها .

لكل جنب (أجتني) مضجعْ ... والموتُ لا ينفعُ منه الجزَعْ
والنفسُ لا يحزنكِ إتلافُها ... ليسَ لها من يومها مرتجعْ
والموتُ ما ليس له دافع ... إذا حميمٌ عن حميمٍ دفعْ
لو كان شيء مفلتاً حينَه ... أفلتَ منه في الجبالِ الصدع
أو مالكُ الأقوال ذو فائشٍ ... كان مهيباً جائزاً ما صنع
أو تبّعٌ أسعدُ في ملكه ... لا يتبعُ العالَمَ بل يتبع
وقبله يهتز ذو مأورٍ ... طارت به الأيام حتى وقع
وذو جليل كان في قومه ... يبني بناء الحازمِ المضطلع
ما مثلهم في حمير لم يكن ... كمثلهم والٍ ولا متّبع
فسلْ جميعَ الناس عن حمير ... مَن أبصرَ الأقوال أو من سمع
يخبرك ذو العلم بأن لم يزل ... لهم من الأيام يوم شنع
لهم سماء ولهم أرضه ... من ذا يُعالي ذا الجلال اتضع
اليوم يجزون بأعمالهم ... كل امرئ يحصد ما قد زرع
صاروا إلى الله بأعمالهم ... يجزئ من خان ومن ارتدع
أو مثل (صرواح) وما دونها ... مما بنت (بلقيس) أو (ذو تبع)
فكيف لا أبكيهم دائباً ... وكيف لا يُذهِبُ نفسي الهلع
من نكبة حلّ بنا فقدُها ... جرعنا ذا الموت منها جرع
إذا ذكرنا من مضى قبلنا ... من ملك نرفع ما قد رفع
فانقرضت أملاكُنا كلهم ... وزايلوا ملكهم فانقطع

بنو لمن خلّف من بعدهم ... مجداً لعمر اللهِ ما يقتلع
إن خرّقَ الدّهرُ لنا جانباً ... سدّوا الذي خرّقه أو رَقَع
ننظر آثارهم كلما ... ينظرها الناظر منا خشع
يعرف في آثارهم أنهم ... أربابُ مُلكٍ ليس بالمبتدع

تشهد للماضين منا بما ... نالوا من الملك ونقب القلع
هل لأُناس مثلَ آثارهم ... بمأرب ذات البناء اليفع
لا ما الحيّ مثلهم مفخر ... هيهاتَ فازوا بالعلا والرفع[9]

وقد رثى الأعشى قصراً من قصور اليمن اسمه (ريمان) كان في ظفار وكان هذا القصر آية في المعمار ، وريمان هو من نفس مخلاف بعدان وهو الجبل الشامخ الذرى الذي تربض على سفحه مدينة إب[10] .

يا ماتَ مَن يرى ريمان أمـ ... سى خاوياً خرباً كعابه
أمس الثعالبُ أهله ... بعد الذين همُ مآبه
من سوقةٍ حَكَمٍ ومِن ... ملِكٍ يُعَدُّ له ثوابه
بكرتْ عليه الفُرس بَعـ ... د الحبش حتى هدَّ بابه
فتراه مهدوم الأعا ... لي وهو مسحول ترابه
ولقد أراه بغبطةٍ ... في العيش مخضراً جنابه
فخوى وما من ذي شبا ... ب دائم أبداً شبابُه[11]

5 ـ الاعتذار :

فنّ جميل ، مثل حاجة المجتمع الجاهلي لإصلاح ذات البين بين الأحبّة ، والشاعر فارس ، والفارس لا يستحي من الاعتراف بخطئه ، وإذا أخطأ اعتذر ، وقد شهد العصر حالاتٍ كثيرةٍ للاعتذار ، ولعل أشهر شاعر أنجز شعراً مهمّاً في الاعتذار كمّاً ونوعاً هو نابغة ذبيان الذي غضب عليه النعمان بعد أن فتح بلاطه للوشايات والحسد ، فاتّهم

---

(9) القرشي . جمهرة أشعار العرب (المراثي) ص 257 وبعدها الأقوال مفردها قيل وهو الملك من ملوك حمير . الحين : الهلاك . الصدع : الوعل الفتي . أسعد : ملك من التبابعة . ذو مأور : ملك . يجزئ : يجازي . أملاكنا : ملوكنا . نقب القلع : دكّ الحصون . مأرب سد مشهور في اليمن . اليفع : العالي .

(10) الهمداني : صفة جزيرة العرب انظر هامش ص 197 .

(11) الأعشى . ديوانه ق 54 ص 339 وبعدها .

النابغة بالمتجردة زوج الملك النعمان ، وهرب النابغة إلى بلاط الغساسنة ليحمي رأسه ، ثم حزَّ في نفسه أن ينال منه الحسّاد فكتب من هناك اعتذارياته إلى النعمان ، وكانت آية في اللوعة والصدق ، وقبل النعمان اعتذاره ، وأعاده إلى سابق مكانته في بلاطه .. أما حسّاده فقد انكشف أمرهم واتّضح أنهم رموا النابغة بأفعالهم .. وكان على رأس الحسّاد الشاعر المنخل اليشكري ، وقد قتله الملك بعد أن ثبت له بالدليل أن المنخل كان على صلة آثمة بزوج النعمان ، وهذه اعتذارية للنابغة يكذب فيها تقارير الجواسيس عنه ، ويوضّح موقفه من الغساسنة ، فمديحه للغساسنة يقتضيه وفاؤه لمن أجاره ، وليس معناه أنه مدح الغساسنة ليغيظ المناذرة :

أتاني أبيت اللعن أنك لمتني ... وتلك التي أهتم منها وأنصب
فبتُّ كأن العائداتِ فرشنني ... هراساً ، به يعلى فراشي ويقشب
حلفت فلم أترك لنفسي ريبةً ... وليس وراءَ اللهِ للمرء مذهب
لئن كنتَ قد بلِّغت عني خيانة ... لمبلغُك الواشي أغشّ وأكذب
ولكنني كنت امرأ لي جانب ... من الأرض فيه مستراد ومذهب
ملوكٌ وإخوانٌ إذا ما أتيتهم ... أحكّم في أموالهم وأقرّب
كفعلكَ في قوم أراكَ اصطنعتهم ... فلم ترهم في شكر ذلك أذنبوا
فلا تتركني بالوعيد كأنني ... إلى الناس مطليّ به القار أجرب
ألم تر أن الله أعطاك سورةً ... ترى كلَّ ملكٍ دونها يتذبذب
فإنك شمسٌ والملوك كواكب ... إذا طلعت لم يبد منهن كوكب
ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تلمّه ... على شعث أيُّ الرجال المهذّب
فإن أكُ مظلوماً فعبد ظلمته ... وإن تكُ ذا عتبى فمثلك يعتب[12]

ويمكن وضع معلقة الحارث بن حلزة اليشكري في خانة الاعتذار إذا نظرنا إلى ظروف ارتجالها (كما زعم) والمعاني التي تضمّنتها .

(12) الذبياني . النابغة . ديوانه ص 27 وبعدها .

أما اعتذار زهير بن أبي سلمى لحبيبته وزوجه (أم أوفى) فهي ضرب من البكاء على زمن جميل مع أم أوفى لم يدم ، وقد ذكرت الأخبار أن أم أوفى كانت تغار على زهير ، وتمنعه من التحدث إلى النساء أو التغزّل بهن ، وقد ضاق بها مرة وضاقت به ، فطلبت إليه الطلاق ، فوافق على الفور ، ثم ندم أشدّ الندم ، ولم تندم أم أوفى ، ولم تقبل اعتذاره . وعادت إلى بيت أهلها .. وأقسمت أنها لن تسمح له برؤيتها حتى يواريها القبر .. وبرّت بقسمها .. وهذه نفثة من نفثات زهير :

لعمركِ والخطـــــوبُ مغيّراتٌ ... وفي طـول المعـاشرة التّقـالي
لقـــد بـــاليتُ مظعن أمّ أوفى ... ولكن أمّ أوفى لا تبـــالي
فـأمـــا إذْ ظعنت فـلا تقـولي ... لـــذي صهرٍ : أذلْتُ ولم تـــذالي
أصبتُ بنيَّ منـــــكِ ونلتِ مني ... من اللـذاتِ والْحَلَـل الغـوالي[13]

ومأساة الأعشى مع زوجه التي طلقها لا تقل أسى عن مأساة زهير ، فقد كبر الأعشى ، وذهب معظم بصره ، وبقي الغنى فيه كما كان ، وكانت زوجه صغيرة السّن ، تندب حظّها لأنه أوقعها في أصلع عجوز بعمر أبيها ، ويبدو أن شابّاً غريباً كان يزورها ويعدها بالزواج منها إذا تخلّصت من الأعشى ، فطلبت الطلاق ، وكان الأعشى قد لاحظ عليها تبدُّلاً في طباعها وطموحاتها ، فوافق على طلاقها لأنها كانت راغبة بالاقتران بفتى طويل أبيض من قبيلتها هزّان ، فطلّقها بالثلاث ، فذهبت إلى أهلها ، أما الرجل الغريب فقد خذلها وكذب عليها واختفى من حياتها بعد أن صدقته ، فبعثت إلى الأعشى طالبة العودة إليه ، فامتنع وذكّرها برغبتها بالزواج من أحد فتيان قومها وزعمها بأن أي شابة لن ترضى به ، وقد تزوّج من شابّة فعلاً على سبيل التّحدي !! بيد أنه امتدح شرفها واعترف بحبّه لها :

يـا جـارتي بيني فـإنـك طـالقـة ... كـذاك أمـور النـاس غـاد وطـارقـة

---

(13) ابن أبي سلمى . زهير . شرح شعره ق 43 ص 257 .

وبيني فـإن البين خير من العصـا ... وإلا تـزالَ فـوق رأسـك بـارقـة
ومـا ذاكَ من جرم عظيم جنيتِـه ... ولا أن تكـوني جئتِ فينـا ببـائقـة
وبيني حصـان الفرج غير ذميمـة ... ومـومـوقـة فينـا كـذاكَ وواملقـة
وذوقي فتى قـومٍ فـإني ذائـق ... فتـاةَ أنـاسٍ مثـل مـا أنتِ ذائقـة
فقـد كان في شبّـان قـومـك منكـح ... وفتيـانِ هِـزّان الطـوال الغرانقـة[14]

6 ـ الهجاء :

ضرب من الشعر ، مسكون بـالعتوّ والغطرسـة ، وربمـا الكـذب والفحش وهتـك الأعراض ، بيد أنه على الجهة الأخرى ينفّر الناس من أخلاق الهاجي قبل المهجو ، لأنها أخلاق تأباهـا القيم العربيـة ، فـالمهجو بعيـد عن الشجـاعـة والكرم والنجـدة والأمـانـة والصدق ومراعاة الجوار ، فهو جبان وبخيل ومتقاعس وخـائن كاذب مؤذ لجـاره ، وقـد سعّر الهجاء حروباً مدمّرة بين الأفراد والقبـائل والمـدن ، ولم ينج منـه حتى أولاد العم ، وجمهور الشعر لا يميل إلى الهجاء ، فإذا استظرف بيتاً في الهجاء فليس لأنه هجاء ، وإنمـا لأنه قال شيئاً جديداً ، وربما مضحكاً ، وهم لا يشجعون الشاعر عليه إلا أنـه (الهجـاء) كان سلاحاً جاهليّـاً فتّـاكاً بسبب اعتمادهم عليـه حربـاً دون إراقـة دمـاء .. فثمـة الحسـد والتنافس بين الفتيان والأحياء والقبـائل يشبّـه خبثـاء لا يحيون إلا في أجواء الوشـايـة والخصومة والذهنيـة القـديمـة تتطيّر من الهجـاء ، فهم يعـدّونـه شكيل السحر ، ولعلنـا نتذكّر فعلة لبيد حين هجا الربيع بن زياد في بلاط النعمان ، وقد ارتـدى لبيـد ملابس مغرّبة وتقلّد بقلادتين من ودع وأخرى من سبوت قديمـة ، وصبغ نصف وجهـه بـالقـار والرمـاد وحلق جـانبـاً من شعره وحـاجبـاً واحـداً .. وقـد بلغ الأمر بـالربيع أنـه كان يرتجف وهـو يصغي إلى الهجـاء .. بـل إن النعمان لم يتـورع عن طرد صـديقـه وأقرب الناس إليه ، وقد كان هجاء لبيد للربيع سبباً لتندُّر العرب بالربيع ، فقد جعلـه الهجـاء أضحوكة بين الناس ، وهو الفارس السيد !! وقد اقتبسنا همزية زهير مثـالاً على الهجـاء

(14) الأعشى : ديوانه ص 41 ص 313 وبعدها . غرانقة مفردها غرنوق : الشاب الأبيض الجميل .

المؤذي الذي يسلب المهجو كلّ فضائله ، ويحبسه في القصيدة بحيث لا يقوى على مغادرتها !! وقد بدأ بالمقدمة الطللية التي توحي للدارس مكابدة الشاعر وعناءه ، فكأن هذه المقدمة تمهيد للصراع الدموي بين حمار الوحش والطبيعة ، بعدها يمتدح أصدقاءه ليداهم آل حصن بهجائه :

1- عفا من أهل فاطمة الجواءُ ... فيُمن فالقوادمُ فالحساء
فلما أن تحمّل أهلُ ليلى ... جرت بيني وبينهم الظِّباء
جرت سنحاً فقلت لها أجيزي ... نوى مشمولةً فمتى اللقاء
لقد طالبتها ولكل شيء ... إذا طالت لجاجتُه انتهاء

2- فصرّم حبْلها إذ صرّمتْه ... وعادَكَ ، أن تلاقيها العَداءُ
بآرزةِ الفقارةِ لم يخنها ... قِطافٌ في الرِّكابِ ولا خلاء
كأن الرحل منها فوق صعل ... من الظلمات ، جؤجؤه هواءُ
أذلك أم أقبُّ البطن جأبٌ ... عليه من عقيقته عِفاء ؟
تربّع صارة حتى إذا ما ... فنى الدحلان عنه والإضاء
فأوردها حياضَ صنيعبات ... فألفاهنّ ليس بهنّ ماء
فشجّ بها الأماعز وهي تهوي ... هُويَّ الدّلو ، أسلمها الرِّشاء
فليس لحاقه كلحاقِ إلفٍ ... ولا كنجائها منه نجاء
يفضله إذا اجتهدَت عليه ... تمام السِّنّ منه والذكاء
كأن سحيله في كلّ فجر ... على أحساء يمؤودٍ دُعاء
فآض كأنه رجل سليب ... على علياءَ ليس له رداء
فليس بغافل عنها مضيعٍ ... رعيته إذا غفلَ الرِّعاء

3- وقد أغدو على شرب كرام ... نشاوى واجدينَ لما نشاء
لهم راخ وراووق ومسك ... تعلُّ به جلودهمُ وماء
أمشي بين قتلى قد أُصيبت ... نفوسُهُمُ ولم تقطر دماء

يجرّون البرودَ وقـــــد تمشّت ... حميـــا الكأس فيهم والفنـــاء

4- ومـا أدري وسـوف إخـال أدري ... أقـــومٌ آلُ حِصْن أم نســـاء

فـإن تكنِ النســاءُ مخبّـآتٍ ... فَحُـقَّ لكلِّ محصنـةٍ هِـداء

وإمـا أن يقـولَ بنـو مصـادٍ : ... إليكم إننـــا قـــومٌ براء

وإمـا أن يقـولـوا : قـد أبينـا ... وشرُّ مـواطنِ الحسبِ الإبـاء

وإمـا أن يقـولـوا قـد وفينـا ... بـذمّتنـا ، وعـادَتنـا الـوَفـاء

فـإنـهُ الحـقُّ مقطعـه ثـلاث ... يمين أو نفـــارٌ أو جـــلاء

سيـــأتي آلَ حصن أين كانـــوا ... من المثـلات ، مـا فيهـا ثنـاء

فلم أرَ معشراً أسروا هـــديـــاً ... ولم أرَ جـــارَ بيتٍ يستبـــاء

وجـارُ البيتِ والرجـلُ المنـادي ... أمـامَ الحيِّ ، عهـدهمـا سـواء

فـإني لـو لقيتـكَ واتّجهنـا ... لكان لكلِّ منكرةٍ كِفـــاء

فـأبرئ مـوضحـات الرأس منـه ... وقـــد يشفي من الجرب الهنـاء

تُلَجْلَـج مضغـــةٌ فيهـــا أنيض ... أصلّتْ فهي تحت الكشـــح داء

غصِصْت بنيئهـــا فبشمتَ عنهـــا ... وعنـــدك لـوأردتَ لهـــا دواء

فهـلاّ آل عبـــد الله عـــدّوا ... مخـازي لا يُـدبُّ لهـــا الضّراء

أرونـــا سُنّـــةً لا عيبَ فيهـــا ... يُسـوّي بيننـــا فيهـــا السّـواء

فـإن تـدعـوا السـواءَ فليس بيني ... وبينكمُ بني حِصن بقـــــاء

ويبقى بيننـــا قَـــذَعٌ وتُلفـوا ... إذا قـومٌ بـأنفسَهم أسـاؤوا

وتـوقـــدْ نـــاركمْ شرراً ويرفَـعْ ... لكمْ في كلِّ مجمعـــةٍ لِـــواء

وتذكر الأخبار أن آل حصن ، بعثوا وفداً إلى زهير ليستَرضيه ومعه إبل كثيرة ، وطلبوا إلى الوفد أن يعتذر لزهير نيابة عنهم ، وقد ندم زهير على هجاء آل حصن . وقال : « إني والله لقد عجلتُ إذ فعلتُ وايمُ اللهِ لا أهجو أهل بيت من العرب أبداً ،

ما خرجت بليل قط إلا خشيت أن يصيبني عذابٌ من السماء بظلم أهل بيت من العرب كرام »[15] .

7 ـ الفخر :

العربي بطبيعته إنسان فخور ، يحبُّ نفسه أولاً ثم أشقّاءه ثم أبناء عمه ، ثم قبيلته ، ولكنه في السِّلم ميّال إلى الإيثار ، وقد تنافس الفرسان في المجد ، حتى ينالوا السمعة الحسنة ، فيفخر الشاعر الفارس بنفسه وفعاله وقومه ..، أما مقومات الفخر فهي مقومات الفروسية نفسها والفتوة كذلك ، يفخر الشاعر بشرفه وشرف قومه فهو شجاع مرهوب ، وفتي مرغوب ، وكريم ذو نار لا تطفأ . يقول بلاشير : « من العسير إيجاد مرادف مقبول لكلمة الفخر ، ولا تثير الكلمة في الذهن فكرة النوع الأدبي ، بل موقفاً يدفع الشاعر إلى التميُّز من قبيلته أو الانتصاب تجاه العدوّ ذاكراً محاسنه وصنائعه الفردية أو مآثر أسرته أو عشيرته ، فيصبح الشاعر لمدة وجيزة مركز عالمه الذاتي »[16] . وكلما شعر الشاعر بالحيف والظلم كلما انتفخت ذاته وأعلى قدرها فوق أقدار الآخرين ، وقد وجدنا الصعاليك يفخرون بأنفسهم ويهجون أعداءهم ، واكتشفنا أن التَّبجُّح حاق بمديح بعضهم والكذب وسم هجاء بعضهم الآخر ! والفخر مؤسسة إعلامية تروِّج لسيادة القبيلة على القبائل الأخرى والفرد على القبيلة ، وهذا يفسِّر سعادة القبيلة بالشاعر حين ينبغ من بين بيوتها ، فتنحر الجزور وتدعى الوفود ، ويرقص الفتيان والفتيات ، وينفخون بالمزاهر ، وينقرون الصنوج ، وقد تستمر الاحتفالات أياماً ! والفخر مولع بالمبالغة حين يحاول إيصال أطروحاته ، ويبدو أن المجتمع يقبل الفخر من الشاعر ويستثقله من الناشر ! وكان المتلمّس خال طرفة قد مكث بين أخواله بني يشكر حتى كادوا يغلبون على نسبه ، فسأل الملك عمرو بن هند ، وهو مضرّط الحجارة لشدة ملكة وقوة بأسه وحبّه للدماء وهو المحرّق أيضاً لأنه أحرق تسعة وتسعين شاباً من بني دارم ووحداً من البراجم ، الحارثَ بن التوأم اليشكري عن المتلمس وعن نسبه ، فأراد

(15) ابن أبي سلمى : زهير . شرح شعره ص 52 ـ 75 .

الحارث أن يدّعيه ، ثم إن المتلمس يزعم أنه من ضُبيعة وأحياناً من بني يشكر ، فقال الملك عمرو بن هند : مثل المتلمّس مثل الساقط بين الفراشين فبلغ ذلك المتلمّس فاستشاط غضباً وقال يفخر بنسبه :

يعيّرني أمي رجـــــالٌ ولا أرى ... أخـــا كرم إلا بـــأن يتكرّمـــا
ومن كان ذا عرض كريم فلم يصن ... لـــه حسبٌ كان اللئيم المـــذمـــما
أحـارثُ إنـا لـو تشـاط دمـاؤنـا ... تـــزايلن حتى لا يمسُّ دمٌ دمـــا
أمنتفيـــاً من نصر بهثـــةُ خلتني ... ألا إنني منهم وإن كنت أينما
ألا إنني منهم وعرضي عرضهم ... كـذي الألفِ يحمي أنفه أن يصلما
وإن نصـــابي إن ســـألت وأسرتي ... من النـــاس حيٌّ يقتنـون المـزنّما
وكنـــا إذا الجبـــارُ صعّر خـــدّه ... أقمنـــا لـــه من خـــدّه فتقـوّمـــا
لذي الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا ... ومـــا عُلّمَ الإنســـان إلا ليعلمـــا
ولـــو غيرُ أخـــوالي أرادوا نقيصتي ... جعلتُ لهم فـــوق العرانين ميسما
وهـل لي أمٌّ غيرُهـــا إن تركتُهـــا ... أبى اللهُ إلا أن أكـونَ لهـــا ابنما[17]

أما أبو قيس صيفي بن الأسلت فله في فخره حكاية طريفة ، فقد أولته الأوس قيادتها في حرب بعاث ، ودامت الحرب أشهراً حتى شحب وتغيّر ، وحين انطفأت نار الحرب بين الأوس والخزرج عاد إلى بيته ليلاً فدقّ الباب ففتحته امرأته ، وهي كبشة بنت ضمرة ، فاقترب منها مسلّماً فدفعته وأنكرته فقال لها : ويحك أنا أبو قيس فاعتذرت ، وقالت : والله ما عرفتَك حتى تكلّمت . فقال هذه القصيدة يفخر بأن شحوبه وتغيُّر أحواله بسبب قيادته للفرسان .

قـــالت ولم تقصـــد لقيـــل الخنـــا ... مهـــلاً فقـــــد أبلغتَ أسماعي
أنكرتِـــــه حين تـــوسّمتِـــــه ... والحرب غـــولٌ ذات أوجـــــاع

(16) بلاشير . تاريخ الأدب العربي ص 466 .
(17) ابن الشجري . مختارات ابن الشجري ص 27 ص 28 .

من يَـذق الحرب يجـد طعمهـا ... مُرّاً ، وتحبسـه بجعجـاع
قـد حصّت البيضـةُ رأسي فمـا ... أطعمُ غمضـاً غيرَ تهجـاع
أسعى على كلّ بني مـالـكٍ ... كل امرئ في شـأنـه سـاع
أعـددت لـلأعـداء مـوضـونـةً ... فضفـاضـةً كالنهى بـالقـاع
أحفِـزُهـا عني بـذي رونـق ... مهنّـدٍ كاللمـحِ قطّـاع
صـدْقٍ حسـامٍ وادقٍ حـدُّه ... ومجنـاً أسمرَ قرّاع
بـزِّ امرئٍ مستبسـلٍ حـاذرٍ ... للـدهر ، جلـد غير مجـزاع
لا نـألُ القتـل ونجـزي بـه الـ ... أعـداء كَيْـلَ الصـاعِ بـالصـاع
نـذودهم عنـا بمستنـةٍ ... ذات عرانينَ ودفّـاع
هـلا سـألتِ الخيـلَ إذ قلّصت ... مـا كانَ إبطـائي وإسراعي
هـل أبـذلُ المـالَ على حُبِّـه ... فيهم وآتي دعـوةَ الـداعي
وأضربُ القـونس يـوم الـوغى ... بـالسيفِ لم يقصُر بـه بـاعي
وأقطـعُ الخرقَ يُخـافُ الرّدى ... فيـه على أدمـاءَ هلـواع
أقضي بهـا الحـاجـات إن الفنى ... رهنٌ بـذي لـونين خـدّاع[18]

ويظل لفخر السموءل بن عاديا مذاق مختلف ، فهو يفخر بالشمائل العربية وأهمها التّرفُّع عن دنس العرض ، والنـأي عن الجـزع ، ومن ثم التّحلّي بـالقيم التي يعتزُّ بهـا كل عربي ، والسموءل يهودي ديناً عربي دماً ولحماً وانتماءً ، والعربي منـذ الجـاهليـة يشترط الولاء ، فكان منهم الحنيفي والمسيحي واليهودي والصـابئي .. وهـذا مثـال آخر على أن العرب ليسوا عنصريين ، فكانوا يفخرون بـالسموءل ويضربون بوفائـه الأمثـال ، وكان السموءل يفخر بقومه العرب !

إذا المرءُ لم يـدنّس من اللـؤم عرضُـه ... فكلُّ رداءٍ يرتـديـه جميـل
وإن هـو لم يحمـل على النفس ضيمهـا ... فليس إلى حسْن الثنـاء سبيـل

(18) المفضّليات ث 75 ص 284 وبعدها . القونس : عظم وسط الجمجمة .

تعيّرنا أنّا قليلٌ عديدُنا ... فقلت لها: إن الكرام قليل
وما قلّ من كانت بقاياهُ مثلنا ... شبابٌ تسامى للعلى وكهول
وما ضرّنا أنّا قليل وجارنا ... عزيزٌ وجار الأكثرين ذليل
لنا جبلٌ يحتلُّه مَن نجيره ... منيعٌ يردُّ الطرفَ وهو كليل
رسى أصلُه تحت الثرى وسما به ... إلى النجم فرعٌ لا يُنالُ طويل
هو الأبلقُ الفردُ الذي شاعَ ذكره ... يعزُّ على من رامهُ ويطول
وإنا لقومٌ لا نرى القتلَ سُبّةً ... إذا ما رأتهُ عامرٌ وسلول
يقرّب حبُّ الموتِ آجالَنا لنا ... وتكرهه آجالهم فتطول
وما ماتَ منا سيد حتف أنفه ... ولا طُلَّ منا حيث كان قتيل
تسيلُ على حدّ الظُّبات نفوسُنا ... وليست على غير الظّباتِ تسيل
صفونا فلم نكدُرْ وأخلصَ سرُّنا ... إناثٌ أطابتْ حملنا وفحول
فنحن كماء المُزن ما في نصابنا ... كهامٌ ولا فينا يُعدُّ بخيل
وننكر إن شُئنا على الناس قولهم ... ولا ينكرون القول حين نقول
إذا سيدٌ منا خلا قام سيدٌ ... قؤولٌ لما قال الكرامُ فعول
وما أُخمدتْ نارٌ لنا دون طارقٍ ... ولا ذمّنا في النازلينَ نزيل
سلي إن جهلتِ الناس عنا وعنهم ... فليس سواءً عالم وجهول[19]

8 ـ التوثيب :

الموثبات قصائد كتبها الشعراء ليبثوا الحماسة في نفوس الناس لكي يحاربوا أعداءهم[20] ، وكان الشاعر الجاهلي حاذقاً في توثيب الناس فيدعوهم للحفاظ على شرف النساء وسمعة القبيلة ، والقيم النبيلة والأموال ، ثم يذكّرهم بمجد السلف ومضاء الخلف ، وجدارة الأسلحة ، وقد أدّت القصائد التثويبية دوراً مخرّباً في المجتمع الجاهلي إذ أوغرت

(19) ديوانا عروة بن الورد والسموءل ص 90 ، طب دار صادر ، بيروت ، تح كرم البستاني .

(20) الجباوي . محمد فتاح . الموثبات في الشعر الجاهلي .

الصدور ، وزيّفت الحقائق والوقائع وتسبّبت في إراقة الدماء البريئة ، وسبي الحرائر المنّعة ، وهلاك الزرع والضرع كما يقال .. فهي (الموثبات) تشبه إعلام الحرب في زماننا هذا ، فإعلام الحرب قائم على المزاعم وفكرة أنا الأشرف ، وأنا الأقوى ، وأنا الأحق ، وإن العدو معتد ومخاتل وجبان ، وإنه طامع بالأرض والعرض والمال والحلال . وللدارس أن يستثني عدداً من القصائد النبيلة المكتوبة بروح عروبية ، فقد نبّه عدد من الشعراء ذوي النظرة العروبية المبكرة إلى المخاطر الحقيقية التي تمثلها الدولتان العظميان : الأكاسرة والقياصرة فضلاً عن الخطر الآتي من الحبشة ، حتى إن لقيطاً بن يعمر الإيادي دفع حياته ثمناً لموثباته ، أما الأعشى فيكفيه شرفاً أنه هجا أكبر زعيم عربي عهد ذاك ، وهو قيس بن مسعود الشيباني ، ولم يبال بالمخاطر التي يمكن أن تناله بسبب هجائه لقيس ، وتحريض العرب عليه ، وقد اتّهم الأعشى قيس بن مسعود بالخيانة العظمى ؛ لأنه زار أعداء العرب والحرب قائمة ، ناسياً الدماء التي سفكت والمصائب التي حلّت[21] ، ومن يقرأ أيام العرب في العصر الجاهلي سيتوفر على نصوص كثيرة في التوثيب !

أما المنصفات فهي قصائد مهمة أنصف فيها الشاعر الفارس عدوّه[22] ، فوصفه بالشجاعة والخبرة والسماحة ، ولا يستغرب من الفارس مثل هذه الأخلاق ، فالفارس ذكي فإذا امتدح خصمه وقال : إنه شجاع ، ثم انتصر على هذا الشجاع كان فخره أعمق ونصره أوضح ، وقد عنَّ لنا إيراد موثبتين للقيط بن يعمر الإيادي يحرِّض فيهما العرب ، وبخاصة إياد التي تجمّع حولها العرب لملاقاة الجيوش القادمة لغزوهم ، ويفصّل برنامجه الذي يقترحه للنصر .. ولا نريد التفصيل فالموثبتان بليغتان ولا تحتاجان لمزيد من الإيضاح :

---

(21) الصائغ . د . عبد الإله . الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنية . الفصل السابع ص 261 وبعدها ، مكرّس للموثبات العروبية في العصر الجاهلي .

(22) الملوحي . عبد المعين . المنصفات . جمع وتحقيق ، طب دمشق 1967 .

الموثبة الأولى (قطعة) .

سلام في الصحيفة من لقيط ... إلى من بالجزيرة من إياد
بأن الليث كِسرى قد أتاكم ... فلا يشغلكم سوق النقاد
أتاكم منهم ستون ألفاً ... يزجّون الكتائب كالجراد
على حتفٍ أتيناكم فهذا ... أوان هلاككم كهلاك عاد

الموثبة الأخرى (طويلة) :

يادار عمرة من محتلها الجرعا ... هاجت لي الهم والأحزان والوجعا
تامت فؤادي بذات الجزع خرعبةٌ ... مرّت تريد بذاتِ العذبةِ البيعا
جرت لما بيننا حبلُ الشُّموس فلا ... يأساً مبيناً ترى منها ولا طمعا
فما أزال على شخط يؤرقني ... طيفٌ تعمّد رَحلي حيثما وُضِعا
بل أيها الراكب الْمُزجي مطيته ... نحو الجزيرة مرتاداً ومنتجعا
أبلِغ إياداً وخلِّلْ في سراتهم ... إني أرى الرأي إن لم أعص قد نصعا
يا لهفَ نفسي إن كانت أموركُم ... شتى وأحكِم أمر الناس فاجتمعا
ألا تخافون قوماً لا أبا لكم ... أمسوا إليكم كأمثال الدَّبا سُرُعا
أبناءُ قومٍ تأوَوْكم على حنقٍ ... لا يشعرون أضرَّ اللهُ أم نفعا
فهم سراعٌ إليكم بين ملتقطٍ ... شوكاً وآخر يجني الصّاب والسّلعا
لو أن جمعكم راموا بهدّته ... شُمَّ الشماريخِ من ثهلانَ لانصدعا
في كل يوم يسنون الحراب لكم ... لا يهجعون إذا ما غافل هجعا
لا الحرث يشغلهم بل لا يرون لهم ... من دون بيضتكم رِيّاً ولا شِبعا
وأنتم تحرثون الأرضَ عن سفه ... في كلّ معتملٍ تبغَونَ مزدرعا
وتلقحون حيالَ الشول آونةً ... وتنتجونَ بدار القُلعةِ الرُّبعا
أنتم فريقان : هذا لا يقومُ له ... هضْرُ الليوث وهذا هالك صقعا

وقـــــــد أظلكمُ من شطر ثغركم ... هـولٌ لـه ظُلَمٌ تغشـاكمُ قِطعـا
مـالي أراكم نيـامـاً في بُلهنيـة ... وقد ترون شهابَ الحرب قد سطعا
فـاشفـوا غليلي برأي منكم حَسَنٍ ... يُضحي فؤادي لـه ريـان قـد نقعا
ولا تكـونـوا كمن قـد بـات مكتنعـا ... إذ يقـال لـه امـزج غمـة كنعـا
صونـوا جيـادكمُ واجلـوا سيـوفكم ... وجـددوا للقسيّ النُّبـل والشّرعـا
واشروا تـــلادكمُ في حرز أنفسكم ... وحرز نسـوتكم لا تهلكـوا هَلَعـا
ولا يـدع بعضكم بعضاً لنـائبـة ... كما تركتم بـأعلى بيشـة النخعـا
يـا قـومُ بيضتكم لا تُفجَعُنَّ بهـا ... إني أخـافُ عليهـا الأزلَ الجـذعـا
يـا قـومُ لا تـأمنـوا إن كنتمُ غُيُراً ... على نسـائكم كِسرى ومـا جمعـا
هـو الجـلاءُ الـذي يجتث أصلكم ... فمن رأى مثـل ذا رأيـاً ومن سمعـا
فقلّـــــــــدوا أمركم لله درّكم ... رحْبَ الذراع بـأمر الحرب مضطلعا
عبْـل الـذراع أبيّـاً ذا مـزابنـةٍ ... في الحرب لا عاجزاً نكساً ولا ورعا
مستنجـداً يتحـدى النـاس كلهم ... لـوقـارعَ النـاسَ عن أحسابهم قرعا
لقـد بـذلتُ لكم نصحي بـلا دخـل ... فـاستيقظـوا إن خير العلم مـا نفعـا
هـذا كتـابي إليكم والنـذيرُ لكم ... لمن رأى منكم رأيـاً ومن سمعـا[23]

ومما يحزُّ في نفس الباحث أن بعض الدارسين الذين يعمهون في أحكامهم .. ظنّوا أن الشعر التوثيبي الذي كتبه الشعراء في الحروب الطاحنة القذرة بين أبناء الأمة الواحدة شعرٌ قومي ولا ندري أيّ قومية هذه تلك التي تنمو في الحرب الأهلية التي تدور رحاها بين الأشقاء وأولاد العمّ .. وقد تنبّه زهير المزني فشجّع ذادة السلام ، وكتب فيهم قصائد المديح لأنهم يرأبون الصدع بين العربي وأخيه .. أما الفند الزماني فقد

(23) ابن يَعمر . لقيط . ديوانه ص 35 ـ 51 ، تح د . عبد المعين خان ، طب مؤسسة الرسالة ـ بيروت 1987 .
الصائغ . عبد الإله . صحيفة لقيط (تحليل نص) مجلة الطليعة الأدبية ، بغداد ، شباط (فبروري) 1979 .

حاول بكل ما يمتلك من وعي وصبر أن لا يكون سبباً في إشعال الفتنة بين الإخوان ، ولكن دائماً ثمة أولئك الذين لا يهنأ لهم بال إلا بتخليق المصائب ..

أقيـــدو القـــومَ إن الظلـ ... مَ لا يرضـــاهُ ديّـــان
وإن النـــار قـــد تصبـ ... ح يـــومـــاً وهي نيران
وفي العـــدوان للعـــدوا ... ن تـــــوهينٌ وإقران
وبعضُ الحلمِ يـــومَ الجهـ ... لِ للـــذلّـــةِ إذعـــان
صفحنـــا عن بَني ذهـــل ... وقلنـــا القـــوم إخـــوان
عسى الأيـــامُ أن يرجعـ ... نَ قـــومـاً كالـــذي كانـوا
فلمـــــا صرَّح الشَّرُّ ... بـــدا والشَّرُّ عريـــان
أنـــاس أصلنـــا منهم ... ودنّـــا بـــالـــذي دانـوا
وكنـــــا معهم نرمي ... فنحنُ اليـــومَ أحـــدان
وفي الطـــاعـــةِ للجـــاهـ ... لِ عنـــد الْحَرّ عصيـــان
فلمـــــا أبي الصلـــحُ ... وفي ذلـــك خـــذلان
شـــددنـــا شـــدّة الليث ... غـــدا والليث غضبـــان
بضربٍ فيـــه تـــأثيم ... وتفجيـــعٌ وإرنـــان
وقـــد أدْهَنَ بعضَ القـوم ... إذ في البغي إدهـــان
وقـــد حـــلَّ بكل الحيّ ... بعـــــد البغي إمكان
بطعن كفم الـــــزِّق ... غـــدا والـــزِّق مـــلآن
وفي الشَّرّ نجـــــاةٌ حيـ ... ن لا ينجيـــك إحســـان
ودان القـــــومُ إنْ لقِـ ... يتِ الفتيـــانَ فتيـــان[24]

(24) البغدادي . محمد بن المبارك ت 589 . قصائد نادرة من كتاب مُنتهى الطلب من أشعار العرب ص 70 ، تحقيق د . حاتم صالح الضامن ، طب مؤسسة الرسالة ، بيروت 1983 .

9 ـ السلام :

لا أحد يحبُّ الحرب ، حتى أولئك الذين أشعلوها ، وجعلوا البشر وقودها ! فالكل يدّعي أنها سبب الدّمار والحرب والموت ، وقد تجد قيماً نبيلة لفرسان الحرب أمثال عنترة ، وعامر بن الطفيل ، والفند الزماني ، وسواهم من نحو النجدة والعفو عن المستسلم ، وعدم الإجهاز على الجريح والتّرفّع عن طعن المدبر في قفاه ، والحفاظ على شرف النساء ، والزهد بالغنائم ، وما إلى ذلك من أخلاق الفرسان ، لكن الدعوة للسلام ينبغي أن تكون واضحة ، فداعية السلام غيره داعية الإعدام ، وإن زعم هذا الأخير أنه يعدم الآخرين في الحرب دفاعاً عن الحياة أو ردّاً للاعتبار ، وقد عرفت الجاهلية شعراء يدعون للسلام بين الشمال والجنوب أو القبائل المتخالفة أو المتحالفة ، صوناً للعرض وحفاظاً على المال الذي تثمره الزراعة والرّعي والصناعة والتجارة والعبادات ، وهذه أمور لن تنمو إلا في زمن السّلم ، وعرف زهير مثلاً داعية سلام ، وعرف الفند بأنه داعية ضبط النفس ! وقد رسم امرؤ القيس صورة كابوسية للحرب تشبه صورة (درايكولا) في عصرنا الحديث :

الحربُ أولُ ما تكونُ فتيةً ... تسعى بزينتها لكلّ جهول
حتى إذا استعرّت وشبّ ضرامُها ... عادَتْ عجوزاً غير ذات حليل
شمطاء جزّت رأسها وتنكّرت ... مكروهةً للشّمّ والتّقبيل[25]

ثم قارن احتفاء زهير برجلي السلم ، ثم وصفه المقزّز للحرب !!

سعى ساعياً غيظ بن مرة بعدما ... تبزّل ما بين العشيرة بالدم
فأقسمتُ بالبيتِ الذي طاف حوله ... رجالٌ بنوه من قريش وجرهم
تداركتما عبساً وذبيان بعدما ... تفانوا ودقّوا بينهم عطر منشم
وقد قلتما : إن ندرك السلمَ واسعاً ... بمالٍ ومعروفٍ من الأمر نسلم

(25) امرؤ القيس . ديوانه . ق 96 ص 353 .

فـأصبحتمـا منهـا على غير مـوطن ... بعيـدين فيهـا من عقـوق ومـأثم
عظيمين في عُليـا معـدٍ هُـديتما ... ومن يستبـح كنزاً من المجـد يعظم
ومـا الحربُ إلا مـا علمتم وذقتم ... ومـا هـو عنهـا بـالحـديث المرجم
متى تبعثـوهـا تبعثـوهـا ذميمـةً ... وتضرَّ إذا ضريتمـوهـا فتضرم
فتعرككم عرك الرّحـا بثفـالهـا ... وتلقـح كشـافـاً ثم تنتـج فتتئم[26]

10 ـ الحكمة :

الحكمة لغة العقل والتجربة ، وقد وجدت لها في الحياة الجاهلية جمهوراً عريضاً لا يقلُّ أهميةً وكمّاً عن جمهور الغزل أو الفروسية ، وكان هذا الجمهور فعّالاً في صياغتها ، بمعنى أنه يشجّع ضرباً من الحكمة يجعل الشاعر مضطراً أحياناً لتلبية رغبة الناس ، فالحكمة حكمات ، وفنّ الحكمة قريب الأرومة من الشعر الديني وإن تباينت الأساليب والأهداف ، فشعر الحكمة يحذّر الناس من عواقب الجور والظلم والغدر ، والسرقة والغطرسة . يحذّرهم من إزعاج الجار ، أو الانهماك في الملذّات ، ثم يضرب الأمثال تلو الأمثال بالأمم الغابرة التي سادت ثم بادت بسبب الجور والعتو ، وللأمثال العربية مركزية بيّنة في شعر الحكمة ؛ لأنها أي الأمثال تصطنع تناصّاً بين أحداث حاضرة وأحداث غابرة فتستحضر الحدث الغابر ، وتغيّب الحدث الحاضر إمعاناً في التشويق والترغيب والترهيب ، وغالباً ما يدعو شعر الحكمة إلى صون اللسان عن الكذب ، واليد عن الأذى ، والاسم عن الفحشاء ! وقد يلجأ الشاعر إلى الحكمة وهو يرثي عزيزاً عليه ، أو حين يحذّر قريباً أو يهدّد معتدياً ، وأكثر شعر الحكمة مقترن بالشيخوخة والتجربة وكثرة الأسفار ، فالشاعر الذي يطعن في السّن ولا يجد ما يقوله في الغزل أو الفروسية أو الهجاء أو الفخر يجد الكثير الذي يقوله في الحكمة ، فيدعو الناس إلى مكارم الأخلاق والتأمل في الحياة والخلق ، ويبدو أن الحكمة كانت لسان الميزان بين رغبات الجسد

(26) ابن أبي سلمى . زهير . شرح شعره ص 24 .

وطلبات العقل ، بين اندفاع الشباب وتردُّد الشيوخ ، فهي (الحكمة) تعيد التوازن إلى أشياء كثيرة ، قال زهير :

سئمتُ تكاليف الحيـــاة ومن يعِش ثمـانين حـولاً لا أبـا لـكَ يسـأم
رأيت المنايا خبـط عشواء من تصب تمتـــــه ومن تخطئ يعمّر فيهرم
وأعلم مـا في اليـوم والأمس قبلـه ولكنني عن علم مـا في غـد عمي
ومن لا يصـــانـع في أمـور كثيرة يضرّس بـأنيـاب ويـوطـأ بمنسم
ومن يـك ذا فضـل ويبخـل بفضله على قـومـه يستغن عنـه ويـذمم
ومن يجعل المعروف من دون عرضـه يفره ومن لا يتّـــق الشتم يشتم
ومن لا يـذد عن حـوضـه بسلاحـه يهـدّم ومن لا يظلم النـاس يظلم
ومن هـاب أسبـاب المنـايـا ينلنـه ولـو نـال أسبـاب السماء بسلّم
ومن يعص أطراف الـزجـاج فـإنـه يطيـع العـوالي ركبت كل لهـذم
ومن يوف لا يـذمم ومن يفض قلبـه إلى مطمئن البرّ لا يتجمجم
ومن يغترب يحسب عـدوّاً صـديقـه ومن لا يكرّم نفســـــه لا يكرّم
ومهما تكن عنـد امرئ من خليقـة وإن خـالهـا تخفى على النـاس تعلم
وكائن ترى من صـامت لـك معجب زيـادتـه أو نقصـه في التكلم
لسـان الفتى نصف ونصف فـؤاده فلم يبـق إلا صـورة اللحم والـدم
وإن سفـاه الشيـخ لا حلم بعـده وإن الفتى بعـد السفـاهـة يحلم
سألنـا فـأعطيتم وعـدنـا فعـدتم ومن أكثر التسـآل يـومـاً سيحرم

وجاء في معجم البلدان (368/4 وبعدها) أن خالـد بن الوليـد حين فتح الحيرة ، دخل دير هند بنت النعمان بن المنذر المعروفة بالحرمة ، فوجـدهـا وقـد أسنّت ، فقـال لها : أخبريني بشيء أدركت . فقالت : ما طلعت الشمس بين الخورنق والسدير إلا على ما هو تحت حكمنا فما أمسى المساء حتى صرنا خولاً (خدماً) لغيرنا ، ثم أنشأت تقول :

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا ... إذا نحن منها سوقة نتنصّف
فتبّاً لدنيا لا يدوم نعيمها ... تقلّب تارات بنا وتصرّف إ.هـ

وهناك في دير هند الصغرى آثار قبر النعمان ، أما دير هند الكبرى وهو على طرف النّجف ففية مسلّة عالية كتب عليها :

إن بني المنذر عام انقضوا ... بحيث شاد البيعةَ الراهب
تنفح بالمسك ذفاريهم ... وعنبر يقطبه القاطب
والقزّ والكتّان أثوابهم ... لم يجب الصوفَ لهم جائب
والعزّ والملك لهم راهن ... وقهوة ناجودها ساكب
أضحوا وما يرجوهم طالب ... خيراً ولا يرهبهم راهب
كأنهم كانوا بهم لعبةً ... سار إلى أين بها الراكب
فأصبحوا في طبقات الثرى ... بعد نعيم لهم راتب
شرُّ البقايا من بقى بعدهم ... قلٌّ وذلٌّ جدُّه خائب إ.هـ

أما حكمة أحيحة بن الجلاح ، فهي خاصة بالمال ، فقد وجد بعد طول تجربة أن المال عند الناس مفتاح لأكثر مغالقهم !!

استبقِ مالك لا يغررك ذو نشب ... من ابن عم ولا عم ولا خال
فلن أزال على الزوراء أعمرها ... إن الحبيب على الإخوان ذو مال
كل النداء إذا ناديت يخذلني ... إلا ندائي إذ ناديت يا مالي[27]

وميزة الحكمة أنها تعبّر عن تجربة الشاعر مع الناس والزمن ، أو عن رغبة الناس في سماع نصائح ذات منحى معين ، وقد يجد الشاعر جمهوراً عريضاً مثلاً في وقت لضرب

---

(27) البصري . الحماسة البصرية 42/2 ق 108 .

من الحكمة ولا يجده في الوقت الآخر ، فأيام الحرب لها حكمها وأيام السّلم لها حكمها أيضاً ، أما المثقب العبدي فإن حكمته تمثل فلسفته الأخلاقية في الحياة :

لا تقولن إذا ما لم ترد ... أن تتم الوعد في شيء (نعم)
حسنٌ قول (نعم) من بعد (لا) ... وقبيح قول لا بعد نعم
إن لا بعد نعم فاحشةٌ ... فبـ (لا) فابدأ وإن خفت الندم
فإذا قلت نعم فاصبر لها ... بنجاح القول إن الخلف ذم
واعلم أن الذَّمّ نقص للفتى ... ومتى لا يتّق الذّم يذم
أكرمُ الجارَ وأرعى حقّه ... إن عرفانَ الفَتى الحقّ كرم
لا تراني راتعاً في مجلس ... في لحوم الناس كالسَّبع الضّرم
إن شرَّ الناسِ من يكشر لي ... حين يلقاني وإن غبتُ شتم
وكلامٍ سيئٍ قد وقَرت ... أذني عنه وما بي من صمم
فتعزَّيتُ خشاة أن يرى ... جاهل أني كما كان زعم
ولبعضُ الصفح والإعراض عن ... ذي الخنا أبقى وإن كان ظلم
إنما جاد بشأسٍ خالدة ... بعدما حاقت به إحدى الظلم
من منايا يتخاسينَ به ... يبتدرن الشخص من لحم ودم
مترع الجفنة ربعي الندى ... حَسَن مجلسه غيرُ لُطم
يجعل الهنّ عطايا جمةً ... إن بعض المال في العرض أمَم
لا يبالي طيبُ النفس به ... تلفَ المال إذ العرض سلم
أجعل المال لعرضي جُنّةً ... إن خيرَ المال ما أدى الذمم[26]

وقد جعل الأمير أسامة بن منقذ باباً في لباب الآداب أسماه (باب في الحكمة) نقتبس منه نتفاً من الشعر الجاهلي الذي قيل في الحكمة :

(28) المفضّليات . رقم 77 ، ص 293 وبعدها .

1 ـ قال شاعر قديم :

وكيف تريد أن تدعى حكيماً وأنتَ لكلّ ما تهوى ركوب

2 ـ قال عمرو بن معديكرب :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

3 ـ قرئ على باب مقبرة :

ربَّ قوم قد غنوا في نعمة برهةً والدهر ريّانُ غدق
صمت الدهرُ زماناً عنهم ثم أبكاهم دماً حين نطق

4 ـ قال لبيد :

وأكذبِ النّفس إذا حدّثتها إن صدقَ النّفس يزري بالأمل

5 ـ سمع كعب الأحبار رجلاً ينشد للحطيئة بيتاً في الحكمة فقال : والذي نفسي بيده إن هذا مكتوب في التوراة (!!) :

من يفعل الخيرَ لا يعدم جوازيه لا يذهب العرفُ بين الله والناس

6 ـ قال تميم بن مقبل (مخضرم) :

لا يُحرز المرءَ أحجاءُ البلاد ولا تُبنى لها في السماوات السلاليم
ما أطيب العيشَ لو أن الفتى حجرٌ تبنو الحوادث عنه وهو ملموم

7 ـ قال أبو ذؤيب الهذلي :

والنفس طامعة إذا رغّبتها وإذا تردُّ إلى قليل تقنع

8 ـ وقال المرقش الأصغر :

فمن يلقَ خيراً يحمد الناسُ أمره ومن يغوَ لا يعدم على الغي لائما

9 ـ قال طرفة بن العبد :

ستبدي لك الأيامُ ما كنت جاهلاً ويأتيكَ بالأخبار من لم تزوّد

10 ـ قال النابغة الذبياني :

ولستَ بمستبـق أخـــاً لا تَلُمُّـــه على شعث أيُّ الرجـال المهـذّب[29]

ويمكن القول أن الأعشى حال متميزة في صناعة شعر الحكمة ، فهو يصوغ تجربته من حاصل مزج بين زمنه الحاضر وزمن الناس الغابر ، بين السعادة والشقاء ، والمثال الجميل والواقع الخشن ، ضارباً الأمثلة برموز تاريخية قادرة على تعزيز رؤيته للحكمة ، وهو الشيخ المتصابي قارن :

أرقتُ ومـا هـذا السّهـاد المـؤرّق ومـا بي من سقم ومـا بي معشـق
ولكن أراني لا أزال بحـــادث أغـادي بمـا لم يمسّ عنـدي وأطرق
فـإن يمس عنـدي الشيبُ والهم والعشى فقـــد بنّ مني والسـلام تغلّـق
فمـا أنت إن دامت عليـك بخـالـد كما لم يخلـد قبـل سـاسـان ومورق
وكسرى شهنشاهُ الـذي سار ملكه لـه مـا اشتهى راح عتيق وزنبـق
ولا عـاديـا لم يمنع الموتَ مـالُـه وحصنٌ بتيمـاء اليهـوديّ أبلـق
بنـاه سليمـانُ بن داود حقبـةً لـه أزجٌ عـال وطيٌّ مـوثـق
يـوازي كبيـداءَ السماء ودونـه بـلاطٌ ودارات وكلس وخنـدق
لـه درمـكٌ في رأسـه ومشـارب ومسـكٌ وريحـان وراح تصفّـق
وحـورٌ كأمثـال الـدُّمى ومنـاصف وقِـدر وطبّـاخ وصـاع وديسـق
فـذاك ولم يعجـز من الموتِ ربـه ولكن أتـاه الموت لا يتـأبـق
ولا الملـك النعمانُ يـوم لقيتـه بـإمتـه يُعطي القطوطَ ويـأفق
ويجبى إليهـا السيلحـونَ ودونهـا صريفـونَ في أنهارهـا والخورنَـق
ويقسم أمرَ النـاس يـومـاً وليلـة وهم سـاكتـون والمنيـة تنطـق
ويـأمر لليحمـوم كلَّ عشيـة بقتٍّ وتعليـق وقـد كاد يسنـق
يُعـالى عليـه الجـلّ كل عشيـة ويرفـعُ نُقـلاً بـالضحى ويعرّقُ

(29) ابن منقذ . الأمير أسامة ت 584 . لباب الآداب ص 420 ، طب دار الكتب العلمية ، بيروت 1980 .

فـذاك ومـا أنجى من الموت ربَّـه ... بسـابـاط حتى مـات وهـو محرزق
جماعُ الهوى في الرشد أدنى إلى التقى ... وترك الهـوى في الغي أنجى وأوفـق
إذا حـاجـة ولتـك لا تستطيعهـا ... فخـذ طرفاً من غيرهـا حين تسبق
فـذلـك أدنى أن تنـالَ جسيَهـا ... وللقصـــدُ في المسير والحـقُ[30]

ثم قارن للأعشى أيضاً :

بـانت سعـادُ وأمسى حبلُها انقطعـا ... واحتلَّت الغمْرَ فـالجـدَّين فـالقرعـا
وأنكرتني ومـا كان الـذي نكرت ... من الحـوادث إلا الشيبَ والصلعـا
قـد يتركُ الـدهرُ في خلقـاءَ راسيـة ... وهيـا وينزلُ منهـا الأعصمَ الصَّدعـا
بانت وقد اسأرت في النفس حاجتها ... بعـد ائتلاف وخيرُ الودّ مـا نفعـا
وقـد أرانـا طِـلابـاً همَّ صـاحبـه ... لـو أن شيئـاً إذا مـا فـاتنـا رجعـا
وكان شيءٌ إلى شيء ففرّقـــــه ... دهْرٌ يعـودُ على تشتيت مـا جمعـا
ومـا طِـلابُـك شيئـاً لستَ مـدركـه ... إن كان عنك غراب الجهل قـد وقعـا
تقـول بنتي وقـــد قرّبتُ مرتحـلا ... يا ربِّ جنِّب أبي الأوصابَ والوجعـا
واستشفعت من سراة الحي ذا شرف ... فقـد عصـاهـا أبـوهـا والـذي شفعـا
مهـلاً بنيَّ فـــإن المرء يبعثـــه ... همٌّ إذا خـــالـــط الحيزومَ والضلعـا
عليـكِ مثـلُ الـذي صليتِ فـاغتمضي ... يـومـاً فـإن لجنب المرء مضطجعـا
واستخبري قـافلَ الركبـانِ وانتظري ... أوبَ المسافر إن ريثـاً وإن سرعـا
كـوني كمثـل التي إذ غـاب وافـدهـا ... أهـدت لـه من بعيـد نظرة جـزعـا
ولا تكـوني كمن لا يرتجى أوبـــةً ... لـذي اغتراب ولا يرجـو لـه رجعـا
مـا نظرت ذاتُ أشفـار كنظرتهـا ... حقّـاً كما صـدق الـذئبي إذ سجعـا
وقلّبت مقلـــةً ليست بمقرفـــة ... إنسـانَ عين ومـؤقـاً لم يكن قمعـا

(30) ديوان الأعشى ، ق 33 ، ص 267 وبعدها . ومعاني الكلمات والأبيات مبثوثة في الهوامش فاقتضت الإشارة .

قـالت أرى رجـلاً في كفـه كتف ... أو يخصف النعـل لهفي أيـةً صنعـا
فكـذبـوهـا بمـا قـالت فصبّحهم ... ذو آل حسّان يُزجي الموت والشرعا
فـاستنزلـوا أهـل جـوّ من مسـاكنهم ... وهدّموا شاخص البنيان فاتضعا[31]

11 ـ الدين

الشعر الديني واقع ماثل ، تشهد لـه نصوص الشعر الجـاهلي وأهميتهـا كمّـاً ونوعـاً ، وقد تهيأ لنا أن نضع هـذا الغرض رغم صعوبـة إقحـامـه وتواضع الـدارسين على أن الشعر الديني كان ضعيفاً ، وربما كان منحولاً .. والذي نراه أن الشعر الديني ليس فرضية دون أساس أو قاعدة دون أمثلة ، فلقد كان الشعور الديني قويّاً لدى الجـاهليين . ومعلوم أن اصطناع الأصنام لم يكن (تـاريخيـاً) معروفـاً عنـد العرب ، فقـد اصطنعهـا عمرو بن لحي قبيـل الإسـلام ، وجلبهـا من بـلاد الشـام ليتـاجر بهـا ، وليجرّب بضـاعتهـا في الأسـواق ، وحين انتشرت الأصنـام لم نجـد من كان يعبـدهـا ، وإنمـا كان الجـاهليـون يتقرّبون بها إلى الله سبحانه الذي لا شريك له ولا نـدّ ، وقـد ورد هـذا المعنى في القرآن الكريم .

ثمة شعراء كانوا يدينون بالحنيفية ، وقد شوهد زيد بن عمرو بن نفيل يبكي عنـد الكعبـة ويلطم وجهه قبيل المبعث النّبوي ويقول : يا قوم لم يبق على دين إبراهيم أحد غيري .

وثمة الشعراء اليهود مثل السموءل الذي يقول :

إن امرأ أمِن الحـوادثَ جـاهـلٌ ... يرجـو الخلـودَ كضـارب بقـداح
من بعـد عـاديٍّ الـدهـور ومـأرب ... ومقـاولٍ بيض الـوجـوه صبـاح
مرّت عليهم آفـة فكأنهـا ... عفّت على آثـارهم بمتـاح
يـاليت شعري حين أنـدب هـالكاً ... مـاذا تـؤبنني بـه أنـواحي[32]

(31) ديوان الأعشى . ق 13 ، ص 151 وبعدها .
(32) ديوانا عروة والسموءل بن عاديا ص 86 .

وثمة شاعر اسمه (سعية بن العُرَيض اليهودي) انفرد بالأصمعية رقم (22) ، وهو كما يقول أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون محققا المفضّليات : « شاعر متقدّم مجيد ، وهو من بني بهدل » قال سعية :

ألا إني بليتُ وقد بقيتُ ... وإني لن أعودَ كما غنيت
وأجتنبُ المقاذعَ حيث كانت ... وأترك ما هويت لما خشيت إ.هـ

ويبدو أن اليهود كانوا يبشّرون بدينهم ، وكانوا يستثمرون حاجة الجاهليين للخمرة فيقدّمونها لهم ، ثم يدعونهم إلى اليهودية ، إلا أن طبيعة العربي لا تنسجم مع الطقوس اليهودية .. المرقش الأكبر

ثوت في سباء الدنّ عشرين حجة ... يطانُ عليها قرمد وتروّح
سباها رجالٌ من يهود تباعدوا ... لجيلانَ يدنيها من السوق مربح[33]

وقال الأعشى :

وصهباءَ طاف يهود بها ... وأبرزها وعليها خُتم[34]

وقد أنشد المفضل لشاعر يهودي جاهلي قصيدة بائية احتازت رقم (37) ، وفيها حديث عن القضاء والقدر ، فقد يخطب الرجل امرأة ويتزوج غيرها ، وقد ينال مناه الرجل غير الذكي ، ويعجز الرجل الأريب ، كل شيء له (آمرٌ قادرٌ) :

سلا ربةَ الخدر ما شأنها ... ومن أيّ ما فاتنا تعجبُ
فلسنا بأوّل من فاته ... على رِفقه بعضُ ما يطلب
فكائن تضرّع من خاطب ... تزوّج غير التي يخطب
وزوجها غيرُه دونه ... وكانت له قبلةُ تحجب
وقد يدرك المرءُ غير الأريب ... وقد يصرَعُ الحوّلُ القلّبُ

(33) المفضّليات . رقم 55 . ص 242 .
(34) ديوان الأعشى . ق 4 . ص 85 . ب 10 .

ألم ترَ عُصْم رؤوس الشظـــــا إذا جـاءَ قـانِصُهـا تُجلب
إليـه ومـا ذاك عن إربـةٍ يكـون بهـا قـانص يـأرب
ولكن لهـــا آمرٌ قـــادر إذا حـــاول الأمر لا يغلب[35]

يقول الأستاذ عبد الله سالم مليطان : « أشارت كثير من المصادر التاريخية إلى استيطان اليهود في أنحاء مختلفة من الجزيرة العربية شمالاً وجنوباً ، واتّخاذهم من يثرب وفدك وخيبر ووادي القرى وتيماء منازل لهم وهم عدة قبائل منهم بنو عكرمة ، وبنو ثعلبة ، وبنو محمر ، وبنو زعورا ، وبنو قنيقاع ، وبنو زيدة ، وبنو النضير ، وبنو قريظة ، وبنو بهدل ، وبنو عوف ، وبنو القصيص ، وبنو ماسلة . وكان لهذه القبائل من الناحية العقلية والدينية وضع معين قبل بعثة النّبي ﷺ وهجرته إلى يثرب ، فهم أهل كتاب استطاعوا بميراثهم الديني والثقافي أن يكتسبوا نوعاً من الوجاهة الفكرية بين العرب ، بما لديهم من قصص الأنبياء والملوك الأقدمين وحكايات بدء الخليقة .. »[36] .

أما الشعراء النصارى فكان عددهم غير قليل في العصر الجاهلي ، حتى إن الأب لويس شيخو صنع كتاباً لإحصاء عددهم وتوثيق قصائدهم[37] ، أما الشعراء الأحناف فقد وجدوا من يعنى بأفكارهم وتقاليدهم وقصائدهم من الباحثين العرب ، فقد أنجز الدكتور يحيى الجبوري بحثاً في حركة الأحناف[38] ، وأنجز الدكتور عادل البياتي بحث في شعر الأحناف[39] ، وقد ذكر أمية بن أبي الصلت (دين الحنفية) :

---

(35) المفضليات . ق 37 . ص 179 وبعدها .

(36) مليطان . عبد الله سالم . التفكير الأسطوري في الإسرائيليات ص 65 وبعدها . طب دار مداد . ليبيا 1998 .

(37) شيخو . لويس . شعراء النصرانية ، مط الكاثوليكية ـ لبنان 1990 .

(38) الجبوري . د . يحيى . حركة الأحناف في الجاهلية ، مجلة المعارف عدد 9 ، أيلول (سبتمبر) 1962 ص 53 .

(39) البياتي . د. عادل . شعر الأحناف / دراسة وتحليل مجلة آداب المستنصرية العدد 5 سنة 1980 .

إن آيات ربّنا باقياتٌ ... ما يماري فيهنّ إلا الكفور
خلق الليلَ والنهار فكلٌّ ... مستبينٌ حسابه مقدور
ثم يجلو النهار ربٌّ كريمٌ ... بهاةٍ شعاعُها منشور
حبس الفيل بالمغمّس حتى ... ظل يحبو كأنه معقور
حوله من ملوك كندة أبطا ... لٌ ملاويثُ في الحروب صقور
خلّفوه ثم ابذعرّوا جميعاً ... كلهم عَظْمُ ساقه مكسور
كلُّ دين يوم القيامة عند الله إلا دين الحنفية زور[40]

وقد عرف أمية بن أبي الصلت بالتزامه الديني ، فهو في شعره يدعو إلى الإيمان بالله ، والتّفكّر في خلق السماوات والأرض ، حتى ليمكننا القول : إن جلّ ديوانه يدور حول المعاني الدينية الشائعة في العصر الجاهلي ، قارن للمثال قوله :

والأرضُ نوّخها الإله طروقةً ... للماء حتى كلُّ زند مُسْفَد
والأرض معقلنا وكانت أمّنا ... فيها مقابرنا وفيها نوأد
فبنى الإله عليهم مخصوفة ... خلقاء لا تبلى ولا تتأوّد
فأتمّ ستّاً فاستوت أطباقها ... وأتى بسابعةٍ فأنى تورد
كزجاجة الغسول أحسن صنعها ... لما بناها ربّنا يتجرّد
لمصفّدين عليهم صاقورة ... صماءُ ثالثة تماعُ وتجمد
فيها النجوم تطيع غيرَ مراحة ... ما قال صدّقها المليك الأرشد
رسخ المها فيها فأصبح لونها ... في الوارسات كأنهنّ الأثمد
شدّ القطوع على المطايا ربنا ... كلٌّ بنعماء الإله مقيّد
ملك على عرش السماء مهيمن ... تعنو لعزته الوجوه وتسجد
والشهر بين هلاله ومحاقه ... أجلٌ لعلم الناس كيف يعدّد

(40) ابن أبي الصلت . أمية . شرح ديوانه . طب مكتبة الحياة ، بيروت ، تح الأخوين كاتب : سيف الدين وأحمد عصام . ص 47 .

لا نقص فيــه غير أن خبيئــه قمر وســاهــور يُســلُّ ويغمــد
مستخفياً وبنـات نعش حولـه وعن اليمين إذا يغيب الفرقـــد
والشمس تطلـع كل آخر ليلــة حمراءَ يصبـح لـونهـا يتـورّد
لا تستطيـع بـأن تقصّرَ سـاعــة وبـذاك تـدأبُ يـومهـا وتشرّد
ولسـوف ينسى مـا أقـول معـاشر ولسوف يـذكره الـذي لا يزهـد
فــاغفر لعبــد إن أول ذنبــه شربٌ وأيسـارٌ يشـاركهـا دد[41]

ونقل المسعودي : أنه قدم على النّبي الأمين ﷺ وفـد قبيلـة إيـاد فسـألهم عن قس فقالوا : هلك يا رسول الله ، فقال : رحمه الله كأنني أنظر إليه بسوق عكاظ على جمل له أحمر ، وهو يقول : أيها الناس اجتمعوا واسمعوا وعوا من عاش مات ، ومن مات فـات ، وكل ما هو آتٍ آت .

أما بعد : فـإن في السماء لخبراً وإن في الأرض لعبراً ، نجوم تمور ، وبحـار تغور ، وسقف مرفوع ، ومهاد موضوع ، أقسم قسّ بالله لا حانثـاً ولا آثمـاً إن لله ديناً هو أرضى من دينٍ أنتم عليه ، ما لي أراهم يذهبون ولا يرجعون ؟ أرضوا بالمقام فأقاموا ؟ أم تركوا فنـاموا ؟ سبيل مؤتلف وعمل مختلف ... وقال أبياتاً لا أحفظها فقام أبو بكر رضي الله عنه وأنشدها :

في الــــذاهبين الأولين من القرون لنـــــا بصـــــائر
لمـــــا رأيتُ مـــــوارداً للمـوت ليس لهـا مصـادر
ورأيت قـومي نحـوهـــا تمضي الأوائـــل والأواخر
لا يرجـع المـــاضي ولا يبقى من البـاقين غـابر
أيقنت أني لا محـــالـــة حيث صـار القـوم صـائر !

فقال رسول الله ﷺ : « رحم الله قسّاً إني لأرجو أن يبعثه الله أمة وحده »[42] .

(41) المصدر نفسه . ص 27 وبعدها .

(42) المسعـودي . أبـو الحسن علي بن الحسين ت 306 . مروج الـذهب 83/1 . تـح محمـد محي الـدين عبد الحميد . طب السعادة . مصر 1964 .

وكان زهير بن أبي سلمى متألهاً ، يرى قدرة الله في كل شيء يراه وهو يرى آيات الله ويتمنى أن يراها الناس مثله !!

ألا ليت شعري هل يرى الناس ما أرى ... من الأمر أو يبدو لهم ما بدا ليا
بدا لي أن الناسَ تفنى نفوسُهم ... وأموالُهم ولا أرى الدهر فانيا
وإني متى أهبط من الأرض تلعة ... أجد أثراً قبلي جديداً وعافيا
أراني إذا مـا بتُّ على هوى ... فثَمَّ إذا أصبحت أصبحت غاديا
إلى حفرة أهوي إليها مقيمةٍ ... يحثُّ إليها سائقٌ من ورائيا
كأني وقد خلفت تسعين حجة ... خلعتُ بها عن منكبيَّ ردائيا
بدا لي أني عشت تسعين حجة ... تباعاً وعشراً عشتها وثمانيا
بدا لي أن الله حقٌّ فزادني ... إلى الحقّ تقوى الله ما قد بدا ليا
بدا لي أني لستُ مدركَ ما مضى ... ولا سابقي شيءٌ إذا كان جائيا
وما إن أرى نفسي تقيها كريمتي ... وما إن تقي نفسي كريمة ماليا
ألا لا أرى على الحوادث باقياً ... ولا خالداً إلا الجبالُ الرواسيا
ولا السماءَ والبلادَ وربّنا ... وأيامنا معدودة والليالياً
أراني إذا ما شئتُ لاقيت آية ... تذكّرني بعض الذي كنت ناسيا
ألم تر أن اللهَ أهلكَ تبّعاً ... وأهلك لقمان بن عاد وعاديا
وأهلك ذا القرنين من قبل ما ترى ... وفرعون أردى جنده والنجاشيا
ألا لا أرى ذا إمّةٍ أصبحت به ... فتركه الأيامُ وهي كما هيا
ألم تر للنعمان كان بنجوة ... من العيش لو أن امرأ كان ناجيا
فغيَّر عنه رُشد عشرين حجة ... من الدهر يومٌ واحدٌ كان غاويا
فلم أرَ مسلوباً له مثلَ قرضه ... أقلَّ صديقاً معطياً ومواسيا[43]

(43) شرح شعر زهير بن أبي سلمى . ق 23 . ص 207 وبعدها .

وقال لبيد العامري :

بلينا وما تبلى النجومُ الطوالع ... وتبقى الجبالُ بعدنا والبلاقع
وقد كنت في أكناف جار مضنّة ... ففارقني جار بأربد نافع
فلا جزعٌ إن فرّق الدهرُ بيننا ... وكل فتى يوماً به الدهر فاجع
فلا أنا يأتيني طريفٌ بفرحة ... ولا أنا مما أحدث الدهر جازع
وما الناس إلا كالديار وأهلها ... بها يوم حلّوها وغدواً بلاقع
وما المرء إلا كالشهاب وضوؤه ... يحورُ رماداً بعد إذ هو ساطع
وما البرّ إلا مضمرات من التقى ... وما المال إلا معمراتٌ ودائع
وما المال والأهلون إلا وديعة ... ولا بد يوماً أن تُردّ الودائع
أليس ورائي إن تراخت منيتي ... لزومُ العصا تحنى عليها الأصابع
أخبّر أخبارَ القرون التي مضت ... أدبّ كأني كلما قمت راكع
فأصبحتُ مثل السيف غيّرَ جفنه ... تقادُمُ عهد القين والنصل قاطع
فلا تبعدن إن المنية موعدٌ ... عليك فدانٍ للطلوع وطالع
أتجزعُ مما أحدث الدهرُ بالفتى ... وأيُّ كريم لم تصبه القوارع
لعمرك ما تدري الضوارب بالحصى ... ولا زاجرات الطير ما الله صانع
سلوهنّ إن كذبتموني متى الفتى ... يذوق المنايا أو متى الغيث واقع[44]

هذه الأمثلة وسواها تعزز القول بأن الشعر الديني غرض مهم من أغراض الشعر الجاهلي ، حتى إن جلّ الشعراء الجاهليين قالوا فيه شعراً .. ولك أن تلاحظ الميل لتأمل الحياة والموت والزمن ، وكثرة الأيمان بلفظ الجلالة ، وقد غيّب أصحاب نظرية الشك هذا الفن ، وقالوا : إن الشعر الذي يدخل في خانة الدين ضئيل ، ثم اكتشفوا أنه كثير وكثير جداً .. فبدّلوا تأويلاتهم وقالوا : إنه منحول وفيه صبغة إسلامية !!

---

(44) ديوان لبيد العامري . ق 30 . ص 66 وبعدها .

12 ـ الوصف :

وهو فن الفنون الشعرية ، وهل الشعر سوى الوصف ؟ وصف المشاعر ، والمشاهد البصرية ، والأصوات ، وجمهور الشعر في رأينا كان يوازن بين الشعراء ويفاضل استناداً إلى معيار الوصف ، الشعر الجاهلي شعر وصف ، وأسمّي شعر الوصف شعر الصورة ، فإذا أفرغت القصيدة من الصورة فكأنك أفرغتها من المعنى والمبنى ، فهذه الثنائية قائمة على الصورة ، وقد شهر عدد من الشعراء بالوصف الذي اختصّ به ، امرؤ القيس والأعشى ، وصفا المرأة ، ونوادي اللهو ، وعامر بن الطفيل برع في وصف الفرس ، وعنترة برع في وصف الحرب ، والصعاليك برعوا في وصف الصحراء والذئاب ، والشعراء السود برعوا في وصف مشاعرهم الحزينة بسبب من نظرة الاحتقار التي يواجههم بها البيض والسادة ، وقيل في تسمية المرقّش : إنه كان يرقّش شعره أي ينمّقه ، وأهم حالات الوصف وأجملها مبثوثة في المعلقات ، حتى قيل : إن أهم ما ميّز المعلقات وفوّزها هو الوصف الدقيق الجميل المبتكر ، بل إن معلقة لبيد : (عفت الديار) لا تحمل همّاً حقيقيّاً سوى همّ الوصف ، فلا هي في الغزل ، ولا الرثاء ، ولا الفخر ، ولا ولا .. وإنما هي مكرّسة للوصف .

نعم تضمّنت بعض الأغراض الجزئية ، ولبثت تلك الأغراض جزئية وغائمة وظهر الوصف سيد الشعرية في المعلقة ! أما أهم الصور التي شغلت الشعر الجاهلي بوصفها فهي :

المرأة ، الأطلال ، الأنواء ، الناقة ، الفرس ، السلاح ، الحرب ، الحيوانات ، الصحراء ، الينابيع ، الرحلة ، الفارس ، الفصول الشتاء والصيف والربيع والخريف ، الأشجار القلاع والحصون والقصور ، الأسواق ، الملابس .

وحين يستقرئ دارس الشعر الجاهلي أساليب الشعراء في الوصف ، فإنه سيفاجأ بأن عدداً من الأساليب تقاربت ثم تشابهت ، ثم تداخلت ، فشكّلت قالباً يمكن

تـأشيره ، وهو مـا نسمّيـه السلوك الوصفي في القصيـدة الجـاهليـة ، وقولنـا هـذا لا يعني إطلاقـاً كلّ الشعر الجـاهلي ، وإنمـا هو ينصرف إلى الجـل أو الكم الـذي يشكّـل ظـاهرة فنّية .. وها نحن أولاء نشرّح نموذجاً مفترضاً للقصيدة الجاهلية .

1 ـ يبدأ الشاعر ببيت مصرّع لاستثمـار طـاقتـه النغميـة ، ونجـاح القصيـدة يبـدأ بالبيت الأول !!

2 ـ يقف على الأطلال ؛ وهي الآثار التي بقيت من بيت الحبيبة والأثاث المستغنى عنه من ملابس قديمة ممزّقة وأخفاف من الجلد ، وبعر الحيوانات وفضلاتها ، والحجـارات الثلاث التي يستقر عليها القدر ، وبعض الرماد والخشب ..

3 ـ يبكي الشاعر من هول ما يرى ، وربما طلب من أصدقائه مشاركته في البكاء .

4 ـ يسأل الشاعر الأحجار والآثـار عن الحبيبـة ، وأين اتجهت ؟ وكيف حـالهـا ، ويعجب لأن سؤاله يعود إليه صدى فالأحجار لا تجيب ..

☆ أحياناً يكون الشاعر شاهداً على رحلة الحبيبة ، فيقف وراء الكثبـان أو سمرات الحي (الأشجار) وينظر إلى أهلها يضعون الأحمال فوق الإبل فيتجرّع العلقم .

5 ـ يستعيـد الشـاعر شريـط الـذكريـات ، من خـلال قـوالب تعبيريـة من نحـو (ألا رُبَّ) (وقد) (ويوم) .. إلخ . فيتذكّر لقاءاتـه مع الحبيبـة ، وعيون الكاشحين والحاسدين والحرس الذين يحيطون بـالحي أو البيت .. وكيف أنـه يستغل الظلام ونوم النـاس للوصول إليهـا .. وربمـا استغلّ العواصف والـزمـازم والأمطـار ، ويجري حـواراً معها ، فهي تخاف عليه من القتل وتخاف على نفسها من الفضيحة ..

6 ـ يصف الشاعر ملابسها وجسدها ، وريقها ، وصوتها ، وشعرها ، ورقّتها .

7 ـ يأسى الشاعر لذهاب ذلك العهـد ، وذهـاب شبـابـه معـه ، ويتيقن أن ذلـك العهد لن يعود مهما ذرف من الدمع ..

8 ـ ينتفض الشاعر ويزجر نفسه وينهاها عن التَّذكُّر والحنين والبكاء بعبارات مثل : (دع ذا) (عدّ) (اصرّم) (إنسَ) ..

9 ـ ويجعل السفر بديلاً للبكاء .. وتكون الناقة محور اهتمامه فيصف قوتها وهزالها من شدة السفر وصبرها وأنها ناقة أمون تشبه قنطرة الرومي ، أو بناء الصيدلاني أو القصر ، أو الكثيب ، أو التابوت .

10 ـ فجأة يشبه ناقته بحيوان مثل الظلم ، أو القطاة ، أو ثور الوحش ، أو بقرته ، أو حمار الوحش ، أو أتانه ، أو الظبية ، ولنأخذ ثور الوحش مثلاً ، فهو المشبه به للناقة ، يمشي بين أبقار جميلات كأنهن نساء ، ويطردهن حين ينحرفن عن السبيل بجوافره ، ويطرد عنهن أي ثور آخر متطفل فهو غيور عليهن غيرة الرجل على نسائه ، والأبقار يطعن ثور الوحش لأنه الفحل الوحيد ، المكتمل ، الذكي ، القوي ، وهو الذي سيقودهن إلى النَّبع .

11 ـ الطريق إلى النبع طويلة ومحفوفة بالمخاطر ، ولكن الثور وأبقاره لا يبالون بذلك ، فعطشهم أنساهم التعب من أجل الماء .

12 ـ يصلون إلى الماء ، فإذا بصياد ماكر مختبئ وراء شجرة أو أحجار ، يطلق كلابه المطوّقات باتّجاه الثور فقط ، فتهرب الأبقار حتى تنجو من الهلاك والمكيدة ، وتترك الثور وحيداً .

13 ـ يسلّم الثور بالواقع ، ويتهيأ للمعركة غير المتكافئة ، فالكلاب مدرَّبات ، وجائعات ، وضاريات ، قسم ينهش قفاه ، وآخر ينهش صدره ، وثالث يرتقي ظهره ، ورابع يغرز مخالبه في عيون الثور .

يقول الجاحظ (ت 255 هـ) إن القصيدة إذا كانت في المديح فإن الثور ينتصر ويقتل أحد الكلاب فتفرُّ البقية ، ويسلّم الصياد بالهزيمة ، وإن كانت القصيدة في الرثاء فإن الكلاب هي التي تقتل ثور الوحش .

☆ نتلبث عند قصيدة المديح ..

14 ـ ينتصر الثور ، ولكن الليل يداهمه فلا يدري موقع النبع ولا في أي مكان تبيت أبقاره ، فيشعر بالوحشة والخوف من الليل وتبدأ جراحه بالنزف فيتألم ولكنه لا يبالي .

15 ـ ثم ينهمر المطر ، وتشتعل السماء بالبرق ، فيبدو الثور حين يسطع عليه البرق لثوان مثل كوكب .. وتبدأ سيول الماء ..

16 ـ يتلمس الثور طريقه ويختار مكاناً مرتفعاً ينقذه من سيول الماء .. ويستقر تحت أرطاة (شجرة) لتمنع عنه المطر .. ويلبث على حاله حتى يطل الصباح .

17 ـ تشرق الشمس وكأن الثور يحلم بالنبع حين تضاء الطبيعة وبالعثور على أبقاره ، ولسوف يساعدهن .. لكنه ويا للأسف يرى وهو بتمام وعيه صياداً آخر مع كلابه ، وتدور معركة أخرى أشد ضراوة .. ولسوف ينتصر الثور فيها هذه المرة لأن القصيدة في المديح .

18 ـ يكتفي الشاعر بهذا المقطع ويقول بمثل هذا الثور شبهت ناقتي ، فكأن الشاعر قد جعل من الناقة معادلاً رمزياً للشاعر ، وما لاقته من الأهوال كناية عما لاقاه الشاعر من الأهوال ، وهو في طريقه إلى الممدوح ، فمثل هذه الصور تحرج الممدوح وتضطره لأن يدفع أكثر مما كان قد هيأه للشاعر .

وقد يرسم الشاعر صورة للصراع بين الحيوانات باعتدادها حالة مفردة لا علاقة لها بالنمط الذي وضعناه بين يدي الدرس .. وهذا زهير يشبّه ناقته بقطاة النبع ، ثم يدير صراعاً دموياً بين القطاة والصقر .. على هذا النحو :

كأنها من قطا الأجباب حان لها ... وِرد وأفرد عنها أختها الشبك
جونية كحصاة القسم مرتعُها ... بالسّيّ ما تنبتُ القفعاء والحسك

حتى إذا مـا هـوت كفّ الغـلام لهـا ... طـارت وفي كفّـه من ريشها بتـك
أهـوى لهـا أسفـع الخـدين مطّرقٌ ... ريشَ القـوادم لم تنصب لـه الشّرك
لا شيء أجـود منهـا وهي طيبـة ... نفساً بمـا سـوف ينجيهـا وتترك
دون السماء وفـوقَ الأرض قـدرهـا ... عنـد الـذنـابى فـلا فـوتٌ ولا درك
عنـد الـذنـابى لهـا صـوت وأزْملـة ... يكاد يخطفهـا طـوراً وتهتلـك
ثم استمرت إلى الـوادي فـألجـأهـا ... منـه وقـد طمع الأظفـار والحنـك
حتى استغـاثت بمـاء لا رشـاء لـه ... من الأباطـح في حـافـاتـه البَرك
مكلـل بـأصـول النجم تنسجـه ... ريح خريف تضاحي مائـه حبك
كما استغـاث بسيٍّ فـزّ غيطلـةٍ ... خـافَ العيونَ فلم ينظر بـه الحشك
فـزلّ عنهـا وأوفى رأس مرقبـة ... كمنصب الصقر دمّى رأسه النُّسك[45]

وقد مرّت بنا لوحات عديدة لصور الصراع بين المشبّه بـه للناقـة وكوكبـة الموت (الصيـاد وكـلابـه) ، وسنحـاول التقـاط بعض الصـور التي تفنّن فيهـا الشعراء ، وهم يرسمون المرأة وكأنها (موديل) ماثل أمامهم .. قال الأعشى :

يـا جـارتي مـا كنتِ جـاره ... بـانت لتحـزننـا عُفـاره
ترضيـــك من دلّ ومن ... حُسْن مخـالطـة غراره
بيضـاءُ ضحـوتُهـا وصفـ ... ـراءُ العشيـــةِ كالعرارة
وسبتـــكَ حين تبسّمت ... بين الأريكـةِ والستـارة
بقـوامهـا الحسن الـذي ... جمـع المـدادة والجهـاره
كتميّـل النشـوان لير ... فـل في البقيرة والإزاره
ويجيـد مغـزلـة إلى ... وجـه تـزيّنـه النضـاره
ومهـا ترفّ غروبـه ... يشفي المتيّم ذا الحراره
كـذرى منـوّر أقحـوا ... نٍ قـد تسـامـق في قراره

(45) شرح شعر زهير بن أبي سلمى ، ق 9 ، ص 131 وبعدها .

وغـــــدائرٍ ســـودٍ على كفـلٍ تـزيّنـه الـوثـاره
وأرتـك كفّـاً في الخضـا ب ومعصماً مـلء الجبـاره
وإذا تنـازعـك الحـديـ ث ثنت وفي النفس ازوراره
وتثيب أحيـانـاً فتَطـ ـمعُ ثم تـدركهـا الغراره
بتلتـــــك ثمتُ لم تنلـ ك على التجمل والوقـاره
.. إلا هـوانـــك إذ رأت من دونهـا بـابـاً وداره
ورأت بـأن الشيب جـا نبـه البشـاشـة والبشـاره
فـاصبر فـإنـك طـالمـا أعملت نفسك في الخسارة[46]

وقال الأعشى يصف امرأة حسناء يغار عليها زوجها :

وليس بمـانعهـا بـابُهـا ولا مستطيـع بهـا أن يطيرا
فبـانَ بحسنـاءَ برّاقـةٍ على أن في الطرف منهـا فتورا
مبتلّـة الخلـق مثـل المهـا ةِ لم ترَ شمسـاً ولا زمهريرا
وتبرد برد رداء العرو س رقرقت بالصيف فيه الصبيرا
وتسخن ليلـةَ لا يستطيـع نبـاحـاً بهـا الكلبُ إلا هريرا
ترى الخـزّ تلبسـه ظـاهراً وتبطن من دون ذاك الحريرا[47]

أما عمرو بن كلثوم الذي أنتج قصيدة غاضبة وبدأها على غير عادة الشعراء بأمر فج لنائمة بأن تهب وتسقيه كل الخمور ، ثم تركها قبل أن تلبّي رغبته ، وبطش بعدوه من خلال كلمات نارية ، هذا الشاعر لم ينس أن المرأة مركز القصيدة ، وأن الوصف عنوان المهارة فقال في المعلّقة ذاتها :

قفي قبـل التّفرّق يـاظعينـا نخبّرْك اليقين وتخبرينـا
بيـوم كريهـة ضربـاً وطعنـاً أقرّ بـه مـواليـك العيـونـا

(46) ديوان الأعشى ، ق 30 ، ص 203 وبعدها .
(47) نفسه . ق 12 ، ص 145 وبعدها .

قفي نسألك هل أحدثت صرماً ... لوشكّ البين أم خنتِ الأمينا
تريكَ إذا دخلت على خلاء ... وقد أمنت عيون الكاشحينا
ذراعي عيطل أدماءَ بكر ... تربّعتِ الأجارع والمتونا
وثدياً مثل حق العاج رخصاً ... حصاناً من أكفّ اللامسينا
ومتني لدنة طالت ولانت ... روادفها تنوء بما يلينا
ومأكمة يضيق البابُ عنها ... وكشحاً قد جننت به جنونا
فما وجدت كوجدي أم سقب ... أضلّته فرجّعتِ الحنينا[48]

(48) الشنقيطي . أحمد بن الأمين ت 1331 . المعلّقات العشر وأخبار شعرائها ، طب دار الكتب العلمية . بيروت 1997 .

الفصل التاسع

خصائص الشعر الجاهلي

الشعر الجاهلي نتاج عالي القيمة لمبدعين كبار ، استطاعوا بانتائهم للشعر والحياة معاً تأسيس تقاليد مهمة للشعر ، حتى اعتدت هذه التقاليد عمود الشعر وسبباً لشعريته (جاذبيته) ، ومن خرج عن هذه التقاليد فقد خرج على عمود الشعر ! أي خرج من الشعر ، ودخل في اللاشعر !!

أما عمود الشعر (شعريته وقوانينه) فهو أمرٌ لم يصطلح عليه الجاهليون ، وإن كانوا متمثّلين تماماً لاشتراطاته ، وربما قال شاعر لشاعر إذا أراد الانتقاص من قيمة شعره : « شعرك مثل خيمة بلا عمود » ، أو « إن شعرك خارج عن العمود » . ثم استقرأ علماء الشعر ... القصائد والمقطعات الجاهلية . ثم اتفقوا على ترسيم حدود هذا المصطلح .

« الواجب أن يتبيَّن ما هو عمود الشعر المعروف عند العرب ليتميَّز تليد الصنعة من الطريف وقديم نظام القريض من الحديث ، ولتعرف مواطئ أقدام المختارين فيما اختاروه ، ومراسم إقدام المزيفين على ما زيَّفوه ؛ ويعلم أيضاً فرق ما بين المصنوع والمطبوع ، وفضيلة الأتيّ السمح على الأبيّ الصعب » .

وهو سبع خصائص : شرف المعنى ، وصحته ، وجزالة اللفظ ، واستقامته ، والإصابة في الوصف ، والمقاربة في التشبيه ، والتحام أجزاء النظم والتئامها على تخيّر

من لذيذ الوزن ، ومناسبة المستعار منه للمستعار له ، ومشاكلة اللفظ للمعنى ، وشدة اقتضائها للقافية ، حتى لا منافرة بينها[49] .

ولم نجد اختلافات واضحة بين الدارسين في خصائص الشعر الجاهلي ومميزاته ، فأهم الخصائص والأصول أمر متفق عليه تقريباً ، أما الاختلاف في الترقيم والفروع والتقديم والتأخير فأمر لا بد من حدوثه ؛ لاختلاف الاجتهادات والمرجعيات والنوايا أيضاً !!

ومما لا شك فيه هو أن مبحث الخصائص يمثل بؤرة الدرس ، فهو تلخيص للفصول وتوصيف لطرائقها في التناول وتقعيد للشواهد والأمثلة ، فإذا عرفت خصائص الظاهرة أدركت أسبابها وآفاقها ، وثابتها ، ومتحولها !

الخصائص مبدأ وجودي وتربوي ! وعلى الإنسان معرفة خصائص نفسه وغيره ، وزمنه ، وأحبابه ، وأعدائه ، وإذا تعذّر عليه ذلك وقع في المحظور ، لكل خصائصه : الشعر ، والنثر الفني ، والغناء ، والحرب والسلم ، والرجال والنساء ، ولن يوفّق دارس الشعر الجاهلي مهما حذق وتمحّل إذا قفز فوق الخصائص ، وسوّغ لقرّائه ذلك ! أما خصائص الشعر الجاهلي فهي كثيرة وقد تتاهى (أحياناً) مع أغراضه وفنونه التي تكفّل بها المبحث الأول .. وها إننا مقبلون على رصدها :

1 ـ وحدة الإيقاع : تحتاز القصيدة الجاهلية مسوّغات بنائها من خلال التزامها بإيقاعاتها قبل أفكارها وصورها ، ولم يتسامح الشعراء ولا النُّقاد في شأن آلية الإيقاع ، ويبدأ الإيقاع بالبحر ، وقد وجد أن إيقاعات الطويل والكامل والبسيط اقتسمت أكثر من ثلثي الشعر الجاهلي ! أما كيفية اختيار الشاعر للبحر فهذا أمر لم يتضح بعد ، وكل ما قيل فيه يمثل فرضيات ليس أكثر ، ونفترض أن ذكاء الشاعر الحادّ كان عونه ودليله

(49) المرزوقي . أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن ت 421 . شرح ديوان الحماسة ص 8 وبعدها . نشر أحمد أمين وعبد السلام هارون ، مط لجنة التأليف ـ القاهرة 1967 .
وهبة مجدي . وكامل المهندس . معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ص 261 ، ط ب مكتبة لبنان . بيروت 1984 .

في انتقاء البحر الذي يناسبه ، مع أنه لا يعرف للبحور اسماً ! كل الذي يعرفه هو القوالب النغمية التي شاعت بعد شهرة عدد من القصائد ! ومن كلام الوليد بن المغيرة فهمنا أن العرب تميِّز الرجز من القصيد ، وأوّل البعض انتشار عدد من الإيقاعات الجاهلية أن هذه الإيقاعات مأخوذة من توقيع سير الجمل ، فإذا قطّع الناقد النغمي واحداً من تلك البحور اكتشف أن إيقاعات البحر موافقة لوقع خطى الناقة ، والرجز مثلاً كان حيلة قائد القافلة في حثّ الجمال على السير ، وربما السرعة ، وقد جعل الجاهليون مقابلات بين الأوزان (القوالب) وبين عدد من أنماط الغناء والحداء ، ثم تطور الأمر فصار للرثاء وزن ، وللحماسة وزن ، فالنصب غناء الركبان والفتيان ، ويقال له الجنابي اشتقه رجل من عصب اسمه جناب ، وهو يخرج من أصل الطويل ، أما السّناد فهو الغناء ذو الترجيع الكثير النغمات ، والهزج هو الغناء الخفيف الذي يصاحب الرقص[50] . « كان الشاعر يتقيَّد في قصيدته بالنغمة الأولى ، وما زالوا يصفّون في نغم القصيدة حتى استوى استواءً كاملاً ، سواء من حيث اتّحاد النغم أو اتّحاد القوافي وحركاتها ، وبرعوا في تجزئة الأوزان حتى يودعوا شعرهم كل ما يمكن من عذوبة ، وحلاوة موسيقية على نحو ما نلاحظ في رائية المنخل اليشكري »[51] .

وعرف الجاهليون الإقواء حتى اتّفق جمهور الشعر أن النابغة وبشر بن أبي خازم كانا يقويان !! وشاعت كلمات إيقاعية أخرى مثل : السند والإيطاء والإصراف ، وتدخل هذه المصطلحات تحت اسم الإكفاء[52] ، وجاء في اللسان (كفأ) : أكفأ في الشعر خالف بين ضروب إعراب قوافيه ، أو المخالفة بين هجاء قوافيه ، أو المخالفة بين

---

(50) زيدان . جورجي . تاريخ أداب اللغة العربية 55/1 ، وانظر ابن رشيق . العمدة 241/2 .

(51) ضيف . شوقي . العصر الجاهلي ، ص 227 ، وانظر :
المقالح . د . عبد العزيز . أصوات من الزمن الجديد ، ص 137 يرى الدكتور المقالح أن قوام الفنّ هو التصوير والموسيقى والرقص ويعتدها قواسم مشتركة بين البشر ..

(52) القيسي . د . نوري وصاحباه . تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام ، ص 135 .

هجاء قوافيه إذا تقاربت مخارج الحروف أو تباعدت . وقيل : إن الإكفاء هو الإقواء أو الفساد في آخر البيت . إ.هـ . أما وزن البيت فهو وفق هذا المخطط .

حشو + عروض = حشو + ضرب

والتصريع كان شائعاً أيضاً وهو :

حشو + عروض آخره حرف معين = حشو + ضرب آخره الحرف نفسه ، أي إن للبيت الواحد قافيتين متشابهتين الأولى نهاية العروض والأخرى نهاية الضرب !!

كما شاعت مفردتا الجناس والطباق ، فالجناس هو تشابه اللفظين في النطق مع اختلافهما في المعنى ، أما الطباق فهو الجمع بين الضدّين أو المعنيّين المتقابلين مثل (الحياة والموت والكرّ والفرّ) ، زد على ذلك إيقاعات التكرار ، فإذا كانت إيقاعات الجناس والطباق إيقاعات معنوية فإن إيقاعات التكرار معنوية ونغمية فقد يتكرر المعنى أو الجملة أو الكلمة أو الحرف ، والشعر الجاهلي مغتبط تماماً بالتكرار ، فلا تكاد تخلو قصيدة واحدة منه !

وينبغي أن تكتب القصيدة كاملة على بحر واحد ونسيج إيقاعي واحد ، كذلك القافية ، فإن القصيدة الجميلة هي التي تنتقي لخواتيم أبياتها قافية مأنوسة ، فإذا كانت غزلاً فالقوافي قريبة من العناء والمكابدة ، وإن كانت القصيدة هجاء أو فخراً أو توثيباً فقوافيها مجلجلة ، ولم تخرج القصيدة الجاهلية عن وحدة القافية إلا قليلاً ، وذلك القليل تمثّل في المسمّطات التي اصطنعها عدد من الشعراء بينهم امرؤ القيس : والسمط أن يبتدئ الشاعر ببيت مصرّع ثم بأربعة أشطر بقافية مختلفة ثم شطر بقافية البيت المصرّع الأول ! قارن امرأ القيس :

تـوهمتُ من هنـد معـالم أطـلال ... عفاهن طول الدهر في الزمن الخالي
مرابـع من هنـد خلت ومصـائف ... يصيح بمغناهـا صـدى وعوازف
وغيّرهـا هـوج الريـاح العـواصف ... وكلُّ مسفٍّ ثم آخر رادف
بأسحم من نوء السّماكين هطّال

والشعراء الجاهليون حريصون على وحدة البحر والقافية في قصائدهم لعلمهم أن هاتين الآليتين هما نسغ الإيقاع بيد أنهم لم يهملوا إيقاعات الحروف ، فقد تتكرر السينات واللامات وسواهما لمسوّغات تتصل بوصف المشاهد أو المشاعر ، وذلك ما أسميناه ظاهرة تداعي الحروف[53] .

ومسك الختام في وحدة الإيقاع أردناه في مقام الركباني ، وهو مقام اعتمده الحادون في تنهيض الإبل وتسريع سيرها ، وقد يكون اللحن الوحيد الذي بقي من العصر الجاهلي ، بعد أن انقرض الكثير من الألحان التي ساعدت الشعراء زمنها في ضبط إيقاعات قصائدهم ، كان الشاعر المقبل على كتابة قصيدة ، يتشبّث بالركباني على جهة المكاء (التصفير) أو التَّرنُّم أو النَّقر أو التخفيت (الغناء الخافت) ، وأشهر الإيقاعات التي اشتغل عليها الشعراء الجاهليون هي الطويل / البسيط / الكامل / الرّجز / الخفيف / الوافر / السريع / المتقارب ! وسوى ذلك تكتنفه معضلات نغمية تحول دون الإفادة من الركباني ! وما زالت مدينة النجف في العراق تحتفظ بهذا المقام وتردّده حناجر المنشدين في المآتم الحسينية التي تستغرق ثلاثين يوماً هي المحرم وعشرة أيام من الشهر اللاحق (صفر)

1 ـ (الطويل) ـــ فعولنفا + عيلنفعو + لنفاعلن × 2 = 01101011 + 0110101 + 01101101

2 ـ (البسيط) ـــ مستفعلنفا + علنمستف + علنفعلن × ٢ = 010110101 + 0111011 + 0101011

3 ـ (الكامل) ـــ متفاعلن + متفاعلن + متفاعلن × ٢ = 0110111 + 0110111 + 0110111

(53) الصائغ . عبد الإله . الخطاب الشعري الحداثوي والصورة الفنية ، انظر الفصل الأول من الباب الثاني ص 169 ، وعنوانه (شعرية الصورة وإيقاعات تداعي الحروف) ، وانظر :
فخر الدين . جودت . الإيقاع والزمان ص 29 (حول مفهومات الإيقاع والوزن) .

4 ـ (الرّجز) ـــ مستفعلن + مستفعلن + مستفعلن × 2 = 0110101 + 0110101 + 0110101

5 ـ (الخفيف) ـــ فاعلاتن + مستفعلن + فاعلاتن × 2 = 0101101 + 0110101 + 0101101

6 ـ (الوافر) ـــ مفاعلتن + مفاعلتن + فعولن × 2 = 0111011 + 0111011 + 01011

7 ـ (السريع) ـــ مستفعلن + مستفعلن + فاعلن × 2 = 0110101 + 0110101 + 01101

8 ـ (المتقارب) ـــ فعولنفعو + لنفعو + لنفعو × 2 = 01101011 + 01101 + 01101

2 ـ وحدة البيت : القصيدة قائمة على الإيقاع ، والإيقاع قائم على الكلمات والجمل ، فلابدّ أن تبدأ القصيدة من البيت لأنها حاصل جمع الأبيات ، ويلاحظ الدارس استعارة بيت الشّعر (فتح الشين) لعبارة بيت الشِّعر (كسر الشين) ، لوجود تقارب بين البنائين في الذهنية الإبداعية الجاهلية ، وربما يوضح الرسم الآتي الفكرة التي بسطناها :

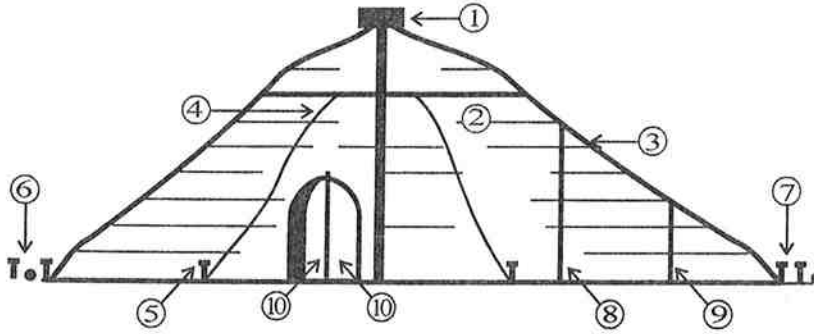

1 ـ عمود الخيمة (بيت الشَّعر)

2 ـ قماش الخيمة

3 ـ حبل طويل لشدّ الخيمة

4 ـ حبل قصير لشدّ الخيمة

5 ـ مسمار خشبي (وتد)

6 ـ مساران خشبيان بينهما حجارة

7 ـ مساران خشبيان متتاليان بعدهما حجارة

8 ـ قطعة من القماش أو الجلد تفصل شطراً مهماً من الخيمة لجلوس النساء

9 ـ قطعة من القماش أو الجلد تفصل شطراً صغيراً من الفاصلة الكبرى لخزن الطعام أو السلاح أو لجعلها مخدعاً أو مضجعاً أومخبأ

10 ـ مصراع الباب . أحد جزأيه (للباب مصراعان)

عمود القصيدة (بيت الشِّعر)

نسيج القصيدة

سبب ثقيل 11

سبب خفيف 10

وتد

وتد مفروق 101

وتد مجموع 110

فاصلة كبرى 11110

فاصلة صغرى 1110

بيت الشِّعْر له مصراعان

ووجه الاستعارة بيّن ، فكما أن بيت الشعر الخيمة لن يؤمن عيشه دون أن يتوفّر على أسباب الحياة من رسوخ في الأرض واعتماد في القوت على تموين يكفي أشهراً ، وخزين من الماء ، وصنوف من السلاح ، بحيث يستغني بيت الشعر عن البيوت الأخرى التي تسبقه في الترتيب أو تلحقه أو تجاوره ، وبيت الشعر مكتف بذاته جمالياً ودلالياً وغير محتاج إلى البيت الذي يسبقه أو يلحقه .. لكن هذا القول لا يطّرد دائماً فثمة الاستثناء .. قال النابغة مخالفاً وحدة البيت :

وهم وردوا الجفار على تميم وهم أصحاب يوم عكاظ إني
شهدت لهم مواطن صالحات وقفن لهم بحسن الظن مني

وقال امرؤ القيس مخالفاً وحدة البيت أيضاً :

فقلت له لما تمطّى بصلبه وأردف أعجازاً ونآء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي بصبح وما الإصباح منك بأمثل

والقار في ذلك أن البيت الشعري الواحد مكتف بنفسه إيقاعاً ومعنى ودلالة . حتى قالت العرب : أغزل بيت ، وأهجى بيت ، وأشعر بيت ، وأخنث بيت .

1 ـ قالت الخنساء في أرثى بيت اتفقت عليه العرب :

يذكّرني شروق الشمس صخراً وأذكره بكل غروب شمس

2 ـ أنصف بيت قالته العرب ورد لعمرو بن كلثوم :

كأن سيوفنا منا ومنهم مخاريق بأيدي لاعبينا

3 ـ قال الأعشى أخنث بيت عرفته العرب :

قالت هريرة لما جئت زائرها ويلي عليك وويلي منك يا رجل

وإذا توفر البيت على وحدته الدلالية والجمالية فذلك معناه أن الشاعر موفق في ابتكار جاذبية شعره ، إلا أن الجاذبية لن تستكمل بهاتين ، فوحدة البيت تتطلب أيضاً

الانسجام بين دلالتي الصدر والعجز بحيث يعبّر شطرا البيت عن سياق واحد ، وقد عابوا على طرفة قوله :

ولست بحلال التّلاع مخافة ولكن متى يسترفد القوم أرفد

فالعجز لا يكمل معنى الصدر ، ولا يساعدنا على ردّه للصدر ..

وكذلك عابوا قول امرئ القيس إرباك بيتين من شعره في مضايق التقديم والتأخير :

كأني لم أركب جواداً للذة ولم أتبطّن كاعباً ذات خلخال
ولم أسبأ الزقّ القديم ولم أقل لخيلي كرّي كرةً بعد إجفال

وزعموا أن وحدة البيت تقضي بأن يقول :

كأني لم أركب جواداً ولم أقل لخيلي كرّي كرّة بعد إجفال
ولم أسبأ الزّقّ القديم للذّةٍ ولم أتبطّن كاعباً ذات خلخال

3 ـ وحدة الموضوع : القصيدة الجاهلية وحدة متجانسة من بيت الاستهلال الأول إلى بيت الختمة الأخير ، فهي تشتغل على غرض مركزي واحد مثل المديح أو الرّثاء أو الغزل .. ولن توصلنا النظرة الحولاء للوحدة الموضوعية إلى نتيجة علمية ، فنحن نقرأ مثلاً أن عينية الشاعر (س) مهلهلة ، تتنازع أغراض متعددة ، وتكتنفها صورة غير مترابطة ، بدأها الشاعر بالغزل ، ثم ترك الغزل فجأة ، وانشغل بوصف الناقة ثم نسي الناقة واشتغل على ثور الوحش ! ثم خرج عن النّسق وأدار صراعاً بين الثور والكلاب على مشهد من الصّياد ومقربة من الغدير .. ثم عاد إلى الغزل لينتقل إلى المديح أو الرثاء !! إن الدراسة التي تستقرئ الشعر الجاهلي لا تجد الأطروحات التي أشرنا إليها دليلاً على تشرذم الوحدة الموضوعية وتفككها ، فوحدة القصيدة تشبه وحدة الحي أو القبيلة ، ووحدة القبيلة قائمة على القواسم المشتركة من الرهبات ، والرغبات ،

والأمزجة ، والمرجعية ، والرجال والنساء ، والشيوخ والأطفال ، والبيوت والمياه ، والأنعام والحرف .. هذه مفردات مختلفة تشكل بالمنظور الفنّي وحدة القبيلة ، وكما يحرص أمير القبيلة أو ملكها على شدّ أطراف القبيلة إلى المركز فإن الشاعر لكذلك . فهو يشدّ أجزاء القصيدة إلى الغرض المركزي ، دون أن يتسرّب الملل إلى أفئدة جمهوره الشعري ، فاصطنع قوالب فنية لقصيدته وجدت تقبُّلاً مفرحاً لدى الجمهور ، وندري أن جمهور الشعر في الزمن الجاهلي كان صعباً ملولاً ، لا يعرف المجاملة أو المهادنة ، فقد يترك الجمهور شاعره وحيداً ، وقد يطلب إليه الكفّ عن الكلام ، وقد يعيّره فيقول له : إن هذا المعنى سبقت إليه ، أو أنك يا شاعر أقل مهارة من شاعر يصغرك في العمر أو التجربة ! من هنا حرص الشعراء على اصطناع جاذبية في شعرهم تغري جمهور الشعر ، وتجعله مسحوراً بهموم القصيدة الجمالية والدلالية ، وقد مرّ بنا سلوك القصيدة الجاهلية ابتداء من الوقوف على الأطلال والبكاء عليها إلى : (دع ذا) إلى امتطاء الناقة ، ثم تشبيهها بـ (حيوان صحراوي) إلى اصطناع صراع دموي بين الحيوان (المشبه به) من جهة والصياد وكلابه من جهة أخرى ، إلى الوصول بعد قوله (بهذا شبّهت ناقتي) إلى الغرض المركزي ، وينبغي التوكيد على أن الشاعر لا يواجه حزنه مثلاً وحيداً ، ولا يعبّر عنه بالخطاب المباشر ! فهو ـ على عادة الشعراء ـ يشرك الطبيعة معه ، فالسماء تبرق ، والشاعر يشيم البرق ليعرف أين يسقط المطر ، ومن خلال البرق يتنوّر الشاعر وجه حبيبته وهي البعيدة ، فكأن البرق والمطر نقلة فنية من حاضر الشاعر إلى ماضيه في إطار القصيدة ، فالصور تنثال عليه والذكريات حين يذكر المطر أو يوم الدجن ، فالمنخّل اليشكري يلتقي الفتاة الكاعب في اليوم المطير الذي يذهل الناس عن تسلّل الغرباء إلى الحيّ ..

ولقد أمرّ على الفتاة الخدْرَ في اليوم المطير
الكاعب الحسناء ترفل بالدمقس وبالحرير
فدفعتها فتدافعت مشي القطاة إلى الغدير

ولثتهـــــــا فتنفّست كتنفس الظّبي الهبير
ورنت وقـــالت يـــا منخّـل مـــا بجسمـــك من فتـور

وكذلك هو حال طرفة بن العبد ..

ولـولا ثـلاث هن من عيشـة الفتى وجـدّك لم أحفـل متى قـام عـوّدي
فمنهن سبقي العـــاذلات بشربـــه كميت مـا تُعْـلَ بـالمـاء تـزبـد
وكرّي إذا نـادى المضـاف مجنّبـاً كسيـد الغضـا نبهتـه المتـورّد
وتقصيرُ(يوم الدجن) والـدجن معجب ببهكنـــةٍ تحت الطراف المعمّـــد

والصـور المطريـة كثيرة في الشعر الجـاهلي ومتـواترة ، فـالطبيعـة مرجعيـة كبيرة لأوصـاف القصيـدة وحركتهـا ، فهي (الطبيعـة) تبكي مـع الشـاعر وتضحـك وتحـزن وتغضب ، ولنا أن نتذكّر ليل امرئ القيس أكان حقّاً طويلاً ؟ أم أن الشـاعر رسم لنـا مشاعرهُ من خلال بطء الليل الذي تهيأ للشـاعر أن نجومـه كانت مشـدودة بحبـال قويـة بجبل يذبل ..

وليـل كمـوج البحر أرخى سـدولـه عليّ بـــأنـــواع الهمـــوم ليبتلي
فقلت لـــه لمـــا تمطّى بجـــوزه وأردف أعجـــازاً ونـــاء بكلكل
ألا أيهـا الليـل الطـويـل ألا انجلي بصبـح ومـا الإصبـاح منـك بـأمثـل
فيـالـــك من ليـل كأن نجـومـــه بكل مغـار الفتـل شـدت بيـذبـل

حركة الليل ترجمت لنـا حركـة النفس ، فـالشـاعر أسقـط إحسـاسـه بـالزمن على الليل ، فلو كان الشاعر سعيـداً لوجـد أن الليل قصير ، وأن الفجر والشروق يـأتيـان ، وهو لم يروّ ظمأه من السعادة كما ينبغي ..

الشاعر من خلال البرق والليل والمطر إنما هو يشرك الطبيعة في مشاعره ، ويقول من خلال الأنواء كلاماً يناسب ذائقة الجمهور ومزاجه ..

ولأن الشاعر لا يقول مشاعره بوساطة الخطاب المباشر ، فهو كما قلنا يعبّر عنها من خلال لوحات فنّية ، وقد لاحظنا كيف كانت الناقة (القوية الأمون التي أهزلها السفر) مشبهاً به للشاعر ، وكيف أن هذا المشبه به (الناقة) أصبح مشبهاً ، واحتاج إلى مشبه به فكان ثور الوحش ، أو حمار الوحش ، أو القطاة . والصراع الذي يدور بين هذا الحيوان المتعب من جهة والصياد وكلابه من جهة أخرى يعكس لنا إحساس الشاعر بصراعه مع الزمن والسلطة ، وهو صراع غير متكافئ ، احتمالات الخسارة فيه كبيرة .

والخلاصة : إن تعددية اللوحات الفنية .. والأغراض الجزئية في القصيدة ، فضلاً عن الاستطرادات ، كل ذلك لا يلغي وحدة الموضوع وإنما يعزّزه ويؤكّده ويجمّله ، فالشاعر ليس خطيباً .. وإنما هو فنان يعرف كيف يوظف المجاز ومهاراته في صناعة قصيدة تعجب الجمهور فيصفّر لها ، ويصفق ، وربما انهالت هدايا المعجبين على الشاعر وهو يقرأ ، وبعض الهدايا ، وبخاصة هدايا الأمراء والموسرين تعادل ثمن مئة سيارة فخمة جديدة !!

٤ ـ الصورة الفنّية : اتّفق المعنيون بدراسة الشعر الجاهلي على أن أهم ما يميّز الشعر الجاهلي هو جمال صوره الفنّية وشدّة أسرها ؛ وقد برع الشعراء في رسم أدقّ التفاصيل ، وصورهم الجميلة الموحية مأخوذة من واقع حياتهم أو طموحاتهم ، مع أنهم لم يعرفوا حدود مصطلح الصورة الفنّية كما يعرفه الدارسون المعاصرون ، ولكنهم بالتأكيد اكتشفوا أثره في جمال القصيدة ، فمرة يدعون الصورة صورة ، وأخرى وصفاً ، أو رسماً ، أو تنميقاً ، أو ترقيشاً ، أو تزييناً ، فما أكثر المصطلحات التي تتماهى مع مصطلح الصورة ، والصورة مبنية على ثنائيات يمكن ترسيمها على الشكل الآتي :

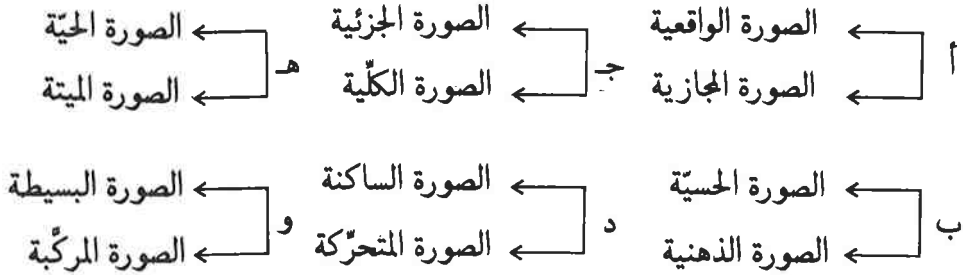

والصورة الفنية بشكل عام تمتح من المزج (السحري العجائبي) بين هذه الثنائيات ، فتتجلّى من مكنونات التخييل استعارات القصيدة وكناياتها وتشبيهاتها[54] بأسلوب يدعو إلى الإعجاب بحذق الشاعر الجاهلي الذي ابتكر تكوينات جديدة من الصور ، حتى إن جلّ النقاد الجاهليين قد شغفوا بالصورة وتصالحوا عليها ميزاناً ذهبياً لا يخطئ .

فالنابغة اعتمد معيار الصورة في أحكامه العكاظية ، وكذلك أم جندب التي وازنت بين صورة الفرس التي رسمها امرؤ القيس وفرس غريمه علقمة ، وفضلت صورة الفرس التي أنتجها علقمة لأنه ابتكر لها مميزات محببة ، وكذلك اعتراض طرفة بن العبد ، وكان صبياً ، على الصورة التي رسمها خاله المتلمّس للجمل ، فقد انتبه إلى أن خاله نسي أنه يتحدث عن الجمل فرسم له صورة ناقة ، فضحك طرفة حتى استلقى على قفاه وهذه عادة جاهلية وقال : « استنوق خالي الجمل » ! أما البيت فهو :

وقد أتناسى الهمّ عند احتضاره بناج عليه الصيعرية مكدم

(54) حاولنا في كتابنا (الصورة الفنية معياراً نقدياً) التنويه بجهود الأساتذة الزملاء الذين أنجزوا كتباً في الصورة الفنية الجاهلية أو فصولاً ، ونذكّر بعدد منها :
أ . عصفور . د . جابر أحمد . الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي .
ب . عبد الرحمن . د . نصرت . الصورة الفنية في الشعر الجاهلي .
جـ . البطل . د . علي . الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري .
د . حسن . محمد صادق . خصوبة القصيدة الجاهلية ومعانيها المتجددة .

والأمثلة كثيرة ربما زادت عن حاجة الدارس إليها : ولسوف نختار صورة كلية توفرت عليها ميية الحطيئة ، قوامها عشرات الصور الجزئية والقصيدة إلى هذا (نانوراما) ترينا أيضاً الصور الواقعية والمجازية والحسيّة والذهنية والساكنة والمتحركة والحيّة والميتة في إطار من الحكي (الصوفي) :

وطاوي ثلاث عاصب البطن مرمل ... ببيداء لم يعرف بها ساكن رسما
أخي جفوة فيه من الأنس وحشة ... يرى البؤس فيها من شراسته نعمى
تفرّد في شِعْب عجوزاً إزاءها ... ثلاثة أشباح تخالهمُ بُهما
حفاة عراة ما اغتذوا خبز ملّة ... ولا عرفوا للبُرّ مذ خلقوا طعما
رأى شبحاً وسط الظلام فراعه ... فلما بدا ضيفاً تشمّر واهتمّا
وقال: هيا رباه ضيفٌ ولا قرى ... بحقك لا تحرمه تالليلة اللحما
فقال ابنه لما رآه بحيرة: ... هيا أبتِ اذبحني ، ويسّر له طعما
ولا تعتذر بالعدْم علّ الذي طرا ... يظن بنا مالاً ، فيوسعنا ذما
فروّى قليلاً ثم أحجم برهة ... وإن هو لم يذبح فتاه فقد همّا
فبينا هما عنّت على البعد عانة ... قد انتظمت من خلف مسجلها نظما
عطاشاً تريدُ الماء فانساب نحوها ... على أنّه منها إلى دمها أظما
فأمهلها حتى تروّت عطاشُها ... فأرسل فيها من كنانته سهما
فخرّت نحوصاً ذات جحش سمينة ... قد اكتنزت لحماً وقد أطبقت شحماً
فيا بشرَه إذ جرّها نحو قومه ... ويا بشرهم لما رأوا كلمها يدمى
فباتوا كراماً قد قضوا حق ضيفهم ... وما غرموا غرماً وقد غنموا غنما
وبات أبوهم من بشاشته أباً ... لضيفهمُ والأمُّ من بشرها أمّا[55]

هذه الصورة الكلية رسمت لنا محنة رجل عجوز معدم وسط صحراء مهلكة ، وقد

(55) الحطيئة . ديوانه (قافية الميم) شرح ابن السكيت والسجستاني . تح نعمان أمين طه مط . مصطفى البابي الحلبي وأولاده 1958 .

نزل عنده ضيوف حفاة عراة جياع وهو لا يملك ما يطعمهم أو يسقيهم فجن جنونه لأن العربي (القح) يقري ضيفه مهما كان حاله من العسر والضيق ، فبلغ به جنون الكرم وخشية العار حدّ التفكير بذبح ابنه الوحيد ، ليوفّر طعاماً للضيوف ! ويبدو أن الابن قرأ معا في رأس أبيه فنادى أباه دون تردّد : هيا أبت اذبحني فذلك أسهل علينا من العار .. وبينا هما كذلك شهداً قطيعاً من الظباء الظمأى إلى الماء ، وكان الماء (كناية عن الصياد) إلى دمها أظمأ !! ولا ينبعي التهوين من شأن الإشارة الرفيعة (فأمهلها حتى تروّت عطاشها) فهي بؤرة المروءة في الصورة .. ولا نحبّذ الاستطراد ، فهذه اللوحة الكبرى (ميية الحطيئة) تمتلك تقنيات عالية لضروب الصورة الاثني عشر .

5 ـ الواقعية : ولا نرمي بها المدرسة الواقعية المعروفة لدى نقّاد الأدب الحديث ، وإنما الذي نرمي إليه هو أن الشعر الجاهلي عبّر عن الواقع بقدرة فائقة ، فهو لم يستورد التجارب أو يدّعيها ، وإنما هي تجاربه وحياته يعبّر عنها بشعور صادق ونظر ثاقب وخيال واسع ، ولن تجد قصيدة جاهلية واحدة استعلت على الواقع وتأسلبت بوسيلة لا يفقهها الناس ، على حين أن الشعر الجاهلي كان بجدارة شعراً عالي الشفافية ، كل الجاهليين يستمعون إليه ويفهمونه ويحفظونه ويردّدونه ؛ الرجل في الحلقة ، والمرأة في الخباء ، والصبيان في الباحة ، الكل يسهر معه حول الموقد في ليالي الشتاء ، ويسمر به ليالي الصيف المقمرة ، الشاعر معبّر أمين عن عواطف الناس ورغباتهم وأحلامهم ، فضلاً عن أنه يقبس لغته من كلام الناس في البيت والزقاق والحي والسوق ، ويصف بتفصيل غريب الحرف والفنون والأندية والغدران والأحياء والملابس والبضائع المحلية أو المستوردة ، وطقوس الزواج ، أو الطلاق والأعراس والمواليد ، والموت والمآتم ، ولن يغفر أي قارئ لأي كاتب في الحياة الجاهلية ووقائعها إذا لم يكن الشعر من أهم وثائقه المعتمدة !

ورحم الله القائل : « الشعر ديوان العرب » . فهو الجدير قبل سواه بترجمة حياة العرب كما هي ، فالشاعر لم يكن ضيفاً على الأحداث ، بل كان شاهد عين وأذن ، وربما

كان أحد صانعيها فهو المتكلم عن قرب لا عن بعد .. وملحمة جلجاش تمجّد الشاعر : « هو الذي رأى كل شيء .. فغني بذكره يا بلادي » .

الشعراء الجاهليون لم يكتبوا قصائدهم داخل غرف فارهة ، ووراء مكاتب الأبنوس . ولم ينظروا إلى مجتمعاتهم من وراء الزجاج المستورد ، فالمحارب الجاهلي هو الذي يكتب قصيدة الحرب ، والعاشق هو الذي يصنع قصيدة الغزل ، والمفجوع بالميت هو الذي ينجز قصيدة الرثاء ، الشاعر مخلوقٌ وصّاف ، وسبيله إلى الوصف عيناه وأذناه وعقله وقلبه ، كيف كان بإمكاننا الحديث عن مواسم العرب وأسواقها وأحلافها ومعاهداتها وأسفارها وساداتها وصعاليكها وملونيها لو لم يتعهّد الشعر الجاهلي بالحديث المفصّل المؤصّل عنها وبأمانة .

والواقعية الشعرية الجاهلية واقعيتان ، واقعية فنّية تهتم بالدلالات الموحية واللمحات الجمالية وواقعية ذاتية تهتم بقول الحوادث والمشاعر كما هي دون زيادة أو نقصان .. ولسوف ننتقي نصّين للشاعر أوس بن حجر .

الأول يصف فيه السماء ملبّدة بالغيوم والرطوبة والرياح بما يجعلنا موقنين أن المطر قادم بين هنيهة وأخرى !!

أما الثاني ففيه يعترف الشاعر بأنه هرب في المعركة ، وأنه استشعر (الجبن) ، ويحزن لأن (أم الحصين) صاحبته قالت له : أخزيتنا يا أوس . ومن منا اليوم قادر على أن يعترف لحبيبته بفشله أو إحباطه أو حتى لحظات الخوف والجبن التي يستشعرها !!

١ـ دعِ العجوزينِ لا تسمع لقيلهما ... واعمد إلى سيدٍ في الحي جحجاح
كان الشبابُ يلهّينا ويعجبنا ... فما وهبنا ولا بعنا بأرباح
إني أرقتُ ولم تأرق معي صاحي ... لمستكفٌّ بُعَيْدَ النومِ لوّاح
قد نمتَ عني وبات البرق يُسهرني ... كما استضاء يهوديٌّ بمصباح

يـــا من لبرقٍ أبيتَ الليـلَ أرقبـــه ... في عـارضٍ كمضيء الصبـح لمّـاح
دانٍ مسفٌّ فـويـق الأرض هيـدبُـه ... يكادُ يـدفعـه من قـام بـالراح
كأنّ ريقـه لمّـا عـلا شطِبـا ... أقرابُ أبلـق ينفي الخيـل رمّـاح
هبّت جنـوبٌ بـأعـلاه ومـال بـه ... أعجـاز مُـزن يسـحُّ المـاء دلاّح
فـالتـجّ أعـلاه ثم ارتـجّ أسفلـه ... وضـاق ذرعاً بحمل المـاء منصـاح
كأنمـا بين أعـلاه وأسفلـه ... ريْـطٌ منشّرةٌ أو ضـوء مصبـاح
ينزعُ جلـد الحصى أجش مبترِكٌ ... كأنّـه فـاحصٌ أو لاعبٌ داحي
فمن بنجـوتـه كمن بمحفِلـه ... والمستكنُّ كمن يمشي بقرواح
كأن فيـه عشـاراً جلـةً شُرُفـاً ... شُعثـاً لهـاميَ قـد همّت بـإرشـاح
هُـدْلاً مشافِرها بُحّـاً حنـاجرهـا ... تُزجي مرابيعها في صحصح ضـاحي
٢ـ أجـاعلـةٌ أمّ الحصينِ خـزايـةً ... عليّ فراري أن لقيت بني عبس
ورهْـط بني عمرو وعمرو بن عـامر ... وتيماً فجـاشت من لقـائهم نفسي
كأن جلـود النمر جيبت عليهمُ ... إذا جمجمـوا بين الإنـاخـة والحبس
لقـونـا فضمّـوا جـانبينـا بصـادق ... من الطعن حشّ النار في الحطب اليبس
ولمـا دخلنـا تحت فيء رمـاحهم ... خبطتُ بكفّي أطلبُ الأرض باللمس
فـأبتُ سليمـاً لم تمـزّق عمـامتي ... ولكنهم بـالطعن قـد خرقـوا ترسي
وليس يعـاب المرء من (جبن) يومـه ... وقد عرفت منه الشجاعـة بـالأمس (56)

6 ـ الإحساس الحاد بالزمكان : والزمكان حاصل نحت (الزمان ، المكان) ، وذلك إحساس شديد على الرغم من شفافيته ؛ فالزمان ماض وحاضر ومستقبل ، وغالباً ما يكون المستقبل أو الغد سبباً لحيرة الشاعر وخوفه ، فالشاعر الجاهلي لا يحب المجهول

قارن زهير :

(56) ابن حجر . أوس . ديوانه القصيدة رقم 1 قطعة 5 ، ص 14 وبعدها . والقصيدة رقم 2 قطعة 25 ، ص 51 وبعدها ..

وأعلم مـــا في اليـــوم والأمس قبلـــه ولكنني عن علم مـــا في غـــد عمي

وقارن قراد بن الأجدع :

فإن يـك صـدر هـذا اليوم ولّى فـــإن غـــداً لنـــاظره قريب

وقارن طرفة :

ستبدي لك الأيـام مـا كنتَ جـاهلاً ويـأتيـك بـالأخبـار من لم تـزوّد

والجاهلي يخاف الزمن ، ويحسبه عدوّه ، ويسبغ عليـه صفـات الغـدر والخيـانـة ، وربما نسب إليه كل ما يصيبه من الويلات ، فشتمه وبالغ في تحدّيه أحياناً ، فـالزمن هو الدهر والمنية والمجهول وهو كل الأشيـاء ، جـاء في القرآن الكريم : ﴿ وقَـالوا مـا هِيَ إلاّ حَياتُنا الدُّنيا نَمُوتُ ونَحْيا وَما يُهْلِكُنا إلاّ الدَّهْرُ ﴾[57] [الجاثية : ٢٤/٤٥] .

وجـاء في الحـديث الشريف : « لا تسبُّوا الـدَّهرَ فـإنّ الله ، عزّ وجلّ ، قـال : أنـا الدّهر ، الأيام والليالي لي ، أجددها وأبليها ، وآتي بملوك بعد ملوك »[58] .

والقصائد الجاهلية تحدد لك الوقت الذي وعب الحركة من نحو :

وقد أغتدي والطير في وكناتها .
إشارة إلى الفجر .
وإذا ما الثريا في السماء تعرّضت
إشارة إلى منتصف الليل ، ونحاول إعطاء دليل سريع لآنات النهار والليل :

☆ الفجر (امرؤ القيس) :

وقد أغتـدي والطير في وكنـاتهـا بمنجرد قيـــد الأوابـــد هيكل

---

(57) انظر صحيح البخاري (الجاثية) 166/6 .

(58) القشيري . مسلم . صحيح مسلم . رقم الكتاب 40 . انظر باب النّهي عن سبّ الدهر 1762/4 .

(أبو دؤاد الإيادي) :

هـل ترى من ظعـائن بـاكرات كالعـــدولي سيرهنّ انقحـــام

☆ الصباح (عنترة) :

يـا دار عبلـة بـالجواء تكلّمي وعمي صباحاً دار عبلة واسلمي

☆ الضحى (المرقش الأكبر) :

أضحت خـلاء نبتهـــا ثئـــد نـوّر فيهـــا زهـوه فـــاعتمّ

☆ الغدوة (كعب بن سعد الغنوي) :

هوت أمـه مـا يبعث الصبحَ غـاديا ومـاذا يـؤدّي الليـلُ حين يـؤوب

☆ الظهيرة (طرفة) :

إن تنـوّلـــه فقـــد تمنعـــه وتريـــه النجم يجري بـــالظهر

☆ القيلولة (المثقب العبدي) :

علـون ربـــاوة وهبطن غيبـــاً فلم يرجعن قـــائلـــة لحين

☆ العصر (لبيد) :

فبـات وأسرى القـوم آخر ليلهم ومـا كان وقّـافـاً بـدار معصّر

☆ العشية (الأعشى) :

بيضـــاء ضحـوتهـــا وصف راءُ العشيـــــة كالعرارة

☆ الأصيل (عمرو بن كلثوم) :

وراجعتُ الصبـا واشتقت لمـــا رأيت حمولهـا أُصُلاً حُـدينـا

☆ الغروب (علقمة) :

فجـالـــدتهم حتى اتّقـوك بكبشهم وقـد حـان من شمس النهـار غروب

☆ المساء (ذو الأصبع العدواني) :

يـا من لقلب شـديـد الهمّ محـزون　　أمسى تـذكُّر ريّـا أمّ هـارون
أمسى تـذكُّرهـا من بعـدمـا شحطت　　والـدهرُ ذو غلظـة حينـاً وذو لين
فـإن يكن حبُّهـا أمسى لنـا شجنـاً　　وأصبـح الـوأيُ منهـا لا يـواتيني

☆ السَّحَر (امرؤ القيس) :

يعـلّ بـه برد أنيـابهـا　　إذا طرب الطـائر المستحر

(المرقش الأكبر) :

بـأن بني الـوخم سـاروا معـاً　　بجيش كضـوء نجـوم السَّحر

☆ البيتوتة (الشّنفرى) :

تبيت بعيـد النـوم تهـدي غبـوقهـا　　لجـارتهـا إذا الهـديـةُ قلّت
فبتنـا كأن البيت حجّر فـوقنـا　　بريحـانـةٍ ريحت عشـاء وحلّت
مصعلكـة لا يقصر السّتر دونهـا　　ولا ترتجى للبيت إن لم تبيّت

☆ أيام الأسبوع تبدأ بأوّل وهو الأحد وتنتهي بشيار وهو السبت ! قال الشاعر :

أؤمّـل أن أعيش وأن يـومي　　بـأوّل أو بـأهـون أو جبـار
أو المردى دبـار فـإن أفتـه　　فـؤنس أو عروبـة أو سيـار

وقد صنعنا كتابنا الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام ووضعنا فيه تقسيمات الوقت ، فمن أراد الاستزادة فذلك له !

ولا يقل الإحساس بالمكان عن الإحساس بالزمان في الشعر الجاهلي ، فأنت مع المكان في معظم استهلالات القصائد ، وقد بالغ الشعراء في تتبُّع الأزمنة فهي عزيزة عليهم حدّ البكاء .. قارن للمثال السريع :

١ ـ امرؤ القيس :

قفـــا نبـــك من ذكرى حبيب ومنزل ... بـ(سقط اللوى) بين (الدخول) فـ(حومل)

فـ(توضح) فـ (المقراة) لم يعف رسمها ... بمـــا نسجتهـــا من جنـــوب وشمأل

2 ـ عنترة :

وتحـل عبلـة بـ (الجـواء) وأهلنـا ... بـ (الحـــزن) فـ (الصمان) فـ (المتثلّم)

3 ـ زهير :

أمن أمّ أوفى دمنـــــــــة لم تكلّم ... بـ (حومانـة الـدراج) فـ (المتثلّم)

4 ـ طرفة :

لخـولـة أطـلال بـ (برقـة ثهمـد) ... تلـوح كبـاقي الـوشم في ظـاهر اليـد

5 ـ لبيد :

عفتِ الـديـار محلهـا فمقـامهـا ... بـ (منى) تأبّد (غولها) فـ (رجامها)

6 ـ عمرو بن كلثوم :

ألا هبّي بصحنك فـاصبحينـا ... ولا تبقي خمور (الأندرينا)

7 ـ الحارث بن حلزة :

بعـد عهـد لهـا بـ (برقـة شما ... ء) فـأدنى ديـارهـا (الخلصـاء)

فـ (المحيـاة) فـ (الصفـاح) فـأعلى ... (ذي فتاق) فـ (عاذب) فـ (الوفـاء)

فـ (ريـاض القطـا) فـ (أوديـة الشر ... بب) فـ (الشعبتـان) فـ (الأبـلاء)

8 ـ الأعشى :

ما روضة من (رياض الحزن) معشبة ... خضراءُ جـاد عليهـا مُسبِلٌ هطِـل

وقـد غـدوت إلى (الحـانوت) يتبعني ... شـاو مشـلٌّ شلـول شلشـل شـول

9 ـ النابغة :

يادار ميـة بـ (العليـاء) فـ (السنـد) أقـوت وطـال عليهـا سـالف الأبـد

10 ـ عبيد بن الأبرص :

أقفر من أهلـــه (ملحـــوب) فـ (القطبيـات) فـ (الـذنـوب)
فـ (راكس) فـ (ثعـالبـات) فـ (ذات فرقين) فـ (القليب)
فـ (عردة) فـ (قفـــا حبّر) ليس بهـــــا منهم عريب

وقـد يطيـل الشـاعر النظر إلى مكان الحبيبـة الـذي كانت فيـه والـذي أضحت ، أو حـدود القبيلـة أو الميـاه أو الريف أو الصحراء بشكل يـؤكّـد شـدة حسـاسيتـه مـع المكان .. وينقـل لنـا الأعشى أسماء البلـدان التي زارهـا ، ليشفى غليلـه بتـذكُّرهـا ويستحضر صورها في متخيله .. وحذق الأعشى جنّبه المبـاهـاة بـأسفـاره ، وإنمـا جعل ابنته وهي شاعرة تبكي أمامـه خـائفـة عليـه من كثرة أسفـاره وتخشى أن يهلـك فتصبح يتيمة :

أرانـــا إذا أضمرتـــك البـــلا د نجفى ويقطـــع عنـــا الرحم
أفي الطـــوف خفت عليّ الردى وكم من ردّ أهلـــــه لم يرِم
وقـــد طفتُ للمـــال آفـــاقـــه عمـــان فحمص فـــأويرشلم
أتيتُ النجـــاشيّ في أرضـــه وأرضَ النبيـــط وأرضَ العجم
فنجران فـــالسّرو من حمير فـــأيّ مرام لـــه لم أرم
ومن بعـــد ذاك إلى حضرمـــوت فـــأوفيت حينـــاً وحينـــاً أهم

7 ـ استثمار آليات القصة ، وكثيرة هي القصائد التي تنقل إلينا قصة شـائقـة تصف لنا وقفة الشاعر وراء الكثبـان والأشجـار ليراقب بعينين دامعتين حركـة قوم الحبيبـة ، وهم يجمعون أثاثهم فوق ظهور الإبل ، وقـد نووا الرحيل ، وينظر إلى هودج الحبيبـة ، وقد ثقّبت قماشه لتنظر إلى محنته وإليه ، ثم يسترجع ذكرياته معها من خلال اصطناع

حوار بينه وبينها ، أو خطاب يزجيه الشاعر لها .. أو استدعاء نهار بعينه أو ليلة بعينها ، ويتجه الشاعر إلى الأسلوب القصصي في شعره بوعيه أو لا وعيه ، لأنه الأسلوب الأقرب إلى نفس الشاعر وجمهوره معاً ، وحياة الشاعر مجموعة قصص تشكل رواية العمر ، وقد لجأ الشعراء أحياناً إلى استثمار آلية الحلم ليعادلوا به (الحلم) خشونة الواقع ، فهم يزورون الحبيبة في الحلم أو تزورهم بمنأى عن أعين الرقباء وشروط الزمان والمكان والأعراف ، فالحبيبة تأتيه كيفما يتمنى ، وقد يصطنع الشاعر حواراً مع المرأة ، يعاتبها وتعاتبه ، على الهجر واللامبالاة ، ويصف الأجواء المحيطة بالحبيبة ، وكأنه في واقع أكيد وليس في حلم هشّ ، وقد كثر الشعر الحلمي حتى تساءلنا في أكثر من مناسبة عن السبب الذي زهّد أصحاب الحماسات به فلم يفردوا له باباً ، أو يعتدوه غرضاً[59] .

قال سويد بن كاهل اليشكري (مخضرم) :

بسطتْ رابعةُ الحبل لنا ... فوصلنا الحبل منها ما اتّسع
هيجَ الشوق خيال زائر ... من حبيب خفر فيه قدع
شاحط جاز إلى أرحلنا ... عصب الغاب طروقاً لم يرع
وكذاك الحب ما أشجعه ... يركب الهول ويعصي من وزع
خبلتني ثم لما تشفني ... ففؤادي كلّ أوب ما اجتمع
ودعتني برقاها أنها ... تنزل الأعصم من رأس اليفع[60]

وتمتلك القصة الشعرية قوة الأثر الاستثنائي في جمهور الشعر وجمال القصيدة فضلاً عن أنها قادرة على توسيع التخييل ، وترقيق التعبير . امرؤ القيس :

ويا ربّ يوم قد لهوت وليلةٍ ... بآنسةٍ كأنها خط تمثال
لطيفة طيّ الكشح غير مفاضة ... إذا انفلتت مرتجة غير متفال

(59) الصائغ . عبد الإله . الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنية . الفصل الأول) صورة الحبيبة في الطيف الزائر) ص 29 وبعدها .

(60) المفضليات . ق 40 ، ص 191 وبعدها .

تنـوّرتهـا من أذرعـات وأهلهـا ... بيثرب أدنى دارهـا نظر عـال
نظرت إليهـا والنجـوم كأنهـا ... مصـابيـح رهبـان تشبُّ لقفـال
سموت إليهـا بعـدمـا نـام أهلهـا ... سموّ حباب المـاء حـالاً على حـال
فقـالت سبـاك الله إنـك فـاضحي ... ألستَ ترى السمّار والنـاس أحـوالي
فقلت يمينَ الله أبرح قـاعـداً ... ولـو قطعـوا رأسي لـديـك وأوصـالي
حلفت لهـا بـالله حلفـةَ فـاجرٍ ... لناموا فما إن من حـديث ولا صـال
فلمـا تنـازعنـا الحـديث وأسمحت ... هصرت بغصن ذي شماريـخ ميـال
وصرنـا إلى الحسنى ورقّ كـلامنـا ... ورُضْت فـذلت صعبـةً أيّ إذلال
فـأصبحتُ معشـوقاً وأصبـح بعلهـا ... عليـه القتـام سيّء الظن والبـال
يغـط غطيـط البكر شـدّ خنـاقـه ... ليقتلني والمرء ليس بقتـال
أيقتلني والمشرفي مضـاجعي ... ومسنـونـة زرق كأنيـاب أغـوال
أيقتلني وقـد شغفتُ فـؤادهـا ... كما شغف المهنـوءة الرجـل الطـالي
وبيت عـذارى يـوم دجن ولجتـه ... يطفن بجماء المرافـق مكسـال[61]

.. والأعشى يصف محنة السموءل الذي قتل ابنه أمام عينيه وأعين أهل بيته خارج حصن الأبلق ، حين خيّره الحارث بن ظالم بين أن يسلّم ودائع امرئ القيس أو يقتل ابنه الذي كان في مشوار صيد ، وعاد ليجد باب القلعة مغلقاً ، وجيش الحارث يحيط بالقلعة إحاطة السوار بالمعصم ! ففكّر السموءل وأهل بيته في الخيارين ، وكان القرار هو أن الحفاظ على الأمانة أهم من حياة الابن .. وقد نفّذ الحارث تهديده فقتل الابن البريء أمام أعين والديه ثم مثّل به !!

كن كالسمـوءل إذ سـار الهمام لـه ... في جحفـل كسـواد الليـل جرار
بـالأبلـق الفرد من تيماء منزلـه ... حصن حصين وجـار غير غـدار
إذ سامـه خطتي خسف فقـال لـه ... مهما تقلـه فـإني سـامـع حـار

(61) امرؤ القيس . ديوانه . ق 2 ، ص 27 وبعدها .

فقـــال ثكل وغـــــدرٌ أنت بينهما فـــاختر فـــا فيهما خـــط لمختـــار
فشـــكّ غير قليـــل ثم قـــال لـــه : اذبـــح أسيرك إني مـــانـــع جـــاري
وســـوف يعقبنيـــه إن ظفرت بـــه ربٌّ كريمٌ وبيض ذات أطهـــــار
لا سرّهن لـــدينـــا ضـــائـــع مـــذق وكاتمـــــات إذا استـــودعن أسراري
فقـــال تقـــدمـــة إذ قـــام يقتلـــه أشرف سموءل فـانظر للـدّم الجـاري
أأقتـــل ابنـــك صبراً أو تجيء بـــه طـــوعـــاً فـــأنكر هـــذا أيّ إنكار
فشـكّ أوداجـه والصـدر في مضض عليـه منطـويـاً كاللـذع بـالنـار
واختـــار أدراعـــه أن لا يسبّ بهـــا ولم يكن عهـــده فيهـــا بختـــار[62]

ولنـا أن نـذكّر بثلاث لوحـات تتجلى من خـلالهـا القصـة الشعريـة بشكل يعـزّز الاطمئنان إلى هذه الخصيصة .

١ ـ قراءة الشعر الذي قيل في أيام العرب : حروبهـا ، فهو يتحـدّث عن المشـاهـد والاشتبـاكات والغبـار ، والقتلى ، ومنظر الصقـور وهي تقتلـع الحـواجب والعيـون ، والضباع وهي تقوم بحركات شنيعة مع الرجال المقتولين الـذين انتفخت أجسـامهم تحت الشمس ، ومنظر النساء المقاليت اللواتي لا يعيش لهن طفل وهن يؤدين طقوساً سحرية مع الميت ..

2 ـ قراءة الشعر الـذي يصـور الرحلـة ، ومشـاهـد القتـال التي تحـدثنـا عنهـا بين الحيـوانـات مرة ، وبين الحيـوانـات والإنســان ، فـا أقسى منظر البقرة وهي ترى إلى الضباع تفترس ابنها أمام ناظرها ، فإذا انصرفت الضباع عادت لتشمّ مـا تبقى من دمـه وأشلائـه فكأنهـا أم رؤوم وليست بقرة ، وقـد مرّ بنـا صور ثور الـوحش وهـو يـواجـه مصيره في دراما مثيرة أبطالها الصياد وكلابه من جهة والثور من جهة أخرى .

---

(62) ديوان الأعشى . ق 25 ، ص 229 وبعدها . وانظر مبحث الحكايـة في شعر الأعشى بكتـابنـا : الصورة الفنية معياراً نقدياً ص 275 وبعدها .

3 ـ لوحة لقاء الحبيب بحبيبته وما يكتنف ذلك اللقاء من المخاطر والمباهج .

8 ـ أثر البيئة والنشأة والطبقة في شعر الشاعر : ومن خلال الشعر نستطيع تمييز شعراء الصحراء من شعراء المدينة ، وشعراء الريف من شعراء الثغور ، الشعراء الصحراويون يستعملون إيقاعات صاخبة وكلمات خشنة ، وصوراً تشاكل قسوة الصحراء ؛ ليل بهيم ، ذئاب تعوي ، أفاع تفح ، سماء صافية مطرّزة بالنجوم !

شعراء المدينة ذوو إيقاعات هادئة رتيبة ، وكلمات هينة لينة ، وصور تحاكي نعيمهم ورقيهم ، فتصف النوادي وبيوت اللهو والأسواق ، ودور العبادات ، حضارة الشعر صورة لحضارة المجتمع ، والشعر الجاهلي يصف بصبر جميل مفردات الحضارة عهد ذاك أدورد ثايلر : « الحضارة هي الكلّ المعقد من الرغبات ، والرهبات ، والعقائد ، والطقوس ، والمواسم ، والفنون ، والحرف ، والتجارة ، والزراعة ، والرّعي ، وتقاليد الناس ، ومشاعر التقديس ، والتدنيس » .

وهذه الأمور عبّر عنها الشعر الجاهلي بفنّيه جلية ، فهو ، الشعر ، نتاج البيئة يؤثر فيها ويتأثر بها ..

9 ـ وضوح المعاني ودقة التعابير : الشاعر لا يتنطّع وإنما هو مشغول بالتعبير عن همومه المعنوية والجمالية ، ومن ثم التأثير في جمهوره الذي ينتظره بفارغ الصبر ، ويفاخر به جماهير الشعراء الآخرين ، وقد ساعدهم في ذلك صدقهم الفنّي ، والشاعر معني بالفكرة العامة ، والحقيقة الأمّ ، والحدث المركز ، فيبذل جهده للتعبير عن خلجاته ، وربما سهّل الأمر على الجمهور ، والشعراء معاً اشتراكهما في مرجعية واحدة ، فالمعاني مشتركة بين الشعراء ، وكل شاعر يحاول تطوير أدواته في التناول ويؤول ذلك د . شوقي ضيف لنفهم أن هذه النزعة في الشعر الجاهلي جعلته لا يحلّل خواطره ولا عواطفه إزاء ما يتحدّث عنه من حبّ أو غير حبّ ، فهو لا يعرف التغلغل في خفايا النفس الإنسانية ، ولا في أعماق الأشياء الحسّيّة ، وتتضح هذه النزعة في خياله وتشبيهاته

للمرأة ، فهو يشبهها بالشمس والبدر ، والبيضة ، والدرة ، والدمية ، والرمح ، والسيف ، والغمام ، والبقرة ، والظبية . وشبَّه أسنانها بالأقحوان ، وبنانها بالعنم ، وثغرها بالبلور ، وخدها وترائبها بالمرآة ، وشعرها بالحبال والحيات والعناقيد ، ووجهها بالدينار ورائحتها بالمسك والأترجة ، وريقها بالخمر والعسل ، وعينها بعين البقرة والغزال ، وعجزها بالكثيب ، وساقها بالبردية[63] .

وهذه الصور وغيرها مألوفة لدى الجمهور والشعراء معاً ، وكذلك اللغة التي يكتب بها الشاعر قصيدته هي لغة قريش الشائعة في المدن والأسواق والمجالس ، والشاعر الفحل هو الذي لا يعاضل في تعبيراته ، ولا يتشادق في إنشاده ، ولا يتفيهق في معلوماته وخبرته مع قدرة متميزة في تخليق جاذبية سحرية لتعبيراته تستحوذ على عواطف الناس وإعجابهم .

10 ـ الجدل الحاذق بين الذاتية والغيرية ، فالشاعر الجاهلي أساساً إنسان ذاتي يعشق نفسه ، ويرى قدره فوق مقامات الآخرين ! فهو المعشوق الذي تتنافس على حبِّه عذراوات القبيلة أو الحي ، والمحبوب المهيوب بين الفتيان ، والمرهوب عند الفرسان . قوله القول ، وفعله الفعل . فإذا هجا جرَّد خصمه من الفضائل ، وإذا فخر نسب كل الفضائل إلى نفسه ، وغالباً ما يصور نفسه وشعره محور الكون ، بيد أن الشاعر أيضاً إنسان (غيري) فإذا احتاج قومه إليه تخلى عن ذاتيته وأقبل إليهم عارضاً شعره ونفسه ، وقد يتماهى الأنا والنحن في القصيدة الواحدة ، فلا ندري أيفخر الشاعر بنفسه أم بقومه ؟!

والجواب : إن الشاعر الجاهلي ـ أحياناً ـ لا يرى مسافة بينه وبين قومه ، وربما تهيأ له أنه سفير قومه ، والمعبِّر الوحيد عنهم ! وهذه خصيصة مهمة في الشعر الجاهلي ، وحتى في أعمق أعماق ذاتية الشاعر نجده ممجداً بشكل غير مباشر ، قيم قومه ، ومثلهم

---

(63) العصر الجاهلي . ص 221 .

مفكّراً بعقليتهم ، وإن استعمل ضمير المتكلم ، ومن هنا فأنت مع غنائية الشاعر الجاهلي .. هذه (الغنائية) لا تعمي عينية عن (الموضوعية) والذوبان في الجماعة ، وشأن الشاعر في قومه شأن بيت الشعر المفرد داخل القصيدة ، فكل منهما (بيت الشّعر / الشاعر) مكتف بذاته ، وكل منهما جزء من كلّ ! البيت جزء من القصيدة ، والشاعر جزء من القبيلة ، قارن دريد بن الصّمة :

أمرتهم أمري بمنعرج اللـــــوى ... فلم يستبينوا النُّصح إلا ضحى الغد
فلما عصوني كنت منهم وقد أرى ... غـــوايتهم وأنني غير مهتـــــدي
وهل أنا إلا من غزية إن غوت ... غويت وإن ترشد غزية أرشد[64]

وقد يخفي الشاعر عواطفه ومشاعره حتى لا يحزن الصديق ويشمت المبغض ، فالشاعر معلم على نحو ما .. وهو قدوة .. في قوته وضعفه .. أبو ذؤيب الهذلي

حتى كأني للحـــــوادث مروة ... بصفـــا المشرّق كل يـــوم تقرع
وتجلـــدي للشـــامتين أُريهمُ ... أني لريب الـــدهر لا أتضعضـــع
والنفس راغبـــة إذا رغبتهـــا ... وإذا تردّ إلى قليـــل تقنـــع
ولئن بهم فجع الـزمـان وريبُـه ... إني بـــأهـل مـــودّتي لمفجَّـع[65]

(64) ديوان دريد بن الصّمة . ق 15 . ص 47 .
(65) المفضّليات . رقم 126 . ص 422 وبعدها .

الأطروحة الثالثة

النثر الفني الجاهلي

مقدمة : مأزق الخطاب النثري الفني القبسلامي .

تمهيد : أوراق النثر الفني .

أضرب النثر الفني

أولاً ـ الخطابة .

ثانياً ـ الأمثال .

ثالثاً ـ سجع الكهّان .

رابعاً ـ المنافرة .

خامساً ـ الحكاية .

سادساً ـ الوصايا .

سابعاً ـ المعاهدات والأحلاف .

ثامناً ـ الرسائل .

تاسعاً ـ الوصف .

خصائص النثر الفنّي الجاهلي .

مقدّمة

(مأزق الخطاب النثري الفني القبسلامي)

الشعر والنّثر الفنّي الجاهليان ، توأمان وُلِدا ملتصقين ثم نضجا كلٌّ منهما متمتّعاً بصفاته المورفولوجية والداخلية ، فكان المنطق أن ينفصلا ، فانفصلا ، وبدأا شوطاً من المنافسة لم ينته حتى الآن ، ولم تخمد جذوته .. فحتى يومنا هذا (النصف الأول من 1999) تختلج قنوات الإيصال المسموعة والمرئية بتصريحات كل فريق ، فكتّاب النّثر فرحون هذه الأيام زاعمين أن زمن الشعر قد انتهى ، وبدأ زمان النّثر . والشعراء يبتسمون قائلين لفريق النثر ، أن لا زمان للشعر ولا مكان ، فكل الأزمنة وكل الأمكنة هي قاشة الشعر . وهذه المنافسة الحارّة أضافت الكثير من الجماليات لنصوص كلا الفريقين !!

أما العصر الجاهلي ، فكان شاهداً على ظهور عدد من المبدعين (الشاملين) ، فقد يلقي الشاعر قصيدته ويقطعها بديباجة نثرية تتكفل بتوضيح آفاق الشعر وخباياه ، فكثافة الشعر محتاجة إلى فساحة النثر ، وقد يلقي الخطيب مثلاً خطبته ثم يزوّقها بأبيات شعرية كدأب الإيادي قس بن ساعدة ، وقد مرَّ بنا في فصل المعلقات ، الأطروحة الأولى ، أن عبيد بن الأبرص ألقى خطبة فاستقامت قصيدة من مخلع البسيط وروي الباء :

أقفر من أهلـــه ملحـوب فالقطبيات فالذنوب

مما ييسّر لنا تسويغ الانفلاتات العروضية التي اعتورت معلقته !! ومرّ بنا أن الحارث بن حلزة وقد ألجأته الإقامة في منازل عمرو بن هند ، الملك الأهوج المتقلّب المزاج ، وقد تأجج الموقف بين قوم الشاعر (المغضوب عليهم) وبين الملك عمرو بن هند الذي بدّد أمواله وجهده ومملكته على حاشية السوء التي تنقل إليه (تقارير السوء عن الناس ، فيوقع فيهم قتلاً وتنكيلاً .. وقد كان الشاعر الحارث بمستوى المحنة ، فارتجل معلقته ليدفع بها الشّر عن قومه ويطفئ نار الحقد في صدر الملك ، يقول التبريزي : « وقام الحارث بن حلزة وهو أحد بني كنانة بن يشكر فارتجل قصيدته ارتجالاً » . ويبدو أن الحارث كان في أشدّ حالات الاستنفار لطاقاته الإبداعية والتخيلية بحيث اتّكأ على قوسه فاخترق طرف القوس راحته وخرج من ظهر كفّه ، وهو لا يشعر بذلك ! يقول التبريزي : « فارتجل قصيدة ارتجالاً وتوكأ على قوسه فزعموا أنه انتظم بها كفه وهو لا يشعر من الغضب » !!

والمعروف أن الارتجال منحى صعب يضيّق الهوة كثيراً بين آليات الشعر وآليات النّثر فضلاً عن استدعائه حالة من التّماهي بين تقنيات كلٍّ منهما !! ولماذا نجري بعيداً ؟ فالدراسات المعمقة توصلت إلى أن حلقة مفقودة بين السَّجْع الجاهلي وفنّ الرجز ، وفقدان هذه الحلقة لم يمنع الدراسات تلك من القول : إنهما (الرجز ، السجع) من أرومة واحدة ، حتى ميّزت العرب بين القصيد والرّجز .. بل وتوصّلت دراسات معمقة أخرى إلى أن الرجز ليس شعراً ، وإذا أخذنا بهذا التوصّل (جدلاً) فنحن مضطرون إلى اعتداد الرجز جنساً (مخنثاً) بين الشعر والنثر ، واستعانت تلك الدراسات بمعجمات اللغة التي حددت الرجز مرضاً يصيب عجيزة الناقة أو الجمل !!

وإذا كان المستشرقون الفرنسيون ميّالين إلى أن الشعر أكثر التصاقاً بعواطف البشر من النثر ، وأن الشعر سبق النثر الفني في الظهور ، ثم تابعهم د . طه حسين مستلذّاً بآرائهم فإن ذلك يعني ضرباً من الشعر مختلفاً عن الشعر الذي نضج فيما بعد ، وقرّت له القواعد والحدود . ذلك الشعر الذي بدأ مع الإنسان الأول قبل نضوج النثر الفنّي ، كان

ضرباً من الرقص الإيقاعي والحركات التي تنهد بها الأيدي والأرجل ، والإشارات التي ترسمها ملامح الوجه ، والغرغرات والغمغمات المكررة التي تواقت وتناغم الرقص والإشارات ، وإذا صحت هذه الفرضية ، فإن الشعر ذاك .. كان حالة ثالثة بين اللغة واللالغة / الشعر والنثر / الإيقاع السمعي والبصري . وهذه الحالة تعزّز القول بوحدة الأرومة بين الشعر والنثر ، زد على ذلك حكايات السِّير التي توشّج بين الشعر والنثر مثل سيرة الزير سالم ، وسيرة عنترة ، وسيرة ليلى العفيفة ، كذلك الأقاصيص القصيرة أو الطويلة حسب المقام ، فهي مضطرة للشعر اضطرارها للنثر .. بل إن ضرباً من الشعر وصل إلينا بلهجات متعددة وروايات متعددة ، وبخاصة شعر السِّيَر ، والقصص ، والأمثال ، بما يؤثّل في مساحة الدرس العلمي أن (الشفاهية) ليست نظرية عادية يمكن ردّها بيسر ، كنظرية النحل التي احتفظت تحت أديمها بأسباب قوتها وضعفها معاً ، كما احتفظت بأسباب حياتها وموتها !! ولكن الشفاهية هذه التي حللت النص الإبداعي الجاهلي وأوّلته ؟

(مصطلح الشفاهية كما تشكّل لدى باري ولورد في دراستهما عن الشعر اليوغسلافي ، وقياسهما له على ملحمة الإلياذة ، يعني أنه شعر نمطي (Formulaic) ، والقصيدة الشفاهية لا تقوم على نص ثابت ، وهي نص متغيّر ومتبدّل على لسان كل منشد ، وكل منشد يغيّر في كلماتها وجملها وفي أبياتها ، وله الزيادة فيها أو الحذف منها . ويدخل فيها عناصر جديدة ويلقي منها أخر ، مع كل حالة إنشاد . بل ربما غيّر المنشد القصيدة تغييراً كاملاً . ولذا فإن الشعر الشفاهي سائب التكوين ، ويتجدد إبداع القصيدة على لسان كل منشد ، والمنشد الشفاهي لا يحتاج إلى حفظ القصيدة في ذاكرته . وليس للحفظ مكان لدى الشفاهيين . ومهارة الشفاهي لا تعتمد على ذاكرته ، ولكن على إتقانه لمجموعة من الصِّيغ الهيكلية والنّمطيات القولية ، ومجموعات من الأسماء والأحداث ، وتشكّل له هذه إطاراً شكليّاً يحشوه بما يلائم موقف الإنشاد . ومن ثم فليس هناك إبداع فردي ، وليس هناك نص معين لشاعر معين !! والنصوص تكوّن

نشاطاً قولياً شفاهياً مشاعاً كممارسة إنشادية دائمة التغيير والتّبدُّل . والشفاهي إذن نص نمطي مشاع)[1] .

وقد نشر (J. Monroe) بحثاً معمقاً في مجلة الأدب العربي التي تصدر بالإنجليزية عام 1972 (Oral Compositionin in pre-islamic poetry) أضاء كثيراً من العتمات التي اكتنفت مسيرة الإبداع الجاهلي ، وكشف على نحو ما العلاقة الأولى بين السّجع والشعر ، ولنا أن نلخّص أهم فقار هذا البحث .

أ ـ ثمة آصرة بين دلالة شعر ودلالة نثر الكهّان الذي تتفق أواخر كلماته بإيقاعات متشابهة مكرورة تشبه القوافي في الشعر .

ب ـ الموقف الصارم للإسلام من الشعر الجاهلي أدّى إلى اختفاء المنشد الذي يحذق أسرار الإنشاد .

جـ ـ ولبنيات القصيدة قوالب موروثة استعان بها الشعراء لضبط المعاني والإيقاعات والإمساك بتلابيب المتلقّي .. وقد وصلتنا السبائك (القصائد) ولم تصلنا القوالب ، والمنطق العلمي يصرّ على وجود هذه القوالب .

د ـ لهجة قريش ليست اللغة التي كتب فيها الشعراء الجاهليون قصائدهم كما تهيأ لأصحاب نظرية الشّك وخصومهم .. بل ثمة لغة قريبة من تلك اللهجة .. هي اللغة الإبداعية المفهومة لدى العرب كافة ، ولم تأنف هذه اللغة من استعمال مفردات غير قرشية ..

هـ ـ ربما حوّر المدوّنون المسلمون للشعر الجاهلي كلمة (اللات) واستبدلوها بلفظ الجلالة (الله) .. وذلك أدعى للقبول بسبب من التناظر النغمي بين إيقاعي

(1) الغذامي . د : عبد الله . القصيدة والنّص المضاد . ص 11 . طبعة المركز الثقافي العربي . بيروت 1994 . وانظر :
الصكّر . حاتم . مرايا نرسيس . ص 216 . طب المؤسسة الجامعية للدراسات . بيروت 1999 .

الكلمتين .. وبسبب اقتران مفردة اللات بالذهنية الجاهلية ومفردة الله بالذهنية الإسلامية .

و ـ تشكيك التبريزي شارح المعلّقات العشر بالأسماء الجغرافية التي وردت في قصيدة عمرو بن كلثوم !!

ز ـ أخفق أصحاب نظرية الشك في تقويم ظاهرة الشعر الجاهلي النطي ، كما أخفق أصحاب نظرية اليقين .

ح ـ القصائد المنحولة إنما هي منحولة وثائقياً ، بيد أنها صحيحة نسقياً ، فهي مؤسسة وفق عمود الشعر ، (التقاليد الموروثة) ، وإن ضاعت تلك التقاليد ولبثت آثارها جليّة في القصائد !!

أما نظرية باري ولورد في الشعر الشفاهي فقد كثفت آلياتها لمعرفة نمطين من القوالب :

الأول دلالي ينحصر في المقولات الشائعة المتداولة في العصر الجاهلي مثل ديباجات القصص والحكايات والرسائل والعقود والمعاهدات والأمثال والمناظرات وأسجاع الكهّان وسوى ذلك ، فالأفكار متداولة ومهمة المبدع الشفاهي هي التحوير والتبويب والتلاعب بالألفاظ والسياقات ..

والآخر صياغي ويدخل في إطاره الإيقاع .. فثمة صياغات وقوالب جاهزة متداولة يبني عليها المبدع الشفاهي نصه القديم المتجدد ، وإلا كيف نفسّر طاقات الشعراء الخارقة على الارتجال وطاقات الخطباء والقصّاص والكهّان على الارتجال ! فالنصوص متوارثة ومتداولة ، وربما أشار الشعراء الجاهليون إلى قصائد قديمة نسجوا على منوالها كإشارة امرئ القيس إلى ابن خذام ! ولا يمكن تصوُّر النصوص الشفاهية بمعزل عن الغناء والإنشاد .. وتنفعنا في ذلك الإشارات إلى أن المبدعين القدماء ..

ناثرين وشعراء .. كانوا يستعملون العصا أو الرمح أو السيف أو القوس خلال الإلقاء ، وما كان ذلك ليكون لو لم تكن لهذه الأدوات وظيفة مسطرة المايسترو ، وهو يقود الآلات والمنشدين إلى حالة من التناغم بين الوقت والعزف . حتى قيل : إن المبدع العربي كان يحجم عن الإنشاد إذا لم تكن بيده عصا أو قناة .. وربما أسهمت الربابة والبربط والدفوف في ضبط إيقاعات القصائد ، أو الخطب ، أو الحكايات[2] .

فلا غرابة إذن من أن يكون الشاعر خطيباً ، والقاصّ شاعراً مثلاً ، فالمعاني كما يقول الجاحظ مبذولة للقاصي والدّاني وإنما العبرة بالنظم .. والنظم إن هو إلا القوالب المتداولة ، وقد يمتاز مبدع عن آخر بأسلوبه الخاص في استثمار تلك القوالب والتفنّن في صياغة السبائك وتزويقها .. وإنما تكرّس الشعر في الذائقة العربية القبسلامية ؛ لأن الطبيعتين كانتا مسوّغ التكريس ، فطبيعة العربي مجبولة على عشق الكلمة الجميلة الموسقة ذات المنهج العجائبي ، وطبيعة الشعر التي تموسق العواطف ، وتكثف العبارات ، وتوجّج الإشارات ، فالتقت الطبيعتان ليكون الشعر ديوان العرب ، أي الدفتر الذي ضمّ بين دفتيه جلّ مفردات الحضارة عهد ذاك ، وذلك لا يعني إطلاقاً .. أن النثر الفني ليس ديوانَ العرب ، فهو الآخر ديوان العرب ، بيد أن النثر الفني عصيٌّ على الحفظ والتذكّر ، سهل التبدد والضياع . أما الشعر فهو سهل الحفظ والتذكر وفرص ضياعه نادرة . وهنا يكمن مأزق النثر الفني القبسلامي ، وكتب تاريخ الأدب تنبئنا أن جمهور النثر الفني لم يكن بأقل من جمهور الشعر كمّاً ونوعاً .. ولنا أن نتذكر كيف كان الجمهور العريض يتحلّق حول قس بن ساعدة الإيادي وهو يلقي خطبه التأملية ، ونتذكر كيف كان الجمهور الواسع يتحلّق في الأسواق حول عبيد بن شرية الجرهمي ، وهو يروي بأسلوب خلاّب حكايات الأمم الغابرة .. مثل عاد وثمود ، وروايات زرقاء اليمامة وابنة الساطرون .. بل ينبغي أن نتذكّر هنا جمهور المنافرة التي

---

(2) J. Monroe. Oral Composition in pre-islamic Poetry. Journal of Arabic literature. Vol. III 1972. Brill-Leiden.

شبّت بين عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة ، فقد نصبت الجماهير خيامها على عدوة فرس حول بيت هرم بن سنان .. بانتظار إصدار الحكم .

ومن المؤسف حقاً ، أن يتجنب المعنيون بالأدب القبسلامي الخوض في تفاصيل النثر الفني ، ناسين أن صورة الإبداع تبدو ناقصة تماماً حين نلتفت إلى الشعر ونشيح نظرنا عن النثر ، حتى إننا وزعنا استبيانات على طلبة الجامعات (أقسام اللغة العربية) في العراق والأردن واليمن وليبيا وتونس والمغرب ، فأحالتنا الإجابات على أن أساتذة الأدب الجاهلي يكرسون 75٪ من ساعات الأدب الجاهلي و 25٪ للنثر الفني الجاهلي ، وأطرف الإجابات وردتنا من (بعض الطلبة) جاء فيها .

(انتهت السنة الدراسية ونحن ندرس الشعر الجاهلي فسألنا الأستاذ ومتى ندرس النثر الجاهلي ، فبهت الأستاذ ، وفهمنا أنه نسي النثر .. وقد فات الأوان) إننا نتمنى على زملائنا أساتذة الدراسات العليا في أقسام اللغة العربية تشجيع الطلبة على دراسة النثر الفني الجاهلي ، فهو قارة واسعة وخصبة ومغدقة ، فالنثر يقول أشياء مهمة كثيرة لا يستطيع الشعر قولها . وها نحن أولاء نلخّص أسباب السبق التي تحصّل عليها الشعر دون النثر .

1 ـ العرب أمة الشعر ، فهو ديوانها الذي أودعته جل رغباتها ورهباتها ولم يكن النثر سوى حلقات ربط بين الشعر والشعر ، وسوى ذلك فإنه يقال في حينه ، ولا يعلق منه في الذاكرة شيء يذكر !

2 ـ طبيعتا الشعر والنثر ، الشعر بما يمتلك من إيقاعات ومشوقات وإيماءات وجماليات يقرُّ في الذاكرة دون عناء ، أما النثر فإن طبيعته التي تغري بالإطناب المملّ (أحياناً) والإيجاز المخل ، ونأيه عن الإيقاعات المألوفة وجماليات الشعر وإغراءاته مما أسهم في إقصائه عن الذاكرة ومراكز الاهتمام !!

3 ـ ندرة العناصر التي تتقن القراءة والكتابة في العصر الجاهلي ، فكان المعوّل الرئيس على الذاكرة ، والذاكرة البشرية أقدر على حفظ الشعر من النثر فضلاً عن أن الرواة كانوا يلبّون الحاجة الاجتماعية ويمالئون ذائقة الأكثرية ، لأسباب تتصل بالنجومية والوجاهة والارتزاق .. ويبدو أن حاجة الأميّين للشعر أكثر بكثير من حاجة أولئك الذين يقرؤون ويكتبون .. وما زال الأمر حتى يومنا هذا .. فجمهور الشعر جمهور كمي وجمهور النثر جمهور نوعي ، وإذا أراد الجاهلي استثمار القلة من الكتبة ، فهو يستثمرهم في كتابة الشعر ، يقول أبو حاتم الرازي :

١ ـ كان عند آل المنذر ديوان فيه شعر الشعراء الفحول وما مدح به النعمان وآل بيته ، فصار ذلك إلى بني مروان .

ب ـ كانت الشعراء في الجاهلية بمنزلة الأنبياء في الأمم[3] .

4 ـ قال ابن رشيق :

أ ـ وقد اجتمع الناس على أن المنثور في كلامهم (العرب) أكثر ، وأقل جيداً محفوظاً وأن الشعر أقل وأكثر جيداً محفوظاً ، لأن في أدناه من زينة الوزن والقافية ما يقارب به جيد المنثور ، وكان الكلام كله منثوراً فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها وطيب أعراقها وذكر أيامها الصالحة وأوطانها النازحة ، وفرسانها الأنجاد ، وسمحائها الأجواد ، لتهتزّ أنفسها إلى الكرم ، وتدلُّ أبناءها على حسن الشّيم ، فتوهموا أعاريض ، جعلوها موازين الكلام ، فلما تم لهم وزنه سموه شعراً ؛ لأنهم شعروا به . أي فطنوا . وقيل : ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون ، فلم يحفظ من المنثور عشره ولا ضاع من الموزون عشره .

ب ـ ومن فضل الشعر أن الشاعر يخاطب الملك باسمه ، وينسبه إلى أمه ويخاطبه

---

(3) الرازي . أبو حاتم . أحمد بن حمدان ت 322 . كتاب الزينة ص 96 ، وثم 105 . طب مركز الدراسات والبحوث اليمني . صنعاء 1994 .

بالكاف كما يخاطب أقل السوقة فلا ينكر ذلك عليه ، بل يراه أوكد في المدح وأعظم اشتهاراً للممدوح . والكاتب (الناثر) لا يفعل ذلك إلا أن يفعله منظوماً غير منثور ، وهذه مزية ظاهرة وفضل بيّن .

جـ ـ ومن فضائله (الشعر) أن الكذب الذي اجتمع الناس على قبحه حسن فيه ، وحسبك ما حسّن الكذب واغتفر له قبحه .

د ـ وقيل ليس لأحد من الناس أن يطري نفسه ويمدحها في غير منافرة إلا أن يكون شاعراً .

هـ ـ إن كعب الأحبار قال له عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وقد ذكر الشعر : يا كعب ، هل تجد للشعراء ذكراً في التوراة ؟ فقال كعب : أجد في التوراة قوماً من ولد إسماعيل ، أناجيلهم في صدورهم ، ينطقون بالحكمة ويضربون الأمثال ، لا نعلمهم إلا العرب[4] .

5 ـ التصاق هموم النثر بالأمور العابرة والمشاغل اليومية بما يقرنه بالمناسبات ، فإذا دال أثر المناسبة زال أثر النثر ، أما الشعر فكانت موضوعاته في أغلبها تدور حول المرأة والمشاعر الذاتية بما يجعل أثره مستمراً ، والشعر يأنس للذات بينما يأنس النثر للموضوع !!

6 ـ يرى طه حسين أن الشعر أسبق ميلاداً من النثر الفنّي ؛ لأن الشعر لغة الإحساس والمشاعر البدائية والإشارة والإيقاع والرقص . والنثر لغة الشعور والعقل والرتابة والنضج ، والإنسان أول عهده مخلوق حسّي يفهم الحياة من جهة حواسه الخمس ، ورغباته المكبوتة ! أما نضج الإنسان فهو مرحلة لاحقة ، ولهذا فإن التعلّق بالشعر أدخل في الفطرة والطبيعة من التعلّق بالنثر .

(4) القيرواني . أبو علي الحسن بن رشيق 456 . العمدة في محاسن الشعراء وآدابه ونقده 20/1 وبعدها إلى ص 25 . طب دار الجيل ـ بيروت . طبعة رابعة 1972 .

☆ لقد ذكر في مبتدأ (مأزق الخطاب النثري الفني القبسلامي) وجهة نظرنا التي تهيأ لنا مقاربتها للمنطق العلمي ، ثم ذكرنا غب ذلك ست نقاط مثلت مسوّغات الشارع الثقافي قديماً وحديثاً لنصرة الشعر على النثر ، والشارع الثقافي دائماً يجري خلف المألوف والسائد ومن العسير عليه تغيير ثوابته وقناعته ، فاقتضى النصف العلمي ، ذكر أطروحات الفريقين .. الشعر والنثر !!

تمهيد

(أوراق النثر الفنّي)

اعتمد الإبداع الجاهلي الموهبة سبيلاً لتجلياته ، والدّربة مختبراً لجماليات الصياغتين الدلالية والجمالية ، بما أنّل لدينا أن هذا الإبداع الباذخ كان ثمرة الطبيعة والعاطفة قبل أن يكون ثمرة التكنيك والعقل ، وكانت الشعرية (بؤرة الجمال الموثر والمتأثر في النص) هاجس المبدع ، فلم يدر بخلد المبدع (الشعبي) التأثير في جمهوره العريض بالأفكار والقيم ، وإنما الذي حصل هو أن جماليات النص كانت سبيل المنتج الجاهلي إلى التأثير ، والمعضلة العلمية هي أن النقد الجاهلي لم يرق إلى مدارج السموق التي بلغها الإبداع ، فالناقد كان ملحقاً بحاشية الشاعر ، وربما ارتضى الناقد بوظيفة الراوي أو الصحيب أو النديم ، فإذا قيل لنا : ألم يكن الشعراء ملحقين بحاشية النابغة الذبياني (الناقد) في سوق عكاظ مثلاً ؟ فإن الجواب يسير ، هو أن النابغة كان شاعراً ، وإنما احتكم إليه الشعراء لنبوغه وافتراض المروءة فيه ، والنابغة الشاعر الذي ارتدى قناع الناقد في مواسم عكاظ ومجنّة لم يسلم من ثورات الشعراء على أحكامه ، فقد ناكفه حسان بن ثابت ، وأوّل نقده لقصيدته (لنا الجفنات الغرّ يبرقن في الضحى) قائم على الحسد بين الشعراء ، فردّ عليه النابغة بهدوئه المعهود : ولكنك يا ابن أخي لا تستطيع أن تقول مثلي : (وإنك كالليل الذي هو مدركي) . أما الخنساء فقد أغضبها تقويم النابغة لمنزلتها الشعرية فشاكسته وقالت له : (بل أنا أشعر منك ومن أبيك وجدك) إذن النابغة كان في حكومة عكاظ : شاعراً يقول رأيه في زملائه .

الحصيلة : ليس ثمة نقد موضوعي في العصر الجاهلي ، ولم تتشكّل أي نظرية أدبية عهد ذاك ، سوى نظريات مهلهلة بسيطة من نحو الشعر المصنوع والشعر المطبوع ،

والسرقات الشعرية ، والألفاظ والمعاني ، والتوافق بين المشبه والمشبه به ، وتطابق الوصف .. أما التنظير فهي مرحلة لم يألفها العصر الجاهلي !! الجاهليون يعرفون أشياء كثيرة ، ولكنهم لم ينظروا أو يقعّدوا !! نعم كانوا يميزون بين القصيد والرجز ويميزون الإقواء والإيطاء ويعرفون المسافة بين الشعر والنثر .

أما نظرية الأجناس ، فلم تكن معروفة عهد ذاك ، وفق أبعادها المعروفة الآن ، كانوا يقولون أن هناك فنين هما فن الشعر وفن النثر ، وهم بذلك لم يبلغوا في التجنيس شأوَ اليونانيين[5] وربما وضحت الفروق بشكل أدق في العصر العباسي فوضع عدد من نياقدة الأدب حدوداً بين الشعر والنثر بما يقرّب تلك الحدود من طبيعة التجنيس فانبرى سهل بن هارون (ت 215 هـ) والجاحظ (ت 255 هـ) ، وابن أبي عون (ت 322 هـ) ، والفارابي (ت 239 هـ) والسجستاني (ت 380 هـ) وابن هند الكاتب (ت 420 هـ) والتوحيدي (ت 421 هـ) وابن الأثير (ت 637 هـ) ، والحاتمي (ت 388 هـ) وعبد الكريم النهشلي (ت 403 هـ) والمرزوقي (ت 421 هـ) وعبد القاهر الجرجاني (ت 471 هـ) وأبو القاسم الكلاعي (ت 543 هـ) ، انبرى هؤلاء وسواهم لدراسة الشعر والنثر والنظر في أوجه الائتلاف والاختلاف بينهما . واستمرت جهود النياقدة العرب في تأصيل نوعي الشعر والنثر حتى بعد سقوط الدولة العباسية عام (656 هـ) فتصدّى ابن خلدون لهذه الإشكالية ففصل فصلاً تاماً بين الشعر والنثر[6] ولم تسلم فكرة التجنيس من الخلط واللبس حتى وقتنا هذا فثمة جنس (genre) ونوع (Kind) ونمط (type) وشكل (Form) فأيّ من هذه المصطلحات يمثل الأصل وأي منها يمثل الفرع ، هل الجنس أكبر من النوع ؟ أو النوع أكبر من الجنس ؟

---

(5) البقاعي . د . شفيق . الأنواع الأدبية ص 255 وبعدها طب مؤسسة عز الدين - بيروت 1985 .

(6) الجوزو . د . مصطفى . نظريات الشعر عند العرب الجاهلية والعصور الإسلامية طب دار الطليعة . بيروت 1981 وقد أفرد الأستاذ الجوزو الفصل الثاني لرصد (التفريق بين الشعر والنثر) وتلبث تلبّث العالم عند آراء جهرة من نياقدة الأدب وهم يجهدون لمعرفة الحدود بين الشعر والنثر .

يقول د . حاتم الصكَر : « لكننا نميل إلى التسلسل الآنف لكون الشعر جنساً قسيماً للنثر في أصلها الأدبي ، ثم انقسام الشعر إلى أنواع بحسب المهيمنة الموضوعية والأسلوبية » .

ثم يقسم الصكَر الأدب جنسين هما النثر والشعر (انظر المشجرة ص 22) . ويفرّع من هذين الجنسين أنواعاً منازة[7] ، ويقول (فان تيغم) : « ويمكننا أن نطلق على دراسة الأنواع الأدبية لفظة ـ جنولوجيا ـ أما دراستنا لهذه الأنواع فستتناول الأنواع النثرية ، الأنواع الشعرية ، الأنواع المسرحية ، ثم فن القريض الذي يشكل وحده موضوعاً قائماً بذاته ، وسنعالج أخيراً الاقتباسات في الأسلوب ولم يكن للأنواع النثرية وحتى في أوج أيام الكلاسيكية مكانة الأنواع الشعرية وأهميتها ، ولم يكن لبعضها ، ولا سيما المقدسة منها قديماً وللوهلة الأولى أي تأثيرات عالمية . جد واضحة ومع ذلك فإنها جديرة بالدراسة والبحث شأن التاريخ (الإيلوكانس) وهو من الأنواع القديمة ، المحاورة أو (الديالوج) ، وهو نوع خاص بشرح الأفكار أو مناقشتها . وفي هذا النوع سار مقلدو أفلاطون ولوسيان المحدثون على نهج بعضهم ، ثم (المحاولة) أو النوع الذي ابتكره (مونتينيه) والذي نعلم القيمة التي كانت له في إنجلترة .. وهذه التأثيرات العالمية تظهر في بعض الأنواع النثرية الأخرى بسهولة ووضوح ... إن القول بالنوع الأدبي يعني بعث صدى ضئيل بين جميع القراء الذين لا يعلمون من الأدب إلا الأدب القائم ، والذين لا يثير فيهم الأدب القديم إلا ذكريات الصفوف والكتب المدرسية المضجرة ، وحتى النُّقاد فإنهم لا يستعملون تعبير النوع الأدبي إلا في الحالات الشاذة النادرة ، وحتى الذين لا يعيشون إلا في الأدب الحالي ، فإن تعداد الأنواع الأدبية لا يثير فيهم إلا سلسلة من الأشباح ، وإن عرض تاريخ الأدب القديم ابتداء من التمييز بين الأنواع ، يعني التَّعرُّض لانتقادات شديدة . وما زالت فرنسة تعاني ألم الذكرى السيئة ،

---

(7) الصكَر . د . حاتم . مرايا نرسيس ص 20 وبعدها . طب المؤسسة الجامعية للدراسات . بيروت . 1999 .

ذكرى نظرية (برونيتيير) في تطور الأنواع ، تلك النظرية القائمة على قاعدة نظامية ، المطلقة والمبنية على وحدة ذاتية يشوبها التمويه ، قائمة بين الأنواع الأدبية والأنواع أو الأجناس البشرية . كما وإن إظهار فائدة نوع أدبي معين بدراسته دراسة تاريخية وبتحديد تحويلاته يعني الابتعاد عن (برونتيير) ، وهذا ما حمل بعض النقاد في إيطالية وألمانية ألا يروى في الأدب إلا عدداً من الطاقات والمواهب الشخصية التي تعبّر عن ذاتها بحرّية مطلقة ..)[8] . ويوضّح د . عبده عبود إشكاليات التجنيس ضمن سياقي التاريخ وحدود المصطلح ، فيقول :

« ومن الظواهر الأدبية التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالتلقي المنتج الأجناس الأدبية ، تلك الأشكال الأدبية الثابتة نسبياً ، التي تظهر بداية في أدب قومي ما ؛ ثم ما تلبث أن تنتقل إلى الآداب القومية الأخرى وتنتشر فيها بمساعدة التّلقي المنتج المؤدي إلى تأثر إبداعي .. إن علماء الأدب يميزون بين ثلاثة أجناس أدبية أساسية هي : الأدب الملحمي أو السّردي والأدب الدّرامي أو المسرحي والشعر الغنائي . وهم يقسمون كلاً من هذه الأجناس الأساسية إلى أجناس أدبية فرعية .

ففي الأدب الملحمي أو السردي كما أصبحنا نقول حديثاً ، نجد الملحمة الشعرية القديمة والرواية والأقصوصة والقصة القصيرة ، ومن الأجناس الفرعية في الأدب المسرحي : المأساة والملهاة والدراما والمسرحية الغنائية والمسرحية الشعرية والمونودراما ..

والشعر الغنائي ينقسم بدوره إلى أجناس فرعية متعددة وفقاً لشكله الفني أو أغراضه كشعر الغزل والهجاء والمدح والقصة الشعرية ، ومسألة الأجناس مسألة على درجة كبيرة من الأهمية في الأدب العربي . فهذا الأدب لم يشهد حتى أواسط القرن (19) ظهور أجناس أساسية كالأدب المسرحي بأجناسه الفرعية كافة والأجناس

(8) تيغم . ب . فان . الأدب المقارن ص 64 ـ 67 . تعريب سامي الحسامي . طب المكتبة العصرية ـ بيروت (د : ت) !!

السردية المتطورة عن رواية ، وقصة قصيرة ، وأقصوصة . ولم يعرف الأدب العربي الأجناس الدرامية أو المسرحية لأسباب تاريخية حضارية معروفة ، وإن كان التراث الشعبي قد سجل نشوء بعض الظواهر المسرحية كالأراجوز وخيال الظل ، إلا أنه لم يسجل ظهور أدب مسرحي في شكله المتطور الذي عرفته الثقافات والآداب الأوربية ! ولعل إحجام العرب عن استقبال المسرح اليوناني القديم إبان العصر الذهبي الأول لحركة الترجمة دليل قاطع على أن نشاطات الاستقبال الإبداعي تخضع لحاجات الثقافة المستقبلة في الدرجة الأولى ، أما على صعيد الأجناس القصصية أو السردية فقد شهد الأدب العربي القديم ظهور فنّ المقامة فيه ، وهو شكل جنيني من أشكال القصة القصيرة .. ومن ظواهر الأدب السردي التي ظهرت عند العرب في وقت مبكر قصص الحيوان والملاحم الشعبية والحكايات الشعبية وقصص ألف ليلة وليلة .. »[9] .

لقد اقتبسنا أعلاه عدداً من الآراء لعلها تبلّ ظمأنا لتجنيس الأدب العربي وبخاصة الأدب الجاهلي ، فلم نعثر على جهد مكرّس لدراسة هذه المعضلة العلمية ، أيمكن القول أن الإبداع الجاهلي كان معوّقاً أو مخنّثاً ؟ ويبدو أن المعضلة ستستمر ، فالنُّقاد العرب لم يتفقوا بعد على دلالات صارمة ومحددة لمقولات الجنس والنوع في أدبنا الحديث فكيف يتفقون على دلالات (صارمة ومحددة) تتصل بدائرة الإبداع الجاهلي (إن الوعي بهذه الأجناس على مستوى النقاد العرب والقراء العرب والكتاب العرب لم يبلغ بعد درجة مرضية وكافية للإقدام على تحديث هذه الأجناس ، فالنقاد العرب المعاصرون لم يستطيعوا بعد ترسيخ مفاهيمها ، ومحاولاتهم في هذا الاتجاه ما زالت محاولات مدرسية بسيطة متواضعة : محمد مندور ، عز الدين إسماعيل ، خلدون شمعة ، بالإضافة إلى محاولات كل من الأستاذين إحسان عباس ومحمد يوسف نجم وما يجمع بين هذه المحاولات خلا الشمعة هو إصرارها على نعت الجنس الأدبي بالفن الأدبي الأمر الذي أدى

(9) عبود . د . عبدة . الأدب المقارن / مدخل نظري ودراسات تطبيقية ص 227 وبعدها . طب مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية . سورية 1992 .

إلى زعزعة مفهوم الجنس الأدبي في ذهن القارئ)[10] ، وإذا كان الأمر كذلك وهو كذلك من الخلط بين مفهومات الجنس والنوع والفرع لدى النُّقاد الأجانب بله النُّقاد العرب . فضلاً عن متاهات الأدب الجاهلي في مفازات التجنيس ولسوف نركّز على جنس الشعر والنثر ، وقد مرَّ بنا جنس الشعر في الأطروحة الأولى ، لنتفرع في الأطروحة الثانية إلى جنس النثر وفروعه ! وينبغي التركيز على مصطلح النثر الفنّي (artistic prose) حتى نحترز عن إدخال النثر غير الفني الذي لا ينضوي تحت سقيفة الإبداع !! والنثر الفني جنس (genre) يحيلنا إلى تسعة أنواع (kindes) وفق الآتي :

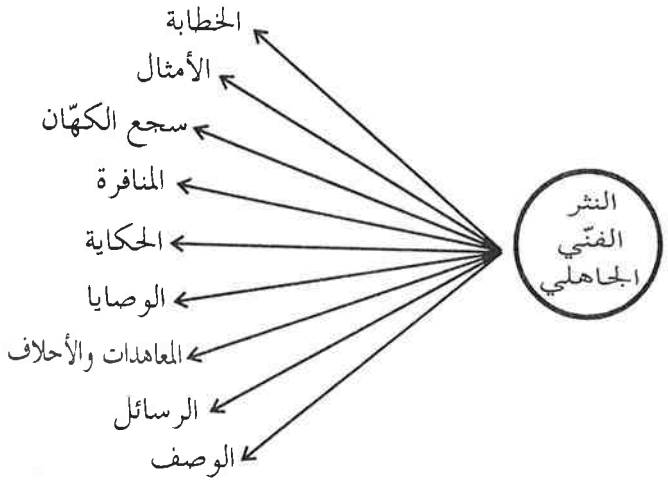

(10) اصطيف . عبد النبي . نظرة في تحديث الأجناس الأدبية ص 36 وبعدها . مجلة الناقد ـ لندن ـ العدد الثامن ـ شباط فبراير 1989 السنة الأولى .

1 ـ الخطابة :

وهي أمّ الفنون النثرية الجاهلية ، فقد ولدت وحضنت فنوناً نثرية عديدة من نحو الأمثال والمناظرات والوصايا ... إلخ .

وتستند الخطابة إلى خصائص مهمة تبتغي وفرتها في الخطيب وخطابه نذكر منها :

1 ـ الموهبة ، والاستعداد الفطري ، ومن ذلك ذكاء الخطيب ، وسرعة بديهته ؛ حتى يفهم المساحة التي تؤثّر في خطابه وتتأثر به ، والجمهور الذي يخاطبه ، والمناسبة التي تطلبت خطابه ، وحضور البديهة شيء من الذكاء ، بيد أن لها وظيفة متميزة تنقذ الخطيب من المواقف غير المتوقّعة ، ومشاكسات الجمهور كلاً أو بعضاً ، واعتراضات الزعماء والنابهين على فقار وردت في الخطاب ..

2 ـ قدرة الخطيب على شدّ انتباه جمهور الخطابة (الصعب) إلى موضوعه ، ولكل خطيب وسيلته الخاصة المبتكرة في تحشيد الانتباه لصالح موضوعه ، فضلاً عن التقاليد الناجزة المتّبعة ..

3 ـ قوة شخصية الخطيب ومنزلته في أفئدة المتلقّين ! والخطابة شيء من السيادة ، فطبيعة المتلقّين الصعبة لا تقبل أطروحات الخطيب ، ولا تمحضه الإصغاء ما لم يكن الخطيب حبيباً إلى الأفئدة ، قريباً إلى العقول ..

4 ـ هيئة الخطيب وجرأته ، وقدراته ، ومطاوعة صوته وإشاراته للمعاني التي تشغل خطابه وتقتسمه ، والمحبّذ هو أن يكون شكل الخطيب مقبولاً لخلوّه من العاهات كالعور والعرج والبرص والقصر المفرط والطول الملفت ، والهيئة لا تشفع للخطيب حتى ينجح ما لم يشفع له صوت جهوري رخيم حميم يتلوّن وفق المعاني والدلالات ، ومن نافلة القول أن يكون نطقه مبرّءاً من أسقام التّلفظ كالتمتمة والمتمتة والفأفأة والغمغمة والعي والتأتأة والثأثأة[11] ، والخطيب اللبيب يستثمر جوارحه في تقريب المعنى إلى

(11) وأن لا يكون ألثغ ولا فأفاء ولا ذا رتّة ولا تمتاماً ولا ذا حبسة ولا ذا لفف (نقد النثر 112) .

الأفهام مثل حركات العين والحاجبين والشفتين والرقبة والأطراف والجذع . ويستعمل العصا أو القوس أو الرمح أو السيف في الإشارة اللمحاحة فكان الخطيب يضبط إيقاع خطبته وإصغاء جمهوره بهذه الأدوات (العصا وسواها) .

5 ـ جرأة الخطيب في قول ما يشاء وقت يشاء وكيف يشاء ، فقد تتقاطع مقولاته مع أهواء الجمهور أو همومه أو انتماءاته ومصالحه .. دون أن يؤسس في يقين الجمهور احتراف الخطابة ، أو احتقار إرادة الآخرين ، والجرأة ليست معبراً لاحتواء الجمهور بالجلافة والوقاحة ، فمثل هذه الأمور قادرة على إعطاء نتائج عكسية تجرُّ على الخطيب وخطابه مصائب لا تحصى ..

6 ـ ثقافة الخطيب الملوّنة بعلوم زمانه من نحو : أيام العرب وأشعارهم وأمثالهم وقصصهم وأنسابهم ومقاماتهم ومواطنهم ، زد على هذه المعرفة بتعبير الرؤيا والفراسة وأساليب المجادلة ..

7 ـ يسعى الخطيب إلى التأثير في المخاطبين ، كأن يدعوهم إلى حرب أو سلم أو معاهدة ، أو نقض حلف ، أو مقاطعة ، ولن تكفي الحجة وحدها لإقناع الجمهور الصعب ذي الأهواء المختلفة والمصالح المعقدة ، ما لم يعتن الخطيب بجماليات خطبته من جهة إبهارهم بمنطلقات خطابه الموشّى بالسّجع غير المتكلَّف والمجازات المرموقة والتشبيهات المبتكرة والإسهاب غير الممل والإيجاز غير المخل ، الخطيب الناجح قادر على صناعة نصّ خطابي جميل بحيث يكون الأثر الجمالي سبيلاً للأثر الوجداني ، وينقل الجاحظ (ت 255 هـ) باقة من القناعات المتصلة بمزايا الخطيب (تخليص المعاني رفق ، والاستعانة بالغريب عجز ، والتشادق بغض ، والنظر في عيون الناس عي ، ومسّ اللحية هلك ، والخروج مما بني عليه أول الكلام إسهاب ... رأس الخطابة الطبع وعمودها الدربة ، وجناحاها رواية الكلام ، وحليها الإعراب ، وبهاؤها تخيّر اللفظ ؛ والمحبة مقرونة بقلة الاستكراه)[12] .

(12) الجاحظ . البيان والتبيين 56/1 (م . س) .

خطباء العرب

قس بن ساعدة الإيادي ، وعلقمة بن علاثة ، وعامر بن الطفيل ، وأكثم بن صيفي ، وحاجب بن زرارة ، والحارث بن عباد ، وقيس بن مسعود ، وعمرو بن الشريد ، والحارث بن ظالم ، وعمرو بن معديكرب ، الزبيدي ، وعامر بن الظّرب العدواني ، وقبيصة بن نعيم الأسدي ، وكعب بن لؤي ، وهاشم بن عبد مناف ، ولؤي بن غالب ، وعبد المطلب بن هاشم ، وأبو طالب بن عبد المطلب ، وعبيد بن الأبرص ، والحارث بن حلزّة اليشكري ، وعمرو بن كلثوم ، وعمرو بن عمار الطائي ، وضمرة بن ضمرة ، وربيعة بن حذار ، وخويلد بن عمرو ، وعبيد الجرهمي .. وسواهم كثير ..

أ ـ قس بن ساعدة الإيادي :

يقول الجاحظ : « ولإياد وتميم في الخطب خصلة ليست لأحد من العرب لأن رسول الله ﷺ هو الذي روى كلام قس ، وموقفه على جمله بعكاظ وموعظته ، وهو الذي رواه لقريش والعرب ، وهو الذي عجب من حسنه ، وأظهر من تصويبه ، وهذا إسناد تعجز عنه الأماني وتنقطع دونه الآمال ، وإنما وفق الله ذلك الكلام لقس بن ساعدة لاحتجاجه بالتوحيد ولإظهار معنى الإخلاص ، وإيمانه بالبعث ، ولذلك كان خطيب العرب قاطبة »[12] .

ويقوّم الأستاذ عمر رضا كحالة شخصية قس على هذا النحو « من أشهر خطباء العرب ، فكان يضرب به المثل في الفصاحة والبلاغة والحكمة ، فقد اعتنق النصرانية فآمن بها ، وكان يدعو في خطبه إلى نبذ الأوثان والأصنام ويدعو إلى عبادة الله . وكان أسقف نجران ، ويفد على قيصر ويحادثه ، وكان الناس يتحاكمون إليه في خصوماتهم ، فيقضي بينهم بالحق والخير ، وكان بليغ القول ، سهل الأسلوب ، متخيّر الألفاظ ، كثير

(13) م . ن 64/1 .

الحكمة والمثل ، سجعه قصير غالب على خطاباته ، وكلامه على إيجاز بعيد عن اللغو والفضول والحشو »[14] .

وقناعة الأستاذ كحالة أن قسّاً مسيحي وأسقف معاً ، يحيلنا إلى آراء الأب لويس شيخو بأن جلّ مبدعي الجاهلية نصارى !! ولسنا هنا في معرض نفي النصرانية عن قس ، ولكننا نذكّر بنبوءة قس التي وردت في خطبته المشهورة ، التي ترسّخ فكرة أن لله ديناً هو خير من دين الناس السائد ، وأن نبيّاً سيظهر وقد آن أوانه وأظل زمانه !! ويذكر ابن حبيب أن قس بن ساعدة : « حرم في الجاهلية الخمر والسكر والأزلام »[15] .

خطبة قس :

أيُّها الناس : اسمعوا وعوا ؛ وإذا سمعتم فانتفعوا ، إنه من عاش مات ، ومن مات فات ، وكلُّ ما هو آت آت ، آياتٌ محكمات ، مطر ونبات ، وآباء وأمّهات ، وذاهب وآت ، ضوء وظلام ، وبرٌّ وآثام ، لباس ومركب ، ومطعم ومشرب ، ونجوم تمور ، وبحور لا تغور ، وسقف مرفوع ، ومهاد موضوع ، وليل داج ، وسماء ذات أبراج ، مالي أرى الناس يموتون ولا يرجعون ، أرضوا فأقاموا ، أم حبسوا فناموا ؟ يا معشر إياد ، أين ثمود وعاد ؟ وأين الآباء والأجداد ؟ أين المعروف الذي لم يشكر والظلم الذي لم ينكر ؟ أقسم قسٌّ قسماً بالله إن لله ديناً هو أرضى من دينكم هذا .

في الذاهبين الأوّلين ... من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا ... للموت ليس لها مصادر
ورأيتُ قومي نحوها ... تمضي الأكابر والأصاغر

(14) كحالة . عمر رضا . الأدب العربي في الجاهلية والإسلام ص 173 . مط التعاونية . دمشق 1972 .

(15) ابن حبيب . أبو جعفر محمد الهاشمي ت 245 . المحبّر ص 238 . تح د . إيلزة ليخن شتيتر . طب المكتب التجاري بيروت .

لا يرجع الماضي ولا يبقى من الباقين غابر
أيقنتُ أني لا محالة حيث صار القوم صائر[16]

ب ـ خطبة النعمان بن المنذر في بلاط كسرى :

أصلح الله الملك ، حقّ لأمة الملك أن يسمو فضلها ويعظم خطبها وتعلو درجتها ، إن عندي جواباً في كل ما نطق به الملك في غير ردّ عليه ولا تكذيب له ، فأما الأمم التي ذكرت فأيّ أمة تقرنها بالعرب إلا فضلتها بعزّها ومنعتها ، وحسن وجوهها وبأسها وسخائها ، وحكمة ألسنتها وشدة عقولها ، وأنفتها ووفائها ، فأما عزّها ومنعتها فإنها لم تزل مجاورة لآبائك الذين دوخوا البلاد ، ووطدوا الملك ، وقادوا الجند ، لم يطمع فيهم طامع ولم ينلهم نائل ، حصونهم ظهور خيولهم ومهادهم الأرض وسقوفهم السماء وجُنتهم السيوف وعدّتهم الصبر إذ غيرها من الأمم عزّها الحجارة والطين وجزائر البحور .. وأما حسن وجوهها وألوانها فقد يعرف فضلهم في ذلك على غيرهم من الهند المنخرمة والصين المنحفة والترك المشوهة والروم المقشّرة ، وأما أنسابها وأحسابها فليست أمة من الأمم إلا وقد جهلت آباءها وأصولها وكثيراً من أولها حتى إن أحدهم ليسأل عمن وراء أبيه فلا ينسبه ولا يعرفه ، وليس أحد من العرب إلا ويسمّي آباءه أباً فأباً ، فحفظوا بذلك أحسابهم ، وحفظوا به أنسابهم ، فلا يدخل رجل في غير قومه ولا ينتسب إلى غير نسبه ، وأما سخاؤها فإن أدناهم رجلاً الذي تكون عنده البكرة والناب عليها بلاغه في حمولته وشبعه زريه ، فيطرقه الطارق الذي يكتفي بالفلذة ويجتزئ بالشربة فيعقرها له ، ويرضى أن يخرج عن دنياه كلها فيما يكسبه حسن الأحدوثة ، وطيب الذكر ، وأما حكمة ألسنتهم فإن الله أعطاهم في أشعارهم ورونق كلامهم وحسنه وزنة قوافيه مع معرفتهم بالأشياء وضربهم للأمثال وإبلاغهم في الصفات ماليس لشيء من ألسنة الأجناس ، ثم إن خيلهم أفضل الخيل ، ونساءهم أعفّ النساء ، ولباسهم أفضل اللباس ، ومعادنهم الذهب والفضة ، وحجارة جبلهم الجزع ، ومطاياهم التي لا يبلغ على مثلها

(16) الجاحظ . البيان والتبيين 293/1 (م.س) .

سفر ولا يقطع بمثلها بلد قفر ، وأما دينها وشريعتها فإنهم متمسكون به حتى يبلغ أحدهم من نسكه حدّاً أن لهم أشهراً حرماً وبلداً محرّماً وبيتاً محجوجاً ينسكون فيه مناسكهم ، ويذبحون فيه ذبائحهم ، فيلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه وهو قادر على أخذ ثأره وإدراك رغبته منه فيحجزه كرمه ، ويمنعه دينه عن تناوله بأذى[17] ..

جـ - وخطب أبو طالب بن عبد المطلب لرسول الله ﷺ في تزوّجه خديجة بنت خويلد (رضي الله عنها) فقال :

الحمد لله الذي جعلنا من ذرّية إبراهيم وزرع إسماعيل ، وجعل لنا بلداً حراماً وبيتاً محجوجاً ؛ وجعلنا الحكّام على الناس ، ثم إن محمد بن عبد الله ابن أخي ، من لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح عليه برّاً وفضلاً وكرماً وعقلاً ومجداً ونبلاً ، وإن كان في المال قُلّ فإنما المال ظِلّ زائل وعارية مسترجعة ، وله في خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ، وما أحببتم من الصّداق فعليّ[18] .

☆ أغراض الخطبة الجاهلية ومساحتها :

كثيرة هي الأغراض التي تتكفّل الخطبة بتحقيقها (منها التحريض على القتال ، والدعوة إلى السلام والوئام ، وهذا كثير عند العرب في جاهليتهم لكثرة حروبهم وكثرة ما كان بينهم من خلافات وخصومات ، ومن أغراضها : التبشير بدين جديد !! ومحاربة الفوضى والرذائل والوثنية التي سادت في العصر الجاهلي .

ومنها التعزية في عظيم من عظمائهم أو رئيس من رؤسائهم .

ومنها وفادتهم على الملوك والرؤساء للتهنئة والاستنجاد أو لتأمين سبيل أو إجازة تجارة أو التعزية أو سواها ، والخطب المأثورة فيها الكثير من ذلك .

(17) الصائغ . عبد الإله . الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنية ص 261 وبعدها . الفصل السابع / وقد وثّقنا الخطبة وأثبتنا الإحالات وذكرنا نصوصاً كثيرة من خطب العرب .

(18) المبرّد . أبو العباس محمد بن يزيد ت 285 . الكامل في اللغة والأدب 303/2 . طب مؤسسة المعارف - بيروت .

ومنها الدعوة إلى الصلح ، وفضّ الخصومات ، وجمع الكلمة .

ومنها الخطب في المحافل حين الولادة أو ما شاكل ذلك ، ومنها المفاخرة والمباهاة بعزّ العشيرة ، وشرف المحتد ، وجلال الأصل . ومنها التوصية بفعل جميل أو أدب حميد »[19] .

أما مساحة الخطبة ضيقاً أو اتّساعاً فأمرها متصل بالغرض الذي ترمي إليه الخطبة ، فيطيل الخطيب في موضع ويوجز في آخر ويتوسّط في ثالث . جاء في (نقد النّثر) :

أ ـ لا يتمثّل في الخطب الطوال التي يقام بها في المحافل بشيء من الشعر ، فإن أحبّ أن يستعمل ذلك في الخطب القصار والمواعظ والرسائل فليفعل ..

ب ـ أن يكون الخطيب عارفاً بمواقع القول وأوقاته واحتمال المخاطبين له فلا يستعمل الإيجاز في موضع الإطالة فيقصّر عن بلوغ الإرادة ، وألا يستعمل الإطالة في موضع الإيجاز فيتجاوز مقدار الحاجة إلى الإضجار والملالة .

جـ ـ إذا رأى من القوم إقبالاً عليه وإنصاتاً لقوله فأحبّوا أن يزيدهم زادهم على مقدار احتمالهم ونشاطهم ، وإذا تبين منهم إعراضاً عنه وتثاقلاً عن استماع قوله خفّف عنهم .

د ـ الإيجاز ينبغي أن يستعمل في مخاطبة الخاصة وذوي الأفهام الثاقبة الذين يجتزئون بيسير القول عن كثيره ، وبجمله عن تفسيره ، وفي المواعظ والسُّنن التي يراد حفظها ونقلها .

هـ ـ الإطالة في مخاطبة العوام ومن ليس من ذوي الأفهام[20] .

---

(19) كحالة . الأدب العربي ص 172 (م.س) . وانظر حسن . د . حسين . أدب العرب في عصر الجاهلية ص 241 (م.س) .

(20) ابن جعفر . أبو الفرج قدامة ت 337 . نقد النثر ص 96 وبعدها ، والكتاب منسوب إلى أبي عبد الله محمد بن أيوب . طب المكتبة العلمية ـ بيروت 1980 .

2 ـ الأمثال :

ترد مادة (مثل) في معجمات اللغة على نحو يؤكّد حالة من التشابه بين طرفين .

فقولنا : مَثَلَ (فتح الميم والثاء) ، ومِثْل (كسر الميم وسكون الثاء) يعني المشابهة ، والعرب تقول : ماثل الشيء أي شابهه ، ولا تكون المماثلة إلا بين المتشابهين . ومَثّل (تشديد الثاء) الشيء بالشيء تمثيلاً وتمثالاً شبهه به وقدّره على قدره ، وتمثّل الشيء تصوّر مثاله ، قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوْحَنا فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيّاً ﴾[21] [مريم : ١٧/١٩] . والمَثَل والمِثْل (فتح الميم والثاء / كسر الميم سكون الثاء) عبارات موجزة دالّة مجتزأة من كلام العرب ، تشير إلى حكاية غنية الأهمية وسيعة الانتشار اتخذتها العرب مضرباً للمثال ، تستحضرها حين يستجد جديد فيعقدون له مثلاً لوجود مشابهة بين حكاية المثل ودلالته والمستجد من الأمر ودلالته ، وقد حرص الموثّقون العرب على صيانة الأمثال الجاهلية ، وقد ألّف عيّاش العبدي وعبيد بن شرية كتباً في الأمثال[22] ، وذكر الميداني اسم الأئمة والأعلام الذين وضعوا كتباً في الأمثال : « فطالعت من كتب الأعلام ما امتدّ في تقصّيه نفس الأيام مثل كتاب أبي عبيدة ، وأبي عُبيد ، والأصمعي ، وأبي زيد ، وأبي عمرو ، وأبي فيد ، ونظرت فيما جمعه المفضل بن محمد ، والمفضل بن سلمة ، حتى لقد تصفحت أكثر من خمسين كتاباً ونخلت ما فيها فصلاً فصلاً وباباً باباً .. »[23] .

وينسب إلى قدامة بن جعفر هذا القول : « فأما الحكماء والأدباء فلا يزالون يضربون الأمثال ويبينون للناس تصرُّف الأحوال ، بالنظائر والأشباه والأشكال ، ويرون هذا النوع من القول أنجح مطلباً ، وأقرب مذهباً .. لأن الخبر في نفسه إذا كان

(21) اللسان (مثل) .

(22) ابن النديم . الفهرست ص 118 ص 130 (م.س) .

(23) الميداني . أبو الفضل أحمد بن محمد ت 518 . مجمع الأمثال 16/1 ضبط وتعليق سعيد محمد اللحام . طب دار الفكر / دار نوبليس ـ بيروت 1992 .

ممكناً فهو يحتاج إلى ما يدلُّ عليه وعلى صحته ، والمثال مقرون بالحجّة ؛ فلذلك جعلت القدماء أكثر آدابها وما دوّنته من علومها بالأمثال والقصص عن الأمم ، ونطقت ببعضه على ألسن الوحش والطير »[24] .

وقال الجاحظ : « كان الرجل من العرب يقف الموقف فيرسل عدة أمثال سائرة ، ولم يكن الناس جميعاً ليتمثَّلوا بها إلا لما فيها من الانتفاع »[25] . وقد التفت البلاغيون إلى المثل ودوره في إضفاء الجمالين على الكلام : جمال المعنى وجمال البناء ، فاجترحوا له باب الاستعارة التمثيلية ، سمّاها القزويني المجاز المركب ، وقال : « وأما المجاز المركب فهو اللفظ المركب المستعمل فيما شبّه بمعناه الأصلي تشبيه التمثيل للمبالغة في التشبيه ، أي تشبيه إحدى صورتين منتزعتين من أمرين أو أمور بالأخرى ، ثم تدخل المشبهة في جنس المشبه بها مبالغة في التشبيه فتذكر بلفظها من غير تغيير بوجه من الوجوه » ا.هـ .

وقال السيوطي : هي أن يكون وجه الشبه فيها منتزعاً من متعدد . ا.هـ .

ومن هذا اللون قوله تعالى : ﴿ والأَرْضُ جَميعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيامَةِ ﴾ [الزُّمر : 67/39] . إذ المعنى أن مَثَل الأرض في تصرُّفها تحت أمر الله وقدرته مثل الشيء يكون في قبضة أخذ له منا ، والجامع يده عليه .. والاستعارة التمثيلية لم تجر في لفظ مفرد من ألفاظ العبارة ، وإنما أجريت في التركيب كله ، وهذا هو ـ التمثيل الذي يكون مجازاً لجيئك به على حدّ الاستعارة ـ ومتى فشا هذا اللون في الاستعمال سمّي مثلاً ، ولذلك لا تغير الأمثال)[26] ، ولسوف نشرّح مثالاً جاهلياً لنتبيَّن مدى مناسبته للاستعارة التمثيلية :

---

(24) نقد النثر ص 66 (م.س) .

(25) البيان والتبيين 280/1 (م.س) . حرب . د . طلال . أولية النص (المثل الشعبي 142) . طب المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر . بيروت 1999 .

(26) مطلوب . د . أحمد . معجم المصطلحات البلاغية وتطوُّرها ص 94 ، طبعة ثانية 1996 ، (مكتبة لبنان / ناشرون) بيروت .

أ ـ (المثل) : الصيفَ ضيعتِ اللّبن .

ب ـ (المستجد) : إنك ادَّخرت صديقك للزمان الصعب ، فإذا احتجتَ إليه خذلك .. وعندها تتذكَّر المثل وتردِّده تعزية بنفسك فصديقك يصلك في السَّراء ويقطعك في الضَّرّاء .

جـ ـ (المضرب) : وجه الشبه بين المثل ومضربه يتجلّى في أن صاحب المثل افتقد شيئاً عزيزاً حين احتاج إليه ، فافتقاد اللبن في الصيف يشبه افتقاد الوفاء في الشدّة ! قارن :

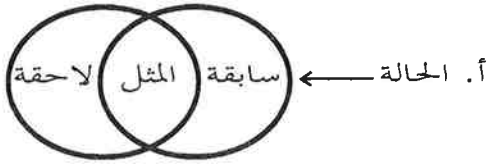

ب ـ الاستعارة التمثيلية ـــ تساوي ـــ المثل (مشبه به ظاهر) + الحالة اللاحقة : المستجدة (مشبه مستتر) .

جـ ـ القرينة المانعة ـــ تساوي ـــ دلالة اللبن المستعمل ـ ماهية اللبن (المهمل) .

ويمكن القول : إن كتاب (مجمع الأمثال) للميداني هو أوفر حظّاً من كتب الأمثال الأخرى رغم اختلاط الأمثال الجاهلية بالإسلامية .. نظراً لسهولة العقور فيه على المثل المطلوب .. فلو أردنا العثور على مثل : (إن الشَّقي وافد البراجم) أو أيّ مثال آخر .. فلسوف نهتدي إلى ضالّتنا بحسب هذا التدبير (قارن الجزء الأول) .

أ ـ فيما أوّله همزة .

ب ـ فيما جاء على أفعل من هذا (وهو لاحق بالأحرف كافة) .

جـ ـ المولدون .

د ـ فيما أوّله باء .

هـ ـ فيما أوله تاء .

و ـ فيما أوله ثاء .

ز ـ فيما أوله جيم .

ح ـ فيما أوله حاء .

ط ـ الحكاية التي أثمرت المثل يجعلها الميداني لاحقة لجلّ الأمثال ، ومن خللها نعرف موضوع المثل وزمانه .

ي ـ ترد أسماء الأعلام والأمكنة والأزمنة في ثنايا المثال أو حكايته فنستطيع تحديد زمن المثال من خلال معرفة الاسم .

ك ـ روح المثل وهمّه المركزي ، فالأمثال الجاهلية مثلاً فيها دعوة للثأر وتحذير من الناس وتذكير بتقلُّب الزمان .. والأمثال الإسلامية تتضمّن دعوة للتأمل في خلق الله والحياة والموت ، والترغيب بالجنة والترهيب من النار .. قارن المثال السابق (إن الشّقيّ وافد البراجم) ، ومن حقّنا أن نعرف انتماء هذا المثل إلى أي عصر ؟ بعد أن نعثر على موضعه في (مجمع الأمثال) ، ولنا أن نقترح الحركة التالية :

أ ـ المثال يبدأ بـ (إن) فمكانه إذن الباب الأول (فيما أوله همزة) .

ب ـ نستعرض الأمثلة التي تبدأ بالهمزة عامة وإن خاصة ، فإذا وصلنا إلى 24/1 وجدنا المثل محتفظاً برقم 6 .

جـ ـ يقول الميداني في الحكاية « قاله عمرو بن هند الملك ، وكان سويد بن ربيعة التميمي قتل أخاه وهرب ، فأحرق به مئة من تميم : تسعة وتسعين من بني دارم وواحداً من البراجم ، فلقّب بالمحرّق ، وستأتي القصة بتمامها في باب الصاد ، وكان الحارث بن عمرو ملك الشأم من آل جفنة يدعى أيضاً بالمحرّق (راء مشددة مكسورة) لأنه أول من

حرّق العرب في ديارهم ، ويدعى امرؤ القيس بن عمرو بن عدي اللخمي محرّقاً أيضاً ..

يضرب لمن يوقع نفسه في هلكة طمعاً » .

المثال الثاني : إيّاك أعني واسمعي يا جارة . (أول من قال ذلك سهل بن مالك الفزاري ، وذلك أنه خرج يريد النعمان بن المنذر .. يضرب لمن يتكلم بكلام ويريد به شيئاً غيره 69/1) .

المثال الثالث : أينما أوجّه ألقَ سَعْداً (كان الأضبط بن قريع سيّد قومه فرأى منهم جفوة ، فرحل عنهم إلى آخرين ، فرآهم يصنعون بساداتهم مثل ذلك ، فقال هذا القول ، ويروى : في كلّ واد سَعْد 74/1) .

المثال الرابع : أشأم من البسوس (هي بسوس التميمية خالة جسّاس بن مرة الشيباني قاتل كليب ، وكان من حديثه أنه كان للبسوس جار من جَرْم يقال له سعد بن شمس ، وكانت له ناقة يقال لها سراب ، وكان كليب قد حمى أرضاً من أرض العالية في أنف الربيع فلم يكن يرعاه أحد إلا ... 461/2 قارن الباب 13 فيما أوله شين / ما جاء على أفعل) .

المثال الخامس : عند الرهان يعرف السوابق (يضرب للذي يدّعي ماليس فيه 40/3) .

المثال السادس : ما يقعقع لي بالشّنان (والشّنان القرب الخالية يحركونها إذا أرادوا حثّ الإبل على السير لتفزع فتسرع ، قال النابغة :

كأنك من جمال بني أقيش يقعقع خلف رجليه بشنّ

يضرب لمن لا يتّضع لما ينزل به من حوادث الدهر ، ولا يروعه ما لا حقيقة له 305/4) .

☆ أمثلة جاهلية :

تجدر الإشارة إلى أن تداخلاً (يحدث أحياناً) بين الشعر والنثر في الأمثال الجاهلية استدعته طبيعة كلٍّ منهما ، وحاجة كلٍّ منهما إلى الآخر ، ورغبة الناس في هذا التداخل ، وقد نقرأ شعراً هو في أصله مثل نثري صيغ وفق قوالب شعرية ، وقد نجد مثلاً نثرياً أنتجه شاعر ، فحوَّلته قوانين التداول اللهجي من جنس الشعر إلى جنس النثر ، لكن الذي لا مراء فيه هو أن المثل أقرب أرومة إلى النثر وأدخل في بابته لأسباب بنيوية ..

+ على نفسها جنت براقش .
+ أحشفاً وسوء كيل .
+ أعطِ القوس باريها .
+ تجوع الحرة ولا تأكل بثديها .
+ آكل لحمي ولا أدعه لآكل .
+ المرء بأصغريه قلبه ولسانه .
+ اليوم خمر وغداً أمر .
+ خلالك الجو فبيضي واصفري .
+ إن لم يكن وفاق ففراق .
+ أجع كلبك يتبعك .
+ رمتني بدائها وانسلَّت .
+ ربّ رمية من غير رام .
+ الرباح مع السماح .
+ سبق السيف العذل .
+ بلغ السيل الزّبى .

+ زوج من عود خير من قعود .
+ العتاب قبل العقاب .
+ القول ما قالت حَذامِ .
+ الإناء يرشح بما فيه .
+ لكل جواد كبوة ، ولكل صارم نبوة .
+ لكل ساقطة لاقطة .
+ الإمارة ولو حجارة .
+ يدك منك وإن كانت شلاّء[27] .

3 ـ سجع الكهّان :

نوع آخر منتم لجنس النثر الفني ، وهو الكلام المقفّى غير الموزون ، وجاء في الموروث البلاغي حوار لَمّاح نصّه : ما السَّجع ؟

ما خفّ على السمع .

مثل ماذا ؟

مثل هذا .

والكاهن مدّع يزعم العلم بالغيب ، وسجع الكهّان ضرب من القول المزوّق الذي يعتمد الصدمة والإبهار وعجائبية الأسلوب لصناعة أثر في النفس يدعو السامع إلى تصديق ترهات الكاهن وهذيانه ، وقد حرّم الإسلام الكهانة ، فجعل حلوان الكاهن بمنزلة دية الكلب ، ومهر البغي[28] ، (وحياة العرب قبل الإسلام مسكونة باحتمالات مفزعة مثل الغزو والقحط والوباء والسيول وانجراف التربة والعواصف مما جعل قراءة المجهول وهتك الأسرار حاجة نفسية تشعر الجاهلي ببعض الاطمئنان الموهوم ، والكهنة

(27) الإبشيهي . شهاب الدين محمد بن أحمد ت 850 . المستطرف (ص 44 وبعدها .. الباب السادس ـ في الأمثال السائرة .. وفيه فصول) ، طب دار مكتبة الحياة ـ بيروت (د : ت) .

(28) مسلم . صحيح مسلم . كتاب السلام (باب تحريم الكهانة وإتيان الكاهن) 1748/4 (م.س) .

يـدّعـون أنهم يـأخـذون علمهم من الرئي أو النجـوم أو العفـاريت ! وهم أنـاس غريبـو الأطوار والأشكال والطقوس كطريفـة وسطيح وشق وعوف بن ربيعـة والـزرقـاء ابنـة زهير والزبراء الرئامية)[29] .

ويلف سجع الكهان والكهّـان ضبـاب كثيف ، أسهم في ضيـاع كثير من أخبـارهم ونصوصهم وآثارهم وأدوارهم في الحرب أو السلام ! يقول الجـاحـظ : « وكان الـذي كره الأسجاع بعينهـا وإن كانت دون الشعر في التكلف ، والصنعـة أن كهّـان العرب الـذين كان أكثر أهل الجاهلية يحتكمون إليهم ، وكانوا يدّعون الكهانة ، وأن مع كل واحـد منهم رئياً من الجن مثل حـازي جهينـة ، ومثل شق ، وسطيح ، وعزّى سلمـة ، وأشبـاههم ، وكانوا يتكهنون ويحكمون بالأسجاع »[30] .

وشق كما تذكر الأخبار كاهن جاهلي عاصر سطيح الـذئبي ، وقـد عمّر طويلاً ، أمـا هيئته فيبدو من خلالها نصف إنسـان .. لـه يـد واحـدة ورجل واحـدة وعين واحـدة ، وتوفي (55ق.هـ) .

أمـا سَطيـح فهـو كاهن جـاهلي آخر معمّر من بني مـازن .. كان لحمـاً دون عظم ، يطويه أهله مثل البساط إذا ارتحلوا !! وهذه الأخبار وسواها تحيلنـا إلى التـداخل بين الواقع والخيال ، وقد أورد د. أحمـد مطلوب معلومـات لغويـة وتـاريخيـة مهمـة تتصل بالسجع وسجع الكهان نقتطف منها :

أ ـ سجع يَسْجَع سجعـاً : استوى واستقـام وأشبـه بعضـه بعضـاً ، والسجـع الكـلام المقفّى ، والجمع أسجاع وأساجيع . وسجع يسجع سجعاً وسجّع تسجيعاً : تكلّم بكلام لـه فواصل كفواصل الشعر من غير وزن وصاحبه سجّاعـة ، وهو من الاستواء والاستقـامـة والاشتباه ، كأن كل كلمة تشبه صاحبتها ، قال ابن جني : سمّي سجعـاً لاشتبـاه أواخره

(29) الصائغ . عبد الإله . الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام (الكهانة ص 30) .

(30) الجاحظ . البيان والتبيين 278/1 (م.س) .

وتناسب فواصله وسَجَع الحمام : هدل على جهة واحدة ، وسَجْع الحمامة موالاة صوتها على طريق واحد وربط الخليل السجع بالفواصل فقال : سجع الرجل إذا نطق بكلام له فواصل كقوافي الشعر من غير وزن . ا.هـ .

وقال السّكاكي : الأسجاع وهي في النثر كما القوافي في الشعر ا.هـ .

والسجع من أوصاف البلاغة في موضعه وعند سماحة القول فيه ، وأن يكون في بعض الكلام لا كلّه ، فإنه في الكلام كمثل القافية في الشعر ، وإن كانت القافية غير مستغنى عنها في الشعر القديم ، والسجع مستغنى عنه . وقال ابن وهب : فأما أن يلزمه الإنسان في جميع قوله ورسائله وخطبه ومناقلاته ، فذلك جهل من فاعله وعي من قائله . ا.هـ .

ب ـ وقد ذمَّه بعضهم لأن الرسول ﷺ ذمّ سجع الكهان حينما قال لبعضهم منكراً عليه وقد كلّمه بكلام مسجوع : « أسجعاً كسجع الكهّان ؟ » ا.هـ .

وعلّل الجاحظ النّهي : فوقع النّهي في ذلك الدهر لقرب عهدهم بالجاهلية ولبقيتها في صدور كثير منهم ، فلما زالت العلة زال التحريم .. »[31] .

☆ سجع الكهان / ستة نصوص نموذجاً :

١ ـ قال عوف بن ربيعة لبني أسد : « يا عبادي !! قالوا لبّيك ربنا ! قال : مَن الملكُ الأصهب ، الغلاّب غير المغلّب ، في الإبل كأنها الرّبرب ، لا يعلق رأسه الصخب ؛ هذا دمه ينثعب ، وهذا غداً أوّل من يُسْلَب ، قالوا : من هو يا ربنا ، قال : لولا أن تجيش نفسٌ جاشية ؛ لأخبرتكم إنه حجر ضاحية »[32] .

2 ـ قالت الزرقاء ابنة زهير لبني قضاعة : « سعف وإهان ، وتمر وألبان ، خير من الهوان ... مقام وتنوخ ، ما وُلِد مولود وأنفقت فروخ ، إلى أن يجيء غرابٌ أبقع ،

(31) مطلوب . د . أحمد . معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ص 311 وبعدها (م.س) .

(32) الأصبهاني . الأغاني 82/9 .

أصمع أنزع ، عليه خلخالا ذهب ، فطار وألهب ، ونعق فنصب ، يقع على النخلة السحوق بين الدور والطروق ، فسيروا على وتيرة ، ودونكم الحيرة »[33] .

3 ـ وقالت الزّبراء لبني رئام قومها : « واللوح الخافق ، والليل الغاسق ، والصبح الشارق ، والنجم الطارق ، والمزن الوادق ، إن شجر الوادي ليأدوا ختلاً ويحرق أنياباً عصلاً ، وإن صخر الطود لينذر ثُكلا ، لا تجدون عنه معلا وإن وطئتم سهلا »[34] .

4 ـ قال عزّى سلمة (ونسبت لغيره) : « والأرض والسماء ، والعقاب الصقعاء ، واقعة ببقعاء ، لقد نفر المجد بني العشراء ، للمجد والسناء »[35] .

5 ـ وقال سطيح الذئبي : « عبد المسيح ، على جمل يسيح ، إلى سطيح ، وقد أوفى على الضريح ، بعثك ملك بني ساسان ، لارتجاس الإيوان وخمود النيران ، ورؤيا الموبذان . رأى إبلاً صعاباً تقود خيلاً عراباً ، قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها ، يا عبد المسيح : إذا كثرت التلاوة وبعث صاحب الهراوة ، وفاض وادي السماوة وغاضت بحيرة ساوة ، وخمدت نار فارس ، فليست الشام لسطيح شآما ؛ يملك منها ملوك وملكات ، على عدد الشرفات ، وكل ما هو آت آت »[36] .

6 ـ وقال شق بن صعب : « نعم ، رأيت جمجمة ، خرجت من ظلمة ، فوقعت بين روض وأكمة ، فأكلتْ منها كل ذات نسمة ، أحلف بما بين الحرَّتين من إنسان ، لينزلنّ أرضكم السودان ، فليغلبن على كل طفلة البنان ؛ وليملكن ما بين أبين إلى نجران ، بل بعدك بزمان ، ثم يستنقذكم منه عظيم ذو شأن ، ويذيقكم أشدّ الهوان ، غلامٌ ليس بدنيّ ولا مدنّ ، يخرج من بيت ذي يَزن ، بل ينقطع برسول مرسل ، يأتي بالحق والعدل ، بين أهل الدين والفضل ، يكون الملك في قومه إلى يوم الفصل ، يوم يجزى

---

(33) نفسه 81/13 .

(34) الجاحظ . البيان والتبيين 104/3 .

(35) نفسه 278/1 .

(36) الطبري . أبو جعفر محمد بن جرير ت 310 . تاريخ الطبري 459/1 (م.س) .

فيه الولاة ، يدعى من السماء بدعوات ، يسمع منها الأحياء والأموات ، ويجمع فيه الناس للميقات ، يكون فيه لمن اتقى الفوز والخيرات ، أي وربّ السماء والأرض وما بينهما من رفع وخفض ، إن ما نبأتك لحق ما فيه أمض »[37] .

4 ـ المنافرة :

حربٌ بين شخصين أو جماعتين ، سلاحُها الكلمات تقتضي وجود قاض مرضيٌّ عنه من المنافرين ، مشهود له بالمروءة والعدل والدربة والخبرة ، وتجري المنافرة في مساحة من الأرض تكفي لجمهورها العريض ، بينما يقف المتنافرين على مكان من الأرض مرتفع ومن تقاليد المنافرة ، القبول بحكم القاضي ، وعدم الاعتراض عليه ، وقد ينسحب أحد المتنافرين معترفاً بخسارته قبل انتهائها .. إذا شعر المتنافر المنسحب أن حجته ضعيفة وبيانه قصير وقدرته على الهجو والفخر لا ترقى إلى قدرة غريمه !

والمنافرة لغة من نَفَرَ (ثلاث فتحات) نفْراً (سكون الفاء بعد فتح النون) ، ونفوراً أي هجر مكانه وضرب في الأرض ؛ ونافره خاصمه ، وتنافى القوم تخاصموا وتفاخروا ؛ والنِّفَارة بتشديد الفاء ، هو ما يأخذه الحكم أو الغالب من المغلوب ! (اللسان / نفر) .

وقد شاعت المنافرة واستفحل ضررها قبيل الإسلام ، فإذا جاء الإسلام نهى عنها وحرَّمها ؛ وكانت العادة أن يتنافس شخصان (معروفان غالباً) على أمر يدَّعيه كل منهما لنفسه أو ينفيه عنه ، وربما تنافر الرجلان على زعامة القبيلة أو ملكية أرض أو ماء أو خطبة فتاة ، أو إثبات أمر ما ... إلخ ، فيتفق الاثنان على المبارزة بالكلمات ، أما مكان المنافرة وميقاتها والمحكَّم فيها ، فهذه أمور لها تقاليدها المتَّبعة ، فمكان المنافرة مثلاً يشترط أن يكون على أرض محايدة ، وميقاتها يتصالح عليه الخصمان متى شاءا ، شريطة أن يكون الميقات في الأشهر الحرم ، وربما حدد الحاكم كمّ الجمهور وعدده ، وفق موازنة بين جمهور هذا المتنافر وذاك ، ويفترض عدم تدخُّل الجمهور في

(37) نفسه 431/1 .

المنافرة ويكتفي بالإصغاء أو المكاء (الصفير) أو التصدية (التصفيق) ، وأحياناً يخل الجمهور بقواعد المنافرة ، فتنتقل عدوى المنافرة إليه ، فيحدث الشغب وأحياناً القتل !! وينادي المنادي (ذو الصوت الجهوري والجسد الطويل العريض) ، وهو يضرب على الطبل أو الصنج أو المزهر (أيها الناس ، حاضركم يبلغ غائبكم إن منافرة ستجري بين فلان وعلان في أرض ... يوم ...) ، فيهرع الناس إلى المكان المحدد في الوقت المحدد .. والجمهور غالباً ما يجد في المنافرة سبيلاً لتبديد أوقات الفراغ وقهر الملل ، والضحك حدّ الاستلقاء على الظهر ، وكان العقلاء وذوو المروءة والرؤية العروبية في العصر الجاهلي يمقتون المنافرة ، ويتشاءمون منها ، فقد تقود المنافرة إلى حرب عمياء بين قبيلتي المتنافرين ، أو بين أبناء القبيلة الواحدة والبيت الواحد !! فينهون عنها ، ويحذّرون منها ؛ محاولين إصلاح ذات البين بين المتنافرين ، يقول أبو حاتم الرازي (ت 322 هـ) : « فقد تنافر علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل العامريان وتحاكما إلى هرم بن قطبة الفزاري ، فاحتجز عن الحكومة بينهما ، وتوقّى القول فيهما ، وقد ساق كل واحد منهما إبلاً لينحرها عند الحكومة ، ومع عامر أعشى قيس ولبيد بن ربيعة العامري ، ومع علقمة الحطيئة ، وقد حضروا ليقول كل امرئ في صاحبه عند النفورة ؛ ويذكر فضله ليخلد على الدهر ، فلما امتنع هرم عن الحكومة انتدب الأعشى وكان أدهى من الحطيئة وأشدّ تحنكاً فقال قصيدة نفّر فيها عامراً على علقمة ، قال فيها :

علقم لا لستَ إلى عامر ... الناقع الأوتار والواتر
سدتَ بني الأحوص لم تعدهم ... وعامرٌ سادَ بني عامر
حكّمتموه فقضى بينكم ... أبلج مثل القمر الزاهر
لا يأخذ الرشوة في حكمه ... ولا يُبالي غبن الخاسر

فقام أصحاب عامر إلى الإبل فنحروها ، وقالوا نُفّر عامر ، وطارت لعامر على علقمة بقول الأعشى من غير أن يحكم بينهما هرِم . وقال الحطيئة بعد ذلك في علقمة :

فما ينظر الحكّام بالفضل بعدما بدا واضحٌ ذو غُرّة وحجول

وقال فيه أيضاً :

يا عام قد كنتَ ذا باع ومكرمة لو أن مسعاةَ من جاريْتَه أمَمُ
جاريتَ قرماً أجاد الأحوصانِ به ضخْمَ الدسيعةِ في عرنينه شمم

فلم يغن ذلك عنه شيئاً لما سبقه إليه الأعشى !! »[38] .

والمنافرة كما أشرنا نوع ينتسب إلى جنس النّثر الفني ، وهذه الإشارة غير مانعة من توشية النثر بالشعر ، فقد تدخّل الشعر ليحسم الموقف بعد أن طال المقام بالمتنافرين ، وجمهور المنافرة ، وقد أحالتنا رواية الرازي إلى ترميم النثر بومضات الشعر ، ولسوف نتلبّث عند رواية الأصبهاني على طولها ، لتكون الصورة أوضح في طموح الدارس وأقرب إلى واقع حال المنافرة ..

قال الأصبهاني : « أول ما هاج النّفار بين عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر وبين علقمة بن علاثة بن عوف بن الأحوص ، وأم عامر كبشة بنت عروة الرجال بن عتبة بن جعفر ، وأمها أم الظّباء بنت معاوية فارس الهرار بن عبادة بن عقيل ، وأمها خالدة بنت جعفر بن كلاب ، وأمها فاطمة بنت عبد شمس بن عبد مناف ، وأم أبيه ـ الطفيل ـ أم البنين بنت ربيعة بن عامر بن صعصعة ، وكانت أم علقمة ليلى بنت أبي سفيان بن هلال بن النخع سبية ، وأم أبيه ماوية بنت عبد الله بن الشيطان بن بكر بن عوف بن النخع مهيرة ، وذكر أن علقمة كان قاعداً ذات يوم يبول (كذا) فبصر به عامر ، فقال : لم أر كاليوم عورة رجل أقبح ، فقال علقمة : أما والله ما وثبت على جاراتها ولا نازلت كناتها ، يعرّض بعامر . فقال عامر : وما أنت والقروم واللهِ لفرس أبي حيوة أذكر من أبيك ولفحل أبي غيهب أعظم ذكراً منك في نجدٍ . وكان فرسه فرساً جواداً نجا عليه يوم بني مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان ، وكان فحله فحلاً

(38) الرازي . كتاب الزينة ص 103 وبعدها (م.س) .

لبني حرملة بن الأشعر ، وهو الأشعر بن صرمة ، وسمّي صرمة غيهباً لسواده ، فاستعاره منهم يستطرقه فغلبهم عليه ! فقال علقمة : أما فرسكم فعاره ، وأما فحلكم فغدرة ، ولكن إنِ شئت نافرتك فقال : قد شئت . فقال عامر : والله لأنا أكرم منك حسباً ، وأثبت منك نسباً ، وأطول منك قصباً . فقال علقمة : لأنا خير منك ليلاً ونهاراً . فقال عامر : لأنا أحبّ إلى نسائك أن أصبح فيهن منك . فقال عامر : أنافرك على أني أنحر منك للقاح ، وخير منك في الصباح ، وأطعم منك في الليلة الشياح . فقال علقمة : أنت رجل تقاتل ، والناس يزعمون أني جبان ولأن تلقى العدوَّ وأنا أمامك أعزّ لك من أن تلقاهم ، وأنا خلفك ، وأنت جواد والناس يزعمون أني بخيل ، ولستُ كذلك ولكن أنافرك أني خير منك أثراً وأحدّ منك بصراً وأعزّ منك نفراً ، وأشرف منك ذكراً . فقال عامر : ليس لبني الأحوص فضل على بني مالك في العدد ؛ وبصري ناقص وبصرك صحيح ، ولكني أنافرك على أني أنشر منك أمّة وأطول منك قمة ، وأحسن منك لَمّة ، وأجعد منك جمة ، وأبعد منك همّة .

قال علقمة : أنت رجل جسيم وأنا رجل قصيف ، وأنت جميل ، وأنا قبيح ولكني أنافرك بآبائي وأعمامي ، فقال عامر : آباؤك أعمامي ، ولم أكن لأنافرك بهم ، ولكني أنافرك أني خير منك عقباً وأطعم منك جدباً . قال علقمة : قد علمت أن لك عقباً في العشيرة وقد أطعمت طيئاً إذ سارت السنة ، ولكني أنافرك أني خير منك وأولى بالخيرات منك ، وقد أكثرنا المراجعة منذ اليوم . فخرجت أم عامر وكانت تسمع كلامهما فقالت : يا عامر نافره أيكما أولى بالخيرات . فقال عامر في مراجعته : والله لأنا أركب منك في الحماة وأقتل منك للكماة ، وخير منك للمولى والمولاة . فقال له علقمة : والله إني لبرّ ، وإنك لفاجر ، وإني لوفي وإنك لغادر ففيم تفاخرني يا عامر ؟ فقال عامر : والله إني لأنزل منك للقفرة ، وأنحر منك للبكرة ، وأطعم منك للهبرة ، وأطعن منك للثغرة ، فقال علقمة : واللهِ إنك لكليل البصر ، نكد النظر ، وثّاب على جاراتك بالسّحر . فقال بنو خالد بن جعفر ، وكانوا يداً مع بني الأحوص على بني مالك بن

جعفر : لن نطيق عامراً ولكن قل له : أنافرك بخيرنا وأقربنا إلى الخيرات وخذ عليه بالكبر . فقال علقمة كما قالوا . فقال عامر : عير وتيس وتيس وعنز (فذهب مثلاً) .. نعم على مئة من الإبل إلى مئة من الإبل يعطاها الحكم أينا نفر عليه صاحبه أخرجها . ففعلوا ذلك ، ووضعوا بها رهناً من أبنائهم على يدي رجل من بني الوحيد فَسُمّي الضمين إلى الساعة وهو الكفيل . وخرج علقمة ومن معه من بني خالد وخرج عامر فيمن معه من بني مالك ، وقد أتى عامر بن الطفيل عمه عامر بن مالك وهو أبو براء ، فقال : يا عماه أعنّي . فقال عمه : يا ابن أخي سبّني ! فقال عامر : لا أسبّك وأنت عمي ! قال فسبّ الأحوص ؛ فقال عامر : ولا أسبّ والله الأحوص وهو عمي . فقال دونك نعلي فإني قد ربعت بها أربعين مرباعاً فاستعن بها في نفارك . فجعلا (عامر وعلقمة) منافرتها إلى أبي سفيان بن حرب بن أمية فلم يقل بينهما شيئاً وكره ذلك لحالهما وحال عشيرتها . وقال : أنتما كركبتي البعير الأدرم . قالا : فأينا اليمين ؟ فقال كلاكما يمين ، وأبى أن يقضي بينهما . فانطلقا إلى أبي جهل بن هشام فأبى أن يحكم بينهما . فوثب مروان بن سراقة بن قتادة بن عمر بن الأحوص بن جعفر فقال :

يال قريش بيّنوا الكلاما ... إنا رضينا منكم الأحكاما
فبيّنوا إن كنتم حكّاما ... كان أبونا لهمُ إماما
وعبد عمرو منع الفئاما ... في يوم فخر مُعْلماً إعلاما
ودعلج أقدمهم إقداما ... لولا الذي أجشمهم إجشاما
لاتّخذتهم مذحجٌ نعاما

فأبوا (قريش) أن يقولوا بينهما شيئاً . وكانت العرب تحتكم إلى قريش . فأتيا عيينة بن حصن بن حذيفة فأبى أن يقول بينهما شيئاً . فأتيا غيلان بن سلمة بن معتب الثقفي فردّهما إلى حرملة بن الأشعر المرّي فردّهما إلى هرم بن قطبة بن سنان بن عمرو الفزاري فانطلقا حتى نزلا به وقد ساقا الإبل معهما حتى أشتت وأربعت لا يأتيان أحداً

إلا هاب أن يقضي بينهما !! فقال هرم : لعمري لأحكمن بينكما ثم لأفصلن ثم لستُ أثق إلى أحد منكما فأعطياني ميثاقاً أطمئن إليه وهو أن ترضيا بما أقول ، وتسلّما لما قضيت بينكما (فوافقا وأعطياه الميثاق) ، فأمرهما بالانصراف ، ووعدهما ذلك اليوم إلى يوم قابل . فانصرفا حتى إذا بلغ الأجل خرجا إليه ، فخرج علقمة ببني الأحوص فلم يتخلّف منهم أحد ، ومعهم القِباب والجزر والقدور ، وينحرون في كل منزل ويطعمون . وجمع عامر بني مالك فقال إنما تخاطرون عن أحسابكم فأجابوه وساروا معه ولم ينهض أبو براء معهم ، وقال لعامر : والله لا تطلع ثنية إلا وجدت الأحوص منيخاً بها ، وكره أبو براء ما كان من أمرهما . فقال عامر فيما كان من منافرتهما ، ودعا عامر إياه أن يسير معه :

أآومر أن أسبَّ أبا شريح ... ولا واللهِ أفعل ما حييت
ولا أُهدي إلى هرم لقاحا ... فيحيي بعد ذلك أو يميت
أكلّف سعْي لقمان بن عاد ... فيال أبي شريح ما لقيت

وأبو شريح هو الأحوص ، فكره كل واحد من البطنين ما بينهما ، فقال عبد عمرو بن شريح بن الأحوص :

لحا الله وفدينا وما ارتحلا به ... من السوءة الباقي عليهم وبالها
ألا إنما بُردي صفاقٌ متينة ... أبى الضيم أعلاها وأثبت حالها

فسار عامر وبنو عامر على الخيل مجنبي الإبل ، وعليهم السلاح ، فقال رجل من بني عامر : ما صنعتَ أخرجت بني مالك تنافر بني الأحوص ومعهم القباب والجزر ، وليس معك شيء تطعمه الناس ؛ ما أسوأ ما صنعت . فقال عامر لرجلين من بني عمه : أحصيا كلّ شيء مع علقمة من قبة (خيمة) أو قدر أو لقحة (ناقة) ففعلا . فقال عامر : يا بني مالك إنها المقارعة عن أحسابكم فاشخصوا بمثل ما شخصوا به ففعلوا ، وثار مع عامر لبيد بن ربيعة والأعشى ومع علقمة الحطيئة وفتيان (شعراء شباب) من بني

الأحوص منهم السندري بن يزيد بن سريح ، ومروان بن سراقة بن قتادة بن عمرو بن الأحوص ، وهم يرتجزون . فقال لبيد :

يا هرم وأنت أهل عدل إن نفر الأحوصُ يوماً قبلي
ليذهبن أهله بأهلي لا يجمعن شكلهم وشكلي
ونسلُ آبائهمُ ونسلي
إني امرؤ من مالك بن جعفر علقم قد نافرتَ غير منفر
نافرتَ سقباً من سقاب العرعر

فقال قحافة بن عوف بن الأحوص :

نهنه إليك الشعرَ يا لبيد واصدد فقد ينفعك الصدود
ساد أبونا قبل أن تسودوا سؤددكم مطرّف زهيد
إني إذا أكنّني الخباء وضاع يومَ المشهد اللواء
أنمى وقد حق لي النماء إلى كهول ذِكْرُها سناء
إذ لا يزال جلة كوماء مبقورة لسقبها رغاء
لم ينهنا عن نحرها الصفاء لنا عليكم سورة ولاء
المجد والسؤدد والعطاء
أنتم عزلتم عامر بن مالك في سنوات مضر الهوالك
يا شرّنا حيّاً وشرّ هالك

وقال السّندري شعراً ورفع صوته فقيل : من هذا ؟ فقال :

أنا لِمن أنكرَ صوتي السّندري أنا الفتى الجعد الطويل الجعفري
من ولد الأحوص أخوالي غني

فقال عامر بن الطفيل : أجبه يا لبيد . فرغب لبيد عن إجابته ، وذلك لأن السندري كانت جدته أمة اسمها عيساء .. فقال لبيد :

ولما دعاني عامر لأجيبه ... أبيتُ وإن كان ابن عيساء ظالما
لكي لا يكون السّندري نديدتي ... وأشتم أعماماً عموماً عماعما
وأنشر من تحت القبور أبوةً ... كراماً هُمُ شدّوا عليّ التمائما
لعبتُ على أكتافهم وحجورهُمُ ... وليداً وسمّوني وليداً وعاصماً
ألا أينما كان شرّاً لمالك ... فلا زال في الدنيا ملوماً ولائما

ثم وثب الحطيئة فقال :

يا عام قد كنتَ ذا باع ومكرمة ... لو أن مسعاة من جاريته أمم
جاريت قرماً أجاد الأحوصان به ... سمحَ اليدين وفي عرنينه شمم
لا يصعب الأمر إلا ريث يركبه ... ولا يبيت على مال له قسم
هابت بنو مالك مجداً ومكرمة ... وغاية كان فيها الموتُ لو قدموا
وما أساؤوا فراراً عن مجلحة ... لا كاهن يمتري فيها ولا حكم

وأقام القوم عنده (هرم بن قطبة) أياماً ، وأرسل إلى عامر فأتاه سرّاً لا يعلم به علقمة . فقال : يا عامر قد كنت أرى لك رأياً وإن فيك خيراً ، وما حبستك هذه الأيام إلا لتنصرف عن صاحبك ؛ أتنافر رجلاً لا تفخر أنت ولا قومك إلا بآبائه ؟ فما الذي أنت به خير منه ؟ قال عامر : ناشدتك الله والرحم أن لا تفضّل عليَّ علقمة ، فوالله لئن فعلت لا أفلح بعدها أبداً ، هذه ناصيتي فاجززها واحتكم في مالي فإن كنتَ لا بد فاعلاً فسوِّ بيني وبينه . قال هرم : انصرف فسوف أرى رأيي ، فخرج عامر ، وهو لا يشك أنه ينفّر علقمة عليه !! ثم أرسل هرم إلى علقمة سرّاً لا يعلم به عامر ، فأتاه فقال له : يا علقمة والله إن كنتُ لأحسب فيك خيراً ، وإن لك رأياً وما حبستك هذه الأيام إلا لتنصرف عن صاحبك ، أتفاخر رجلاً هو ابن عمك في النسب وأبوه أبوك وهو مع هذا أعظم قومك غناء وأحمدهم لقاء . فما الذي أنت به خير منه ؟ فقال له علقمة : أنشدك الله والرحم أن لا تنفّر عليَّ عامراً ، اجزز ناصيتي واحتكم في مالي ، وإن كنت

لا بد أن تفعل فسوّ بيني وبينه ، فقال : انصرف فسوف أرى رأيي ، فخرج وهو لا يشك أنه سيفضل عليه عامراً ..

وقال هرم لعامر حين دعاه : يا عامر كيف تفاضل علقمة ؟ فقال عامر ، ولِمَ يا هرم ؟ قال له : لأنه أنجل منك عيناً في النساء ، وأكثر منك نفيراً عند الدعاء . قال عامر : وهل غير هذا ؟ قال : نعم ، هو أكثر منك نائلاً في الثّراء ، وأعظم منك حقيقة عند الدعاء . وقال لعلقمة : كيف تفاضل عامراً ؟ قال : ولِمَ يا هرم ؟ قال : هو أنفذ منك لساناً وأمضى منك سناناً . قال علقمة : فهل غير هذا ؟ قال : نعم هو أقتل منك للكماة وأفكّ منك للعناة . ثم إن هرماً أرسل إلى بنيه وبني أبيه : إني قائل غداً بين هذين الرجلين مقالة فإذا فعلت فليطرد بعضكم عشر جزائر وينحرها عن علقمة ويطرد بعضكم عشر جزائر ينحرها عن عامر وفرقوا بين الناس ، لا تكون لهما جماعة . وأصبح هرم فجلس مجلسه وأقبل الناس وأقبل علقمة وعامر حتى جلسا ، فقام لبيد وقال :

يا هرم ابن الأكرمين منصبا ... إنك قد وليت حكماً معجبا
فاحكم وصوّب رأس من تَصَوّبا ... إن الذي يعلو عليها رتبا
لخيرنا عمّاً وأمّاً وأبا ... وعامر أدنى لقيس نسبا

فقام هرم فقال : يا بني جعفر قد تحاكمتما عندي ، وأنتما كركبتي البعير الأدرم ، تقعان إلى الأرض معاً ؛ وليس فيكما أحدٌ إلا وفيه ما في صاحبه ، كلاكما سيد كريم . ثم عمد بنو هرم وبنو أخيه إلى تلك الجزر فنحروها حيث أمرهم هرم عن علقمة عشراً وعن عامر عشراً ، وفرقوا الناس فلم يفضل هرم أحداً منهما على صاحبه ، وكره أن يفعل وهما ابنا عم فيجلب بذلك عداوة ويوقع بين الحيين ، وعاش هرم حتى أدرك عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فسأله عمر : يا هرم أيّ الرجلين كنت مفضلاً لوفضّلت ؟ فقال هرم : لوقلت ذلك يا أمير المؤمنين لعادت ، جذعة ولبلغت شعاف هجر . فقال

عمر : نعم مستودع السّر ومسند الأمر إليه أنت يا هرم ، مثل هذا فليسدّ العشيرة وإلى مثلك فليستبضع القوم أحكامهم ، وقد أدرك علقمة بن علاثة الإسلام فأسلم .. »[39] .

وإذا كان هرم قد تحرّج في منافرة عامر على علقمة وعلقمة على عامر فإن نفيل بن عبد العزى الذي تنافر إليه عبد المطلب وحرب بن أمية قد نفّر عبد المطّلب على حرب ، فترك ذلك جرحاً عميقاً في نفوس الأمويين حين نفّر نفيل عليهم هاشماً . فلبثت الضغناء بين الفريقين[40] .

وقال الجاحظ : إن ضمرة بن ضمرة ، وهرم بن قطبة ، والأقرع بن حابس ، ونفيل بن عبد العزى ، كانوا يحكمون وينفّرون بالأسجاع[40] . ولم تقتصر المنافرة على الرجال ، فقد تنافرت النساء أيضاً !! قارن هذه الديباجة : خرجت العجفاء بنت علقمة السعدي وثلاث نسوة من قومها ، فاتّعدن بروضة يتحدثن فيها ؛ فوافين ليلاً في قمر زاهر ، وليلة طلقة ساكنة ، وروضة معشبة خصبة ، فلما جلسن قلن : ما رأينا كالليلة ليلة !! ولا كهذه الروضة روضة أطيب ريحاً ولا أنضر ؛ ثم أفضن في الحديث فقلن : أي النساء أفضل ؟

قالت إحداهن : الخرود الودود الولود ؛

قالت الأخرى : خيرهن ذات الغناء وطيب الثناء وشدّة الحياء ؛

قالت الثالثة : خيرهن السموع الجموع النفوع غير المنوع .

قالت الرابعة : خيرهن الجامعة لأهلها ، الوادعة الرافعة ، لا الواضعة .

قلن : فأيّ الرجال أفضل ؟

قالت إحداهن : خيرهم الحظيّ الرّضيّ غير الحظال ولا التّبال .

قالت الثانية : خيرهم السيد الكريم ذو الحسب العميم ، والمجد القديم .

قالت الثالثة : خيرهم السّخيُّ الوفيُّ الذي لا يُغير الحرة ولا يتّخذ الضّرة .

(39) الأصبهاني . الأغاني (كتبخانة) 50/15 وبعدها .

(40) الجاحظ . البيان والتبيين 289/1 . ثم انظر 278/1 .

قالت الرابعة : وأبيكن إن في أبي لنعتكنّ كرم الأخلاق ، والصدق عند التّلاق والفلج عند السباق ويحمده أهل الوفاق ؛

قالت العجفاء عند ذلك : كل فتاة بأبيها معجبة . وقالت إحداهن : إن أبي يكرم الجار ، ويعظم النار ، وينحر العِشار بعد الحوار ، ويحل الأمور البار .

فقالت الثانية : إن أبي عظيم الخطر منيع الوَزَر ؛ عزيز النفر ؛ يُحْمَدُ منه الورد والصّدر .

فقالت الثالثة : إن أبي صدوق اللسان كثير الأعوان يروي السنان عند الطعان ،

قالت الرابعة : إن أبي كريم النِّزال منيف المقال كثير النوال ، قليل السؤال ، كريم الفعال . ثم تنافرن إلى كاهنة معهن في الحي فقلن لها اسمعي ما قلنا واحكمي بيننا ؛ واعدلي ؛ ثم أعدن عليها قولهن ؛ فقالت لهن : كل واحدة منكن ماردة ؛ على الإحسان جاهدة ؛ لصويحباتها حاسدة ؛ ولكن اسمعن قولي : خير النساء المبقية على بعلها ، الصابرة على الضّراء مخافة أن ترجع إلى أهلها مطلقة ، فهي تؤثر حظ زوجها على حظ نفسها ، فتلك الكريمة الكاملة ، وخير الرجال الجواد البطل ، القليل الفشل ، إذا سأله الرجل ألفاه قليل العلل ، كثير النفل ، ثم قالت الكاهن لهن : كل فتاة بأبيها معجبة[41] .

وهذه المنافرة الأنثوية ، الناعمة تعكس لنا استشراء فن المنافرة في المجتمع الجاهلي ، إلى الحد الذي يحدو بالصديقات اللواتي يخرجن للنزهة إلى التفاخر فيما بينهن ، ثم التعويل على رأي كاهنة ارتضينها حكومة للمنافرة ، كي تقول : أيهن الفائزة في المنافرة ، وانسجاماً مع الطبيعة الأنثوية ومناسبة المنافرة ، فإن الفتيات لم يلجأن إلى الهجاء والشتائم الموجعة ، فاكتفين بالفخر المستند إلى تجاربهن الخاصة ، وقيم المجتمع السائدة ، والصور المتداولة عن أفضل النساء في نظر النساء والرجال ، وأفضل الرجال في نظر الرجال والنساء معاً !! وإذا كان الأمر كذلك من الهدوء والاتّزان فإن الكاهنة

(41) الميداني . مجمع الأمثال 157/3 .

التي حكّمت بينهن لم تنفّر الواحدة على الأخريات ، بل غيّمت أحكامها ، وساوت بين المتنافرات بالأسجاع ، ولم تنس رأيها فيما رأين !!

تعتمد المنافرة ـ كما مرّ بنا ـ الفخر والهجاء معاً ، من خلال جدلية قوامها التناقض بين الخير والشّر ، الشجاعة والجبن ، الأمانة والخيانة ، احترام الجوار وهتك حرمته ، سموّ النسب وانحطاطه .. ومهمة كل منافر هي إثبات الحقيقة له ونفيها عن غريمه ، ولا تشترط المنافرة الصدق في القول ، بل طول اللسان والقدرة على المناورة والمكر إلى جمال العبارة وذكاء الإشارة ، والمصابرة والمطاولة ، ورباطة الجأش وإثخان الخصم بنصال الكلمات المسمومة ، وقد لا يصل الخصمان إلى نتيجة حاسمة في جولة واحدة ، فتطول المنافرة ، ويدبُّ الملل ، وتضجّ النساء بالبكاء لما نالهن من التعريض مثلما يضجّ الشيوخ بالشكوى ، فقد هدّمت المنافرة ما بنوح من ألفة ومجد ، والمفرح حقّاً تلك النظرة العروبية عند وجهاء القوم المرشحين للتحكيم ، وقد ذكر الأصبهاني سبعة منهم رفضوا تماماً تشجيع عامر وعلقمة على التنافر حتى لا يتشتت الشمل ، ولا تهتك الأعراض ، وتنمو الضغائن ، وهؤلاء السبعة هم هرم الفزاري ، وعامر بن مالك ، وأبو سفيان بن حرب ، وأبو جهل بن هشام ، وعيينة بن حصن ، وغيلان بن سلمة الثقفي ، وحرملة بن الأشعر المري ، بل إن عامر بن مالك (عم عامر بن الطفيل) خذل ابن أخيه وقال له ما معناه : أنا عمك وسوف أفضحك وأقول لهم إني لم أستبدل نعالي منذ أربعين سنة ، وأفهمه أن منافرته لعلقمة هي شتيمة للطرفين !! وقد شجّعت المنافرة قيام ضرب من السجع الارتجالي ، فالخصمان يتنافران بالأسجاع والحكم يحكم بالأسجاع ، كما شجعت المنافرة ضرباً من الشعر الذي يقال على الهامش ، بما يشبه الارتجال . والملاحظة الجديرة بالذكر هي أن المتنافر لا يقول الشعر وإن كان شاعراً وإنما يكون وكده ومعوّله على النثر الفني ، فعامر يقول الشعر وعلقمة كذلك ، ولكنهما اقتتلا بالنثر ولم يقتتلا بالشعر ، فالمنافرة (المتن) نصٌّ منتم إلى النثر الفني ، وربما انتصر المتنافر على خصمه بجماليات الكلام المستند إلى كسر التّوقُّع والإبهار وانتظام الجمل

وتتابعها وفق نسقية تتوالى فيها الكلمات المنتهية بإيقاعات نغمية متشابهة ، فضلاً عن ابتكار المثلبة من المتنافر ، وابتكار محقها من المتنافر الآخر ، وانتقال المتكلّم من موقع المهجو إلى موقع المفتخر مع تبادل في الأدوار ، وقد يعترف الغريم لغريمه بالفضل ليذهله عن اللاحق من القذف والإفحاش .

أما صبرنا على إيراد رواية الأصبهاني بنصّها ، فلرغبتنا في أن تتشكّل صورة المنافرة الجاهلية معزولة عن تدخلنا ، لكن ذلك لا يمنعنا من القول بوجود حالة من (الفبركة) بحيث يتسلّط أسلوب الحكاية على ترتيب الأحداث والمقولات ، زد على ذلك وجود تارات من تقديم ما حقّه التأخير وتأخير ما حقّه التقديم بسبب تعدُّد الروايات والأمالي ..

5 ـ الحكاية :

تحيلنا دلالة الحكاية اللغوية إلى دائرة تقترب من دائرة المثل دون أن تتداخل معها ، قارن : حكى فعله وحاكاه إذا فعل مثله . والمحاكاة المشاكلة ، وإذا قيل : هند تحكي الشمس حسناً وتحاكيها فذلك يعني أن هنداً تشاكل الشمس في الوضاءة . وحكى الشيء حكاية أتى بمثله وشابهه . (اللسان / حكى) ، أما الدلالة الاصطلاحية للحكاية فتدخلها في السّرد فهي « لفظ عام يدل على قصة متخيَّلة أو على حدث تاريخي خاص يمكن أن يلقي ضوءاً على خفايا الأمور أو على نفسية البشر كما يدل على أي سرد منسوب إلى راو »[42] ، والحكاية تستدرج المتلقي إلى الماضي البعيد ، أو الماضي الملاصق للحاضر ، وهي لا تلتزم حرفية ما وقع وإلا عُدّت خبراً ، لأنها تمتح من الخيال المتنقّل بين ثلاث دوائر (الراوي ، مادة الحكاية ، المتلقي) فثمة حكاية تنهل من التاريخ وأخرى من الواقع ، وثالثة من الخرافة ، ورابعة من التّوقُّع في إطار التغريب والرمز والإبهار والتخييل ، وإيهام المتلقي بحدوثها أو إمكان حدوثها ، وقد نقل الزمخشري

(42) وهبة . مجدي وكامل المهندس . معجم المصطلحات الأدبية في اللغة والأدب 152 (م.س) .

(ت 538 هـ) أن العرب كانت تسمّي راوي الحكاية (حكّاء) بالكاف المشددة بعد الحاء المفتوحة[43] ، وتخضع الحكاية بأنواعها ، إلى نسقية (تحمل مضموناً يمثل أحداثها المتعاقبة[43] ، أو متنها السّردي وتتشكل بطريقة خاصة يظهر خلالها الحكي بتسلسل خاص ... كالاستباق ، والتقديم ، والتأجيل ، والتأخير ، والتوقفات ، والفواصل السردية ، والاستهلال ، والخاتمة ، والاسترجاع ، أو تسريع السّرد ، حسب متطلبات البرنامج السردي للحكاية وأسلوب مقدمها »[44] .

والجدل بين الحكاية والمثل قائم على التبادل بين الحامل والمحمول ، فقد يكون المثل الحامل حاضنة الحكاية ، وقد يحصل العكس .. أن تولد الحكاية بوصفها حاملاً ، ثم تكون حاضنة للمثل ، ولنا أن نتصفح أي كتاب في الأمثال (مجمع الأمثال للميداني) مثلاً ، لنكتشف جدل الحكاية المثل أو المثل الحكاية !! والذي لا مراء فيه هو أن العصر الجاهلي الذي فرض على الناس نمطاً صعباً من الحياة ورتيباً أيضاً ، حبب إلى الناس الحكاية وأشاعها بينهم فكانت ملاذاً أو متنفساً يخفف عنهم ضغوطاً كثيرة ، فلا غرابة أن يكون لكل قبيلة حكاؤها الذي يحفظ أخبارها ، وينقل إليها أخبار الآخرين .. معاصرين أو غابرين بأسلوب ممتع يساعد المتلقي على التواصل والإصغاء ! ويزداد دور الحكّاء أهمية في الظروف العصيبة التي تدهم القبيلة أو المدينة أو الحي ، والحكّاء مرغوب مطلوب في السلم والحرب ، والأحلاف ، والمآتم ، والأعراس ، ومواسم الأسواق ، وقلما يصغي الناس للحكاء في النهار ميقات العمل والجد ، فثمة متّسع كاف يوفره الليل الطويل للساهرين ، ويكون من نافلة القول أن الصيف ليس فصلاً للحكاية فهو دورة السبات بالنسبة للحكاء وجمهوره ، إلا فيما ندر ، وتزداد نجومية الحكّاء سطوعاً في ليالي الشتاء حين يتحلّق القوم حول مواقد النيران في سرادقات كبيرة ! والحكاية فن شفاهي

(43) الزمخشري . جار الله محمود بن عمر . أساس البلاغة (ح ك ى) ، ص 92 . تح عبد الرحيم محمود . طب دار المعرفة . بيروت (د : ت) .

(44) الصكر . د. حاتم . مرايا نرسيس . ص 247 . طب المؤسسة الجامعية بيروت 1999 .

يمتلك قوالبه ومراميه دون أن يدّعيه مدع لنفسه ، فتطول الحكاية أو تقصر وفق متطلبات الحالة ، ويزداد أبطالها أو ينقصون استناداً إلى همومها الدلالية والجمالية ، وقد يعترك حكاءان بوسيلة غير مباشرة فالحكّاء (س) ينسج الأساطير حول بطولات قومه ، والحكّاء (ط) ينسج الأساطير ويتفنن في الأساليب ليهوّن من شأن قوم (س) .

وثمة دواع أخرى للحكايات مثل الرحلات الطويلة ، فالحكّاء يبدد عن القافلة الملل والسأم والخوف من احتمالات الخطر . ومثل اكتظاظ الأسواق في المواسم وتقصير الشعر . والخطابة عن شغل الوقت الفائض لدى زوار الأسواق أو نزلائه ، فنَفَس الشعر قصير ، ولا يستغرق وقتاً طويلاً وكذلك الخطابة .. أما الحكاء فهو قادر على سدّ أوقات روّاد الأسواق الفائضة ، تسعفه في ذلك تجربته العريضة ، ومعرفته بالناس ، ومتطلبات أمزجتهم ، وسعة خياله ، وتحكمه بطبقات صوته وحركات وجهه ويديه ..

وكثيرة هي الحكايات التي أنتجها الذهن الإبداعي الجاهلي ، فثمة حكايات مزجت الأسطورة بالواقع ، والخيال بالحقيقة من نحو حكايات عاد وثمود ، وخراب مأرب ، ونهاية دولة الحضر ، وأيام العرب (حروبها) ، ومغامرات الصعاليك ، وعجائبيات الجنّ ، وما أكثر الحكايات الجاهلية المختلقة من نحو مغامرات الغيلان والسعالي ، والعشّاق الفرسان ، واللصوص والعبيد فضلاً عن الحكايات التي تمتلك ثوابت في الواقع ، بيد أن طبيعة الفن الحكائي استدعت الحذف والإضافة والتعديل لتكون الحكاية جذابة خلاّبة .. من نحو حكاية المرقش وأسماء ليلى العفيفة والبسوس ووفاء السموءل وجزاء السنمار والنسناس والحيّة والكنز .. ومشكلة الحكاية كما مرَّ بنا أنها فنّ شفاهي مجهول المالك تأثّر وأثّر بالخيال الجمعي إضافة وحذفاً فضلاً عن أن كل قبيلة كانت تنتقي للحكايات الشائعة أبطالاً من رجالها ونسائها ، فالنص الحكائي معتمد ذاكرة الراوي قبل اعتماده على ذاكرته هو : « ولكن النص لا يعطي قيادة بسهولة تلقائية ، إن كل نص هو بالضرورة نص شرود .. ومن هنا فإن النص يتراوح ما بين الكشف والإظهار

وبين الشرود ، فيظهر منه سطح بسيط ويغور منه أعماق معقدة ؛ ولهذا فإن الدخول إلى العمق يحتاج مخاتلة النص والتّحايل عليه ، وطريقنا في ذلك هو أن نضعه بين محاور ثلاثة ، تدور حول فعل هذه الحكاية بوصفها نصّاً شاعريّاً ـ ولم أقل شعريّاً ـ وهي بذلك فعل مغاير ومختلف عن التأليف النثري ، وتدور المحاور ـ ثانياً ـ حول سؤال الأداة الفاعلة داخل الحكاية ؛ ثم سؤال الهدف المتجلي فيها .. فهو ليس نصّاً يحدث من مؤلف فرد ، ويتجه إلى جمهور مطلق ؛ ولكنه نص يحدث بالمباشرة ؛ مباشرة الخطاب ومباشرة الاستماع ؛ وهذا الاستماع ليس استماعاً سالباً واستهلاكياً ، ولكنه شرط لحدوث النص وتناميه مع تبادل الأدوار فيما بين الإنشاء والاستماع ؛ فالمنشئ يصبح مستمعاً والمستمع يتحوّل إلى منشئ في الوقت نفسه الذي تحدث فيه الحكاية ، والمبدع هنا يخاطب مبدعاً مثله .. إذ ليس لدينا مؤلف يختلف عن المتلقي ، ذاك لأن كل واحد منهما هو مؤلف ومتلق في آن واحد)[45] . وقد دوّنت الحكايات الجاهلية في النصف الأول من القرن الهجري الأول فأحسن المدونون الإسلاميون صنعاً حين اعتمدوا حكّائين جاهليين ويأتي في طليعة الحكّائين (عبيد بن شرية الجرهمي ت 67 هـ) ، ثم دوّن الكثير من الحكايات في النصف الثاني من القرن الأول .. والقرون اللاحقة ، وكان هاجس التدوين الاحتفاظ بحرفية الحكاية وقوالبها وهمومها دون تدخُّل « فدوّنوها تدويناً منظماً على نحو ما هو معروف عن أبي عبيدة في شرحه لنقائض جرير والفرزدق ؛ وتوالى من بعده التأليف فيها والعناية بها .. مما نجده مبثوثاً في تاريخ الطبري أو في السيرة النبوية لابن هشام »[46] .

وكتاب الأمثال للميداني والروض الأنف للسهيلي ومعجم البلدان لياقوت الحموي ..

---

(45) الغذامي . د . عبد الله . القصيدة والنص المضاد 124 وبعدها . طب المركز الثقافي العربي . بيروت 1994 .

(46) ضيف . د . شوقي . العصر الجاهلي ، ص 399 (م.س) .

☆ حكايات جاهلية :

١ ـ الحيّة والكنز : يحكى أن أخوين ، خرجا مسافرين ، فنزلا في ظلّ شجرة بجنب صفاة ، فلما دنا الرّواح ، خرجت لهما من تحت الصفاة حية تحمل ياقوتة فألقتها إليهما ؛ فقالا إن هذه لمن كنز هنا ؛ فأقاما ثلاثة أيام ، وهي في كل يوم تخرج لهما ياقوتة !! فقال أحدهما للآخر : إلى متى ننتظر هذه الحية ؟ ألا نقتلها ونحفر هذا الكنز فنأخذه ؛ فنهاه أخوه وقال له : ما تدري لعلك تعطب ، ولا تدرك المال ؛ فأبى عليه وأخذ فأساً ورصد الحيّة حين خرجت فضربها ضربة جرحت رأسها ولم يقتلها ، فبادرت إليه الحية فقتلته ، ورجعت إلى جحرها . فدفنه أخوه وأقام حتى إذا كان الغد ؛ خرجت الحية معصوباً رأسها وليس معها شيء ! فقال : يا هذه ؛ والله ما رضيت ما أصابك ؛ ولقد نهيت أخي عن ذلك فلم يقبل ؛ فهل لك أن تجعلي الله بيننا على أن لا تضريني ولا أضرّك ؛ وترجعين إلى ما كنتِ عليه أولاً ؟ فقالت الحية : لا . قال : ولِمَ ؟ قالت : لأني أعلم أن نفسك لا تطيب لي أبداً ؛ وأنت ترى قبر أخيك ؛ ونفسي لا تطيب بك أبداً وأنا أذكر هذه الشَّجّة[47] !

2 ـ الغريّان : كان المنذر بن ماء السماء ، قد نادمه رجلان من بنيّ ؛ فأغضباه في بعض منطقهما ؛ فأمر بأن يحفر لكلّ واحدٍ منهما حفيرة بظهر الحيرة ، ويجعلا في تابوتين ؛ ويدفنا في الحفرتين ؛ فَفُعِلَ ذلك بهما ... حتى إذا أصبح سأل عنهما !! فأخبر بهلاكهما ! فندم على ذلك واغتمّ ؛ ثم ركب المنذر حتى نظر إليهما ، فأمرَ ببناء الغريين عليهما ، فبني ، وجعل لنفسه يومين في السنة ، يجلس فيهما عند الغريين ؛ يسمّي أحدهما يوم النعيم ، والآخر يوم البؤس ، فأول من يطلع عليه يوم نعيمه يعطيه مئة من الإبل سوداً ؛ وأوّل من يطلع عليه يوم بؤسه يعطيه رأس ظَرِبان أسود[48] ، ثم يأمر به

(47) الدّميري . حياة الحيوان الكبرى 356/1 .

(48) الدُّميري . حياة الحيوان الكبرى 7/2 (الظَّرِبان) بفتح الظاء مثل القطران : دويبة فوق جرو الكلب منتنة الريح كثيرة الفسو (كذا) ، وقد عرف الظربان ذلك من نفسه فجعل ذلك سلاحاً له ، يقصد =

فيذبح ويغرى بدمه الغريين ، فلبث بذلك برهة من دهره ، ثم مرَّ به رجل من طيئ هو حنظلة بن أبي عفر ؛ فقال للمنذر وهو يطلب دمه : أبيت اللعن ؛ أتيتك زائراً ؛ ولأهلي من خيرك مائراً ؛ فلا تكن ميرتهم قتلي !! فقال المنذر : لا بدَّ من ذلك ، فاسأل حاجتك أقضها لك . فقال : تؤجلني سنة أرجع فيها إلى أهلي ، وأحكم من أمرهم ماأُريد ، ثم أصير إليك لتنفذ فيَّ حكمك ؛ فقال : ومن يكفلك حتى تعود ؟! فنظر حنظلة في وجوه جلسائه فعرف منهم شريك بن عمرو .. فأنشد يقول :

يا شريك يا ابن عمرو ... ما مِن الموت محاله
يا شريك يا ابن عمرو ... يا أخا مَن لا أخا له
يا أخا شيبان فكّ الـ ... ـيوم رهناً قد أناله

فوثب شريك وقال : أبيت اللعن ؛ يدي بيده ودمي بدمه إن لم يعد إلى أجله ؛ فأطلقه المنذر ؛ فلما كان من العام القابل جلس في مجلسه ينظر حنظلة أن يأتيه ، فأبطأ عليه فأمر بشريك فقرّب ليقتله ، فلم يشعر إلا براكب قد طلع عليهم ، فتأمّلوه فإذا هو حنظلة قد أقبل متكفّناً متحنّطاً ، ومعه نادبته تندبه ، وقد قامت نادبة شريك تندبه ؛ فلما رأى المنذر ذلك أُعجب من وفائها وكرّمهما ، فأطلقهما ؛ وأبطل تلك السُّنَّة[49] .

3 ـ زكانة العرب :.. وذلك أن نزاراً لما حضرته الوفاة ؛ جمع بنيه ؛ مضر وإياداً وربيعة وأنماراً . فقال : يا بني ، هذه القبة الحمراء (وكانت من أدم) لمضر ؛ وهذه الفرس الأدهم والخباء الأسود لربيعة ؛ وهذه الخادم (وكانت شمطاء) لإياد ؛ وهذه البَدْرة والمجلس لأنمار يجلس فيه ؛ فإن أشكل عليكم كيف تقتسمون فأتوا الأفعى

= جحر الضَّب ، وفيه حسو له وبيضه ، فيأتي أضيق موضع فيه فيسدُّه بذنبه .. حتى يغشى على الضَّب (لنتانة الظربان) فيأكله ثم يقيم في جحره حتى يأتي على آخر حسو له . وتزعم الأعراب أن أحدهم إذا صادها فلا تذهب رائحته حتى يبلى الثوب !!

(49) الأصبهاني . الأغاني (كتبخانة) 86/19 .

الجرهمي بمنزله بنجران ! فتشاجروا في ميراثه ؛ فتوجهوا إلى الأفعى ؛ فبينما هم في مسيرهم إليه إذ رأى مضر أثر كلأ قد رُعِي . فقال : إن البعير الذي رعى هذا لأعور !! قال ربيعة : إنه لأزور . قال إياد : إنه لأبتر . قال أنمار : إنه لشرود ؛ فساروا قليلاً فإذا هم برجل يَنْشُدُ جمله !! فسألهم عنه ، فقال مضر : أهو أعور ؟ قال : نعم ! قال ربيعة : أهو أزور ؟ قال : نعم ! قال إياد : أهو أبتر ؟ قال : نعم ! قال أنمار : أهو شرود ؟ قال : نعم . وهذه والله صفة بعيري فدلّوني عليه . قالوا : ما رأيناه ! قال : هذا والله الكذب ؛ وتعلّق بهم ، وقال : كيف أصدّقكم وأنتم تصفون بعيري بصفته ؟! فساروا حتى قدموا نجران ؛ فلما نزلوا نادى صاحب البعير : هؤلاء أخذوا جملي ووصفوا لي صفته ، ثم قالوا : لم نره !! فاختصموا إلى الأفعى وهو حكم العرب . فقال الأفعى : كيف وصفتموه ولم تروه ؟ فقال مضر : رأيته رعى جانباً وترك جانباً فعلمت أنه أعور ! وقال ربيعة : رأيت إحدى يديه ثابتة الأثر والأخرى فاسدته ؛ فعلمت أنه أزور !! لأنه أفسده بشدة وطئه لازوراره ! وقال إياد : علمت أنه أبتر باجتماع بعره ! ولو كان ذيّالاً لمصع به . وقال أنمار : عرفت أنه شرود لأنه كان يرعى في المكان الملتفّ نبته ؛ ثم يجوزه إلى مكان أرقّ منه وأخبث نبتاً ، فعلمت أنه شرود ! فقال الأفعى للرجل : ليسوا بأصحاب بعيرك فاطلبه .. ثم سألهم : من أنتم ؟ فأخبروه ؛ فرحَّب بهم ثم أخبروه بما جاء بهم ؛ فقال : أتحتاجون إليَّ وأنتم كما أرى !!؟ ثم أنزلهم فذبح لهم شاة ، وأتاهم بالخمر ، وجلس لهم الأفعى حيث لا يُرى وهو يسمع كلامهم ! فقال ربيعة : لم أر كاليوم لحماً أطيب منه لولا أن شاته غذيت بلبن كلبة ! فقال مضر : لم أر كاليوم خمراً أطيب منه لولا أن حبلتها نبتت على قبر ! فقال إياد : لم أر كاليوم رجلاً أسرى منه لولا أنه ليس لأبيه الذي يُدعى له !! فقال أنمار : لم أرَ كاليوم كلاماً أنفع في حاجتنا من كلامنا ؟ وكان كلامهم بأُذنه . فقال : ما هؤلاء إلا شياطين !! ثم دعا القهرمان فقال : ما هذه الخمرة وما أمرها ؟!قال له : هي حبلة غرستها على قبر أبيك لم يكن عندنا شراب أطيب منها ! وقال للراعي : ما أمر هذه الشاة ؟ قال : هي عناق

أرضعتها بلبن كلبة ؛ وذلك أن أمّها كانت قد ماتت ، ولم يكن في الغنم شاة ولدت غيرها !! ثم أتى أمّه فسألها عن أبيه ، فأخبرته أنها كانت زوجاً لملك كثير المال ؛ وكان لا يولد له !! فخفت أن يموت ولا ولد له ! فيذهب الملك فأمكنت من نفسي ابن عمّ له كان نازلاً عليه ! فخرج الأفعى إليهم فقصّ القوم عليه قصتهم وأخبروه بما أوصى به أبوهم ؟ فقال : ما أشبه القبة الحمراء من مال فهو لمضر . فذهب بالدنانير والإبل الحمر فسمّي (مضر الحمراء) لذلك ، وقال : وأما صاحب الغرس الأدهم والخباء الأسود فله كل شيء أسود ! فصارت لربيعة الخيل الدّهم . فقيل (ربيعة الغرس !) ، وما أشبه الخادم الشمطاء فهو لإياد فصار له الماشية البُلْق من الحبلّق والنقد فسمّي (إياد الشّمطاء) ، وقضى لأنمار بالدرهم وبما فضل فسمّي (أنمار الفضل) . فصدروا من عنده على ذلك ، فقال الأفعى الجرهمي : إن العصا من العصية ، وإنّ خُشَيْنا مِن أخشن ، ومساعدة الخاطل تعدٌ من الباطل[50] .

4 ـ شنٌّ وطبقة : كان رجل من دهاة العرب وعقلائهم يقال له شنّ ، فقال (في نفسه) : واللهِ لأطوّفن حتى أجد امرأة مثلي أتزوّجها ، فبينما هو في بعض مسيره إذ وافقه رجل في الطَّريق ، فسأله شنٌّ : أين تريد ؟ فقال : موضع كذا ، يريد القرية التي يقصدها شنّ ، فوافقه ، حتى إذا أخذا في مسيرهما ؛ قال له شنّ : أتحملني أم أحملك ؟ فقال له الرجل : يا جاهل أنا راكب وأنت راكب ، فكيف أحملك أو تحملني ؟ فسكت عنه شنٌّ وسارا حتى إذا قربا من القرية إذا بزرع قد استحصد ؛ فقال شنٌّ : أترى هذا الزرع أُكِلَ أم لا ؟ فقال له الرجل : يا جاهل ترى نبتاً مستحصداً فتقول : أُكِلَ أم لا ؟! فسكت عنه شنٌّ ؛ حتى إذا دخلا القرية لقيتهما جنازة فقال شنٌّ : أترى صاحب هذا النّعش حيّاً أو ميتاً ؟ فقال له الرجل : ما رأيت أجهل منك ، ترى جنازة تسأل عنها أميت صاحبها أم حي ؟ فسكن عنه شنٌّ ؛ فأراد مفارقته ؛ فأبى الرجل أن يتركه

(50) الميداني . مجمع الأمثال 30/1 ، والعصا : اسم فرس ، والعصية : اسم أمّه ! وخشين وأخشن : جبلان أحدهما صغير والآخر كبير (م.س) .

حتى يصير به إلى منزله ؛ فمضى معه ، فكان للرجل بنت يقال لها : طبقة ، فلما دخل عليها أبوها سألته عن ضيفه ؛ فأخبرها بمرافقته إياه ؛ وشكا إليها جهله ؛ وحدّثها بحديثه ، فقالت : ياأبت ما هذا بجاهل ؛

أما قوله : (أتحملني أم أحملك) فأراد أتحدّثني أم أحدّثك حتى نقطع طريقنا ؟

وأما قوله : (أترى هذا الزرع أُكِلَ أم لا) فأراد هل باعه أهله فأكلوا ثمنه أم لا ؟

وأما قوله في الجنازة ، فأراد هل ترك عقباً يحيا بهم ذكره أم لا ؟

فخرج الرجل فقعد مع شنٍّ فحادثه ساعة ، ثم قال عنه : أتحبُّ أن أفسّر لك ما سألتني عنه ؟ قال : نعم فسّرْه ، ففسّره ! قال شنٌّ : ما هذا من كلامك ؛ فأخبرني عن صاحبه ؛ قال : ابنة لي ، فخطبها إليه ؛ فزوّجه إياها ؛ وحملها إلى أهله ؛ فلما رأوها قالوا : وافق شنٌّ طبقة[51] .

5 ـ جزاء النضيرة بنت الضَّيزن : لما افترقت قضاعة ، سارت فرقة منهم إلى أرض الجزيرة ، وعليهم ملك يقال له : الضَّيزن القضاعي ، وكان ملك الجزيرة كلها إلى الشام ، فنزل مدينة الحضر ، وهي مبنية بالحجارة المهندمة بيوتها وسقوفها وأبوابها ، وفيها ستّون برجاً كباراً ، وبين البرج والبرج تسعة أبراج صغار بإزاء كل برج قصر وإلى جانبه حمام ، ويمرُّ بها نهر عظيم على جوانبه قرى وجنان ، وتصب فيه أودية كثيرة ، وكانت السفن تجري فيه ، وكانت الحضر قد بنيت وتطلسمت أن لا يقدر على فتحها ولا هدمها إلا بدم حمامة ورقاء مع دم امرأة زرقاء عارك ، فأقام الضَّيزن فيه مدة ملكاً يغير على بلاد فارس ، وما يقرب منها ، وكان يخرج كل امرأة زرقاء عارك من المدينة إلى موضع قد جعله لذلك في بعض جوانبها خوفاً (من افتضاح أمر الطَّلسم) . ثم إنه أغار على السواحل (فسبى) ماه أخت سابور الجنود بن أردشير ، فقصد سابور الجنود الحضَر غيظاً على صاحبه (ملك الحضر) لاستجرائه على أسر أخته (ماه) فنزل عليه

(51) الميداني . مجمع الأمثال 422/4 .

بجنوده سنتين لا يظفر بشيء منه حتى عركت النضيرة بنت الضَّيزن ؛ فأخرجها أبوها إلى الموضع الذي جعل لذلك وكان إلى جنب السّور ؛ وكان سابور قد هم بالرحيل ؛ فنظرت الضَّيزن ذات يوم إليه ونظر إليها سابور فعشق كل واحد منهما صاحبه ، فوجَّهت إليه تخبره بحالها ، ثم قالت : مالي عندك إن دللتك على فتح هذه المدينة ؟ فقال سابور : أجعلك فوق نسائي ، وأتخذك لنفسي ، قالت : فاعمد إلى دم امرأة زرقاء عارك ، واخلط به دم حمامة ورقاء ، واكتب به واشدده في عنق وَرَشان (طائر شبه الحمامة) فأرسله فإنه يقع على السّور فيتداعى ويتهدَّم !! ففعل سابور ذلك ؛ فكان كما قالت ، فدخل المدينة ، وقتل من قضاعة نحو مئة ألف رجل وأفنى قبائل كثيرة ، ثم سار سابور منها إلى عين التمر ؛ فعرَّس بالنضيرة هناك ، فلم تنم تلك الليلة ، وتململت على فراشها ، فقال لها سابور : أي شيء أمرّك ؟ قالت : لم أنم قط على فراش أخشن من فراشك ! فقال لها : ويلك وهل نام الملوك على أنعم من فراشي ، فنظر فإذا في الفراش ورقة آس ، فقال لها سابور : يا نضيرة بِمَ كان أبوك يغذوك ؟ قالت : بشهد الأبكار من النحل ، ولباب البُرّ ، ومخ الثّنيات ! فقال سابور : أنتِ ما وفيتِ لأبيك مع حسن هذا الصنيع ! فكيف تفين لي أنا ؟ ثم أمر ببناء عال فبني وأصعدها إليه ! وقال لها : ألم أرفعك فوق نسائي ؟ قالت : بلى . فأمر بفرسين جموحين فربطت ذوائبها في ذنبيهما ثم نُفِّرا فقطَّعاها ... وقد أشار الشاعر عدي بن زيد إلى ذلك فقال :

والحضر صُبَّتْ عليه داهيةٌ ... شديدةٌ أيدٌ مناكِبها
ربيبةٌ لم تُوَقّ والِدَها ... لحبِّها إذا ضاعَ راقِبُها
فكان حظّ العروسِ إذ جشر الـ ... صبحُ دماءً تجري سبائبها[52]

6 ـ طُرفة (التكاذب) : تكاذب أعرابيان ، فقال أحدهما : خرجت مرة على فرس لي فإذا بظلمة شديدة فيممتها حتى وصلت إليها فإذا هي قطعة من الليل لم تنتبه ، فما زلت أحمل بفرسي عليها حتى أنبهتها فانجابت . فقال الآخر : لقد رميت ظبياً مرة

(52) الحموي . معجم البلدان (الحضر) 55/2/ (م.س) .

بسهم فعدل الظَّبي يمنة فعدل السهم خلفه فتياسر الظَّبي فتياسر السهم خلفه ، ثم علا الظَّبي فعلا السهم خلفه ؛ فانحدر فانحدر عليه حتى أخذه[53] .

6 ـ الوصايا :

فنّ نثري شاع في العصر الجاهلي لحاجة المجتمع عهد ذاك إليه ، مع وجود كمٍّ متراكم من الوصايا أثَّلها الشِّعر ، والخطابة ، والأمثال ، والحكايات ، وكان من تقاليد ذلك الزمان أن ينهي العارف إلى قومه وصيّة إثر كل حدث يعتور قومه ، أو غبّ مجلس ضيافة أو سمر . والعارف متعدد الوجوه ، فقد يكون زعيم القبيلة أو كاهنها ، أو خطيبها ، أو معمِّرها ، أو حكيمها !! وربما أوصى الأب ابنه والأُمّ ابنتها ، والأخ الأكبر إخوته !! وكان للوصايا سوق ناشط في عكاظ ، وذي مجنة ، وعدن أبين ، والشحر ، يجتمع الناس حلقات حلقات حول صاحب الوصية ، وقد تتضمن خطبة الخطيب أو رواية الحكّاء أو الأمثلة عدداً من الوصايا ، على نحو ما فعله قسٌّ في سوط عكاظ !! والأمثلة وفيرة !! ويختلط الشعر بالنَّثر في فنّ الوصيّة أو النَّثر بالشِّعر ضمن بناء يلجأ فيه المنتج إلى التكثيف ، والتلميح ، والتمليح ، والتكرار ، والإشارة إلى مصائر الملوك وأقوامهم وقصورهم ، لتكون العبرة أوضح والغاية أقرب ..

1 ـ وصيّة النعمان بن ثواب الشَّنّي لابنه : يا بنيَّ إنَّ الصّارم ينبو ؛ والجوادَ يكبو ، والأثر يعفو ، فإذا شهدتَ حرباً فرأيت نارها تسعر وبطلها يخطر ، وبحرها يزخر ، وضعيفها ينصر ، وجبانها يجسر ؛ فاقلل المكث والانتظار ؛ فإن الفرار غير العار ؛ إذا لم تكن طالب ثار ؛ فإنما ينصرون هم ، وإياك أن تكون صيدَ رماحها ونطيح

(53) المبرّد . الكامل في اللغة والأدب 357/1 .

وانظر : الغذامي . د . عبد الله . القصيدة والنص المضاد ص 146 وبعدها ، ويدعو د . الغذامي إلى اعتداد التكاذيب جنساً أدبياً (ص 149 وإن كان لكل جنس وظيفة ، حسب مفهوم آيزر عن وظيفة الإشارة مما يسبب وجودها ؛ فإن التكاذيب تحمل وظيفتها ومسبب نشوئها من حيث إنها نص يفصح ويكشف وفي الوقت ذاته نص يعبّر عن حاجة إنسانية للإبداع والتَّجلي من خلال اللغة ... ويتحقق ذلك من كون اللغة استنطاقاً للمسكوت عنه ، وتشجيعاً للنفس المكسورة كي تصلح كسرها بالنّص) .

نطاحها ... يا بني لا يبخل الجواد ؛ فابذل الطارف والتّلاد واقلل التّلاح ؛ تذكر عند السماح وابل إخوانك فإن وفيّهم قليل ، واصنع المعروف عند محتمله ؛.. يا بني إن كثرة الشراب تفسد القلب ، وتقلل الكسب ، وتجد اللعب ، فأبصر نديمك ، واحم حريمك ، وأعن غريمك ، واعلم أن الظمأ القامح خير من الرّي الفاضح ، وعليك بالقصد فإن فيه بلاغاً[54] .

2 ـ وصية أم لابنتها : إن الفتى يغيّرك وإن الشيخ يميّرك ، وليس الكهلُ الفاضل ، الكثير النائل كالحديث السّن الكثير المنّ .. أي بنيّة إن الفتى شديد الحجاب كثير العتاب ... ثكلتك أُمُّك ، تجوع الحرّة ولا تأكل بثديها[55] .

3 ـ وصية عامر بن الظّرب إلى خطيب ابنته صعصعة بن معاوية : يا صعصعة ؛ إنك أتيتني تشتري مني كبدي ، وأرحم ولدي عندي ، أبغيتك أو رددتك ، والحسيب كفء الحسيب ، والزوج الصالح أب بعد أب ، وقد أنكحتك خشية أن لا أجد مثلك أفرّ من السّر إلى العلانية ، أنصح ابناً وأودِع ضعيفاً قوياً . يا معشر عدوان ، خرجت مِن بين أظهركم كريمتكم من غير رهبة ولا رغبة ؛ أقسم لولا قَسْم الحظوظ على قدْر المجدود ما ترك الأول للآخر ما يعيش به[56] .

4 ـ الملك المنذر يوصي ابنه النعمان : إيّاك واطّراح الإخوان ، واطّراف المعرفة ؛ وإياك وملاحاة الملوك ومازحة السفيه ؛ وعليك بطول الخلوة ؛ والإكثار من السّمر ، والبس من القِشْر ما يزيّنك في نفسك ومروءتك ؛ واعلم أن جماع الخير كله الحياء ،

---

(54) الميداني . مجمع الأمثال 95/1 .

(55) نفسه 56/1 .

(56) الجاحظ . البيان والتبيين 442/2 .

السجستاني : المعمرون والوصايا ص 48 ، قال عامر بن الظّرب لملك الغساسنة : « إن لي كنز علم وإن الذي أعجبك من علمي ، إنما هو من ذلك الكنز أحتذي عليه ، وقد خلّفته خلفي .. فأذن لي كي أرجع إلى بلادي فآتيك به » .

فعليك به ، وتواضع في نفسك ، وانخدع في مالك ، واعلم أن السكوت عن الأمر الذي يعنيك خير من الكلام ، فإذا اضطررت إليه فتحرَّ الصدق والإيجاز تسلم[57] .

5 ـ نصيحة أكثم بن صيفي : إن أفضل الأشياء أعاليها ، وأعلى الرجال ساداتها ، وأفضل السادة أعمقها نفعاً ، وخير الأزمنة أخصبها ، وأفضل الخطباء أصدقها ، الصدق منجاة ، والكذاب مهواة ، والشَّر لجاجة ، والحزم مركب صعب ، والعجز مركب وطيء ، وآفة الرأي الهوى .. شرّ البلاد بلاد لا أمير بها ؛ وشرّ الملوك من خافه البريء ، أحقُّ الجنود بالنصر من حسنت سريرته ، يكفيك من الزاد ما بلغك المحل ، حسبك من شرّ سماعه ، الصّمت حكم وقليل فاعله[58] .

ويذكر ابن هشام أن بعض الجاهليين توفروا على مجلة لقمان المتضمّنة عدداً من الوصايا وإذا صحّ ذلك ، فإن سوق الوصايا كان ماتحاً من التجربة والمدوّنات معاً !! (قدم سويد بن صامت مكة حاجّاً فتصدى له رسول الله ﷺ ، فدعاه إلى الإسلام فقال له سويد : فلعلَّ معك الذي معي ، فقال الرسول ﷺ : وما الذي معك ؟ قال : مجلة لقمان . فقال رسول الله ﷺ : اعرضها عليَّ ، فعرضها عليه . فقال له : إن هذا لكلام حسن ، والذي معي أفضل من هذا ؛ قرآن أنزله الله تعالى عليَّ . وقال : إن هذا لقول حسن ، ثم انصرف عنه ، فلم يلبث أن قتلته الخزرج)[59] .

وقد تخفف الوصية عن قلب المفجوع أو الجازع شيئاً من أعباء الفجيعة والجزع حين تتداخل الوصية مع الحكمة .

فقد حكي أن بعض المتقدّمين من الملوك فجع بولده الوحيد الذي هيّأه ليحلّ

---

(57) الجاحظ . البيان والتبيين 1031/4 .

(58) الصائغ . عبد الإله . الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنّية ص 273 .
السجستاني : المعمرون والوصايا ص 17 وبعدها . كتب ملك هجر إلى أكثم بن صيفي أن ينصحه ويوجز . فكتب إليه : « إن أحمق الحمق الفجور وأمثل الأشياء ترك الفضول » .

(59) هارون . عبد السلام محمد . تهذيب سيرة ابن هشام ص 92 . (م.س) .

محلّه ، فاستعان بالعارف كي يقول شيئاً ، فقال له العارف : « أيها الملك إن أنصفت عقلك من نفسك فقد علمت أن التعزية كانت في نفس التهنئة به ، أما قيل لك : طوّل الله عمره لعلمهم بقصره وإن طال ! أما قيل لك : جعله الله خلفاً صالحاً ؟ والخلف لا يكون إلا لتلف عن تالف ، متى رأيت عيشاً إلى دوام ، وفرحاً إلى تمام ؟ أيّ غنىً لم يخف معه العدم ، وبناءٍ لم ينله الهدم ؟ وأيّ فرحة لم تمزج بتَرحة ؟ متى رأيت مسرّة لم تتبعها مضرّة ؟ إن الدنيا نادت فأسمعت ، وبيّنت فأوضحت ، لأن سرورها بشرورها ، مزحت وغرّت وخدعت ، وأرضعت ففطمت !! متى رأيت شيئاً من مليحها هذّبته عن قبيحها ؟ هل دخلت قصراً إلا كانت كنُفُه قبل غرفه ؟ وبلدة إلا تلقاك قبورُها قبل دورها ؟ متى رأيت ضاحكاً لم يعد باكياً ؟ وشاكراً لها لم يعد شاكياً ؟ أُفٌّ لعقل حجبته الشهوات ، وخدعته الشُّبهات » .

وقال الحكيم : « العاقل مَن عقل لسانَه ، والجاهل من جهِل قدره . إذا تمّ العقل نقص الكلام »[60] .

7 ـ المعاهدات والأحلاف .

8 ـ الرسائل :

إذا كان التاريخ قد حدّثنا بالتفصيل عن أحلاف الجاهليين ، ومعاهداتهم والرسائل المتبادلة ، فتلبث عند العهود بين القبائل والأسواق والمدن ، كما تلبّث عند الأسباب التي سوّغت تدوين المعاهدات والأحلاف والرسائل والظروف التي سبقت ذلك أو رافقته أو لحقته ! إلا أن التاريخ لم يدقّق في النصوص لتركيزه على دلالة النص قبل حرفيته ، ونحن هنا معنيون بحرفية النص قبل دلالته ، فآثرنا الإشارة إلى هذه الإشكالية ، ولم نشأ ذكر النصوص بعد أن تأيّد لنا اهتمام مدوّنيها بدلالتها قبل حرفيّتها كما أشرنا ..

---

(60) ابن منقذ . الأمير أسامة ت 584 . لباب الآداب ص 461 . طب دار الكتب العلمية . بيروت . 1980 .

وللباحث عن نصوص المعاهدات والأحلاف والرسائل ، فهي مبثوثة في كتب الأدب وها نحن أولاء نذكر مقطعاً من المصادر والمراجع المتصلة بإشارتنا هذه :

1 ـ ابن الكلبي (ت 204 هـ) : أ ـ الأصنام . ب ـ الخيل .

2 ـ أبو عبيدة (ت 209 هـ) : أ ـ أيام العرب . ب ـ العقفة والبررة .

جـ ـ النقائض .

3 ـ ابن هشام (ت 218 هـ) : السِّيرة النَّبوية .

4 ـ ابن حبيب (ت 245 هـ) : أ ـ المحبر . ب ـ المغتالون .

5 ـ السَّجستاني (250 هـ) : المعمرون والوصايا .

6 ـ الجاحظ (ت 255 هـ) : البيان والتبيين .

7 ـ البخاري (ت 256 هـ) : صحيح البخاري .

8 ـ مسلم (ت 261 هـ) : صحيح مسلم .

9 ـ ابن قتيبة (ت 276 هـ) : أ ـ المعارف . ب ـ الأنواء .

10 ـ المبرّد (ت 285 هـ) : الكامل .

11 ـ المسعودي (ت 306 هـ) : مروج الذهب .

12 ـ الطَّبري (ت 310 هـ) : تاريخ الرسل والملوك .

13 ـ ابن عبد ربه (ت328 هـ) : العقد الفريد .

14 ـ الأصبهاني (ت 356 هـ) : أ ـ الأغاني . ب ـ مقاتل الطالبيين .

15 ـ القالي (ت 356 هـ) : الأمالي .

16 ـ المرزوقي (ت 421 هـ) : الأزمنة والأمكنة .

17 ـ السهيلي (ت 581 هـ) : الروض الأنف .

18 ـ ابن الأجدابي (ت 650 هـ) : الأزمنة والأنواء .

19 ـ ابن خلكان (ت 681 هـ) : وفيات الأعيان .

20 ـ ابن منظور (ت 711 هـ) : لسان العرب .

21 ـ الفيروزأبادي (ت 816 هـ) : القاموس المحيط .
22 ـ محمود الآلوسي (ت 1342 هـ) : بلوغ الأرب .
23 ـ كتب الأحاديث النَّبوية الشَّريفة وكتب
23 ـ كتب تفاسير القرآن الكريم ، وكتب الأحاديث النَّبوية الشَّريفة .
24 ـ د . جواد علي . المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام .
25 ـ د . ناصر الدين الأسد . مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ..
26 ـ د . سعيد الأفغاني : الأسواق العربية .

9 ـ الوصف :

الوصف فنّ نثري راق ، اهتمَّ به المبدع الجاهلي وجمهوره اهتماماً كبيراً ؛ فمن خلال هذا الفنّ ، توفرنا على أثمن المعلومات المتصلة بالعصر الجاهلي ، واقتربنا من ذائقة العصر وحساسيته !

فنّ الوصف أجابنا عن أسئلة كثيرة ، بعضها شائك !!

كيف تتشكَّل العبارة ؟ وتتخلَّق الصورة ؟

وبأي الوسائل والمرجعيات كانوا ينظرون إلى الجمال والقبح ، والخضرة والغبرة ، والقصور والقباب والتزويق ؟!!

وما العناصر التي تضمن استفزاز عواطف الجاهلي ورضاه أو نفوره ؟!

كل ذلك في عبارة جزلة واضحة ، تستثمر السَّجع الهادئ التلقائي وتستحضر الشعر المعزَّز اللَّماح ... ولم نعثر على نصوص وصفية طويلة ، فنحن غالباً قبالة نصوص ضيقة المساحة تقول المعنى الكثير في اللفظ القليل ، وربما طال اللفظ وضاق المعنى ، وما كان ذلك ليكون بمعزل عن الدواعي الجمالية ..

1 ـ أعرابي يصف رجلاً : « كان صغير القدر ؛ قصير الشبر ، ضيق الصدر ، لئيم النجر ، عظيم الكِبر ، كثير الفخر ..)[61] .

2 ـ جليلة تصف مأساتها : « ثكْل العدد ؛ وحزن الأبد ؛ وفقْد حليل ، وقتل أخ عن قليل ؛ وبين ذين غرْس الأحقاد ، وتفتّت الأكباد »[62] .

3 ـ الخاطبة تصف جمال ابنة عوف بن محلم لملك كندة : « جبهة كالمرآة الصقيلة ؛ يزينها شعر حالك ؛ إن أرسلته خلته السلاسل ؛ ومع ذلك حاجبان كأنهما خطّا بقلم ؛ قد تقوّسا على مثل عين العبهرة التي لم يرعها قانص ؛ في بياض محض كالجمان ، شقّ فيه فم كالخاتم ، لذيذ المبتسم ، فيه ثنايا غرّ تبدو كالدر وريق له نشر الروض بالسّحر ؛ تحت ذاك عنق كإبريق الفضة ركّب في صدر تمثال ، دمية يتّصل به عضدان ، ممتلئان لحماً مكتنزان شحماً ؛ وذراعان ليس فيهما عظم يحسّ ولا عرْق يُجسّ »[63] .

4 ـ وصف البرد : « ريح جريباء في طلّ عماء في غبّ سماء »[64] .

5 ـ وصف الحرّ : « إذا طلعت الجوزاء ، حميت المعزاء ، واكتنست الظّباء ، وانتصبت العود في الحرباء »[65] .

6 ـ حاجب بن زرارة يصف العرب : « إن العرب أمة غلظت أكبادها ، واستحصدت مرّتها ؛ ومنعت درّتها ، وهي العلقم مرارة ، والصّاب غضاضة ، والعسل حلاوة ، والماء الزلال سلاسة »[66] .

7 ـ قال المنذر الأكبر يصف جارية : « .. معتدلة الخلق ، نقية اللون والثغر ؛

(61) الجاحظ . البيان والتبيين 273/1 .

(62) جاد المولى وأصحابه . أيام العرب في الجاهلية ص 149 .

(63) ابن عبد ربه . العقد الفريد 104/7 .

(64) الجاحظ . البيان والتبيين 284/1 .

(65) قطرب . الأزمنة وتلبيات الجاهلية 24 .

(66) الصائغ . عبد الإله . الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنّية ص 273 .

بيضاء قراء وطفاء ، كحلاء دعجاء حوراء عيناء قنواء شماء ؛ برجاء زجاء ؛ أسيلة الخد ، شهية المقبل ، جثلة الشعر ، عظيمة الهامة ، بعيدة مهوى القرط ؛ عبطاء ، عريضة الصدر ، كاعب ، ضخمة حشاش المنكب والعضد ، حسنة المعصم ؛ لطيفة الكفّ ، سبطة البنان ، ضامرة البطن ، خميصة الخصر ، غرثى الوشاح ؛ قطوف المشي ، مكساب الضحى ، سموع للسيد ، ليست بخنساء ولا سعفاء ، رقيقة الأنف عزيزة النفر ، لم تغذ في بؤس ؛ حيية رزينة ؛ حليمة ركينة ، كريمة الخال ، قد أحكمتها الأمور في الأدب ، صناع الكفّين قطيعة اللسان ؛ رهوة الصوت ساكنته ، تزين الولي وتشين القصي »[67] .

8 ـ قال مهلهل لقومه : « وقد أتت على حربكم أربعون ، وما لمتكم على ما كان من طلبكم بوِتْركم ؛ فلو مرّت هذه السّنون في رفاهية عيش لكانت تُملّ من طولها ، فكيف وقد فني الحيّان وثكلت الأُمهات ، ويُتّم الأولاد ، وربّ نائحة لا تزال تصرخ في النواحي ؛ ودموع لا ترقأ ؛ وأجساد لا تدفن ؛ وسيوف مشهورة ؛ ورماح مشرعة ، وإن القوم سيرجعون إليكم غداً بمودّتهم ومواصلتهم ، وتتعطف الأرحام حتى تتواصلوا .. »[68] .

9 ـ شيخ يصف حاله : « يسبقني من أمامي ويدركني مَن خلفي ، وأذكر القديم وأنسى الحديث ، وأنعس في الملا ، وأسهر في الخلا ، وإذا قمت قربت الأرض مني ، وإذا قعدت تباعدت عني »[69] .

10 ـ رجل يصف النساء : « النساء أربع ؛ فمنهن معمع لها شيئها أجمع ، ومنهن تبع تضرّ ولا تنفع ، ومنهن صدع تفرّق ولا تجمع ، ومنهن غيث همع إذا وقع ببلد أمرع »[70] .

---

(67) جاد المولى وأصحابه . أيام العرب في الجاهلية 200 .

(68) نفسه ص 164 .

(69) الجاحظ . البيان والتبيين 96/2 .

(70) ابن قتيبة . عيون الأخبار (كتاب النساء) 3/1 .

خصائص النّثر الفنّي الجاهلي

ثمة دائماً خصائص تستنبط من النّص الإبداعي بوصفه فعلاً استثنائياً ، تتمحور حول المهيّن الدّلالي والجمالي ، لتميّز جنسه ونوعه ، ولا يمكن افتراض جنس أدبي أو نوع دون خصائص . والنثر الفني على تعدُّد أنواعه جنس متميّز بخصائصه ، وللدارس ملاحظة خصائص كلّ نوع مثل : الخطابة ، الأمثال ، سجع الكهّان ، المنافرة ، الحكاية ، الوصايا ... إلخ ، أو ملاحظة خصائص النثر الفنّي بعامة ، وذلك يمثل المقترحات التي وصلنا إليها ، وكانت بهيئة خصائص تميّز النّثر الفني الجاهلي بعامّة :

1 ـ وحدة الموضوع : فالنّص ينطلق من الموضوع إليه ، ليرسب في وجدان المتلقّي الجاهلي الصعب !! وصعوبة المتلقّي ناجمة عن روحه الفرداني واضطراب نزوعاته وتناقص قدراته على الإصغاء ، كلما طال النّص أو تشعّبت أجزاؤه ، والنّص النّثري حريص تماماً على كسب انحياز المتلقّي لأُطروحته ..

2 ـ قصر النّص بشكل عام إذ لا تزيد الخطبة الطويلة أو الوصية المتشعّبة أو السجع المتواصل مثلاً عن أربع صفحات (فولسكاب) ، وفي هذا دراية مناسبة لطبيعة الحياة الجاهلية ومشاغلها ، وذلك لا يعني عدم وجود نصوص طويلة ، إذ لا بدّ من افتراض استمرار الحكاية من المساء إلى ساعات طويلة ، أو استمرار الخطبة في مناسبات معينة لوقت طويل وكذلك الشأن مع المنافرة ، لكن الاتجاه العام للنثر الفني هو الاختصار وقصر النص بسبب من طبيعتي : النّثر الفنّي الجاهلي ومتلقّيه .

3 ـ قصر الجملة داخل النّص النّثري ، وتماسك الوشائج بين أجزائها ، وقيامها على التّقابل والتّضاد والسّجع وتناغم مخارج الحروف ، بغية شدّ انتباه المتلقّي المتميّز بالشُّرود والنُّفور ..

4 ـ الدعوة إلى الاعتبار بمصائر الأولين ، الذين سادوا وتجبَّروا ، ثم بادوا . فلبثت آثارهم تدلُّ عليهم ، وإن الأعمار مهما طالت فهي قصيرة ومستعارة ، والأيام مهما ابتسمت فهي غادرة ، لا يأمنها عاقل ، والغاية الأم من ذلك هو تحبيب القيم النبيلة (الأمانة ، الصدق ، الرحمة ، النظافة ..) فضلاً عن أن الإشارة إلى الأوّلين مما يشدّ انتباه المتلقّي ، الذي يمرّ بآثارهم ويتجوّل فيها مبهوراً ..

5 ـ المبالغة في الوصف لإظهار الهمّ المركزي للنص ، فكلّ صغير يكبر ، وكل كبير يصغر من جهة تظهير المعالم الغاطسة واستثمار مرجعيات المتلقّي المحدودة واستنفار مواجعه وطموحاته ، والمتلقّي الجاهلي ميّال للمبالغة ؛ لأن ذائقته معتادة على أساليب الشعر ، ومنحازة إلى الشعر ، فولاؤه للشعر ، ولن يعطي شيئاً من ولائه للنّثر دون مسوّغات تقنعه ..

6 ـ تطريز النّص النّثري الفنّي بالشّعر ، باعتداد الشّعر الفنّ الأكثر سطوعاً وشيوعاً ، زِد على هذا أن أكثر مبدعي النّثر الفنّي هم شعراء أو نظّامون ماهرون ، مع وجود جاهزية لقوالب الشّعر والنّثر ، متداولة بين المبدعين ؛ والمتلقّي عنصر فاعل يسهم في إنتاج النّص النّثري ، وإذا كان الأمر كذلك ، فهو لا يغفر للنّاثر الذي يغفل دور الشعر في طيّ المنشور ، ونشر المطوي ، وشدّ أجزاء النّص النّثري إلى همومها المركزية .

7 ـ استثمار جاذبية الصورة الفنّية لإيقاظ الذاكرة الجمالية للحواس ، فثمة ألوان وروائح وأنغام وذائقات ، والنّص حريص على أن لا يقع في المألوف والمكرر ، والمنافسة بين مبدعي النّثر شديدة ، والمبدع المنتصر المتفوّق هو المبدع الذي يمتد على مساحة واسعة من الجمهور ..

8 ـ ميل النّص النّثري إلى الإدهاش والإبهار ، من خلال الادّعاء بقراءة المجهول ، وكشف المستور ، والتعبير عن مشاغل الناس وما التقابل والتّضاد ، والمفارقة والمعلومة

الجديدة ، والسجع ، وأسلوب الحكاية ، والاستعانة بالشعر أو الأساطير ، إلا رغبة أكيدة يختزنها النّص النّثري لإدهاش المتلقّي بعجائبية المعنى والشكل معاً ..

9 ـ ورود بعض تفصيلات البحور الصافية من نحو فاعلاتن الرمل ومستفعلن الرّجز ومفاعيلن الهزج ...! ويلاحظ ذلك مثلاً في خطبة الإيادي (أيها الناس اسمعوا) (إنه من عاش مات) !!

وفي الأمثال من نحو : (وافق شنٌّ طبقة) ، و (الصّيف ضيّعت اللبن) . وفي سجع الكهّان والأمثلة كثيرة !! ونعلّل هذه الظاهرة بطبيعة اللغة العربية ، فهي لغة إيقاع ، يبث الانسجام في الجمل والكلمات والحروف والدلالات . حتى قيل : إن رجل الشارع لونادى بائع الفجل (يا بائع الفجل أقبل) فقد اتّبع ميزان المجتثّ دون أن يتقصّد ذلك فضلاً عن أن بعض الأمثال المنثورة إنما هي صدور أو أعجاز من أبيات شعرية ، وقد ينسى البيت ، ويلبث المثل ، زِد على ذلك التاريخ المشترك من حيث البدايات والنشأة بين الشعر والنثر .. ولا نحسب أن الذاكرة الشعبية التي أنتجت المثل كانت قد خططت لتفعيل (من التفعيلة) الفنون النّثرية ، وإنما هي الجاهزية والقوالبية التي مرّت بنا في الحديث عن الشّفاهية .

مصادر الأدب الجاهلي ومراجعه
(تأصيل وإضاءات)
جريدة المصادر والمراجع

أولاً ـ مصادر الأدب الجاهلي ومراجعه (تأصيل وإضاءات) :

يتعذّر على الدارس الإفادة المباشرة من دلالتي (صدر) و (رجع) في المعجمات العربية وهو يؤصّل المصدر والمرجع !! فالإبل مثلاً كانت ترد المياه في المورد والواردة ، ثم تترك الغدير أو النّبع ، وتصدر عنه إلى موضع آخر !!.. وصدر الأمر صدْراً (سكون الدال) وصدوراً أي وقع وتقرر ، ونشأ وصدر عن كذا أي استمدّ منه ؛ وصدر عن الماء وعن البلاد من باب نصر وأصدره فصدر : أي رجّعه فرجع ، والموضع مصدر ؛ ومنه مصادر الأفعال . والصدر أول كل شيء وأعلى مقدمه حتى إنهم ليقولون : صدر النهار والليل . قال الأعشى :

وتشرق بالقول الذي قد أذعته كما شرقت صدر القناة من الدم

والصدر الطائفة من الشيء .

قال ابن الأعرابي : الْمَصّدر برفع الميم وتشديد الصاد المنصوبة من الخيل هو السابق ! قال الطُّفيل الغنوي في فرسه :

كأنه بعدما صدّرن من عرق سِيدٌ تمطّر جنح الليل مبلول

والتّصدير : حزام الرحل والهودج ، والصدر نقيض الورد والعجز .. وقوله تعالى : ﴿ حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ﴾ [القصص : ٢٣/٢٨] ، معناه حتى يصدر الرّعاء

إبلهم ، ثم حذف المفعول ، والصَّدَر بالتحريك : رجوع المسافر من مقصده ، والشاربة من الورد ؛ وفي الأمثال : « ماله صادر ولا وارد » ، أي : ماله شيء . وطريق صادر معناه أنه يصدر بأهله عن الماء ، والصدور الانصراف عن الورد وعن كل أمر ، والصدر هو اليوم الرابع من أيام النَّحر لأن الناس يصدرون فيه عن مكة إلى أماكنهم ، صدروا عن المكان : رجعوا عنه ، وصدروا إلى المكان صاروا إليه[1] ، فمادة صدر إذن تتمحور حول الأولية والعلو والانطلاق من ..!!

أما مادة (رجع) فتعني الانصراف إلى ...!! قوله تعالى : ﴿ إنَّ إلى رَبِّكَ الرُّجْعى ﴾ [العلق : ٨/٩٦] . أي الرجوع والمرتجع ؛ والإرجاع العودة ، قوله تعالى : ﴿ رَبِّ ارْجِعونِ ☆ لَعَلِّي أعْمَلُ صالِحاً ﴾ [المؤمنون : ٩٩/٢٣ ـ ١٠٠] ، أي ردّوني إلى الدنيا ؛ وترجيع الصوت ترديده ، ورجْع (سكون الجيم) الواشمة خطّها ، قال لبيد :

أو رجع واشمة أُسِفّ نؤورُها كففا تعرّض فوقهن وشامها

ويقال للإياب من السفر : سفر رجيع . وراجعه الكلام مراجعة ورجاعاً أي حاوره إياه ؛ والمراجعة المعاودة ؛ وكل شيء مردَّد فهو رجيع !!

قال الأعشى :

وفلاةٍ كأنّها ظهْر ترس ليس إلا الرّجيع فيها عِلاق

والرّاجعة : الغدير يتردد فيه الماء ، والرّجع محبس الماء والمطر أيضاً لأنه يتردد قوله تعالى : ﴿ والسَّماء ذاتِ الرَّجْعِ ﴾ [الطّارق : ١١/٨٦] ، فمادة رجع[2] تفيد التّردد على ..!!؛ وموضع للماء يتردّد عليه والعودة إلى ..

وهكذا يتّضح من مادّتي (صدر ، رجع) أنهما متقاربتان في المستوى الدّلالي ، مع أن للمادة الواحدة انحرافات كثيرة عن تمحورها الدّلالي ، وهذه الانحرافات لا تتضادّ مع الأسس !! فإذا كان الأمر كذلك من الاختلاط الدّلالي ؛ فإن ثمة إشكالات أخرى

(1) اللّسان (صدر) .

(2) نفسه (رجع) .

لحقت مفردتي (مصدر ، مرجع) على الصعيد الاصطلاحي ، وقد شكا كثير من الدارسين من هذا الخلط والتماهي والانزياح .. وقد أهمل الأساتذة أحمد حسن الزّيات ومحمد علي النّجار وإبراهيم مصطفى وحامد عبد القادر مفردة (مصدر) في معجمهم الوسيط تماماً !! واكتفوا بالقول في (المرجع : ما يرجع إليه في علم أو أدب من عالم أو كتاب .. محدثة !!)[3] .

والدكتور ناصر الدين الأسد لم يؤصّل مصطلح (مصادر) على الرغم من أنه عنوان كتابه ، ولم يشر في العنوان إلى المراجع ، فكأن (مصدر) تتضمّن (مرجع)[4] !!

أما معجم المصطلحات العربية فقد تغافل عن (مرجع ، مصدر) كأنهما مصطلحان غير مهمّين[5] !!

وقد ابتدأ د . عز الدين إسماعيل (الباب الأول ـ في المصادر والمراجع) تأصيله بإيراد رأيين ، الأول لمحمد عجاج الخطيب اقتبسه من كتابه : (المكتبة والبحث والمصادر) ص 122 ، والآخر للطاهر أحمد مكي اقتبسه من كتابه : (دراسة في مصادر الأدب) ص 102 . ولم يشأ د . إسماعيل محاورة الرأيين ، واكتفى بالقول : « ومع أن الحدود بين المصدر والمرجع تبدو ـ على هذا النحو ـ واضحة وحاسمة ، فإن هناك حالات يصعب فيها تقرير ما إذا كان الكتاب مصدراً أم مرجعاً » .

ثم نتساءل كيف بدت الحدود بين المصدر والمرجع (واضحة وحاسمة) . وقد ألحق عبارته بقوله : « فكتب الطبقات ومعاجم اللغة تعدُّ عند علماء المكتبات من المراجع في حين تحتوي هذه الكتب على كثير من المادة الأصلية . فهل هي مراجع ومصادر في وقت واحد ؟ ومن جهة أخرى فإن كتاباً مثل شرح ديوان الحماسة الذي صنعه

(3) إبراهيم مصطفى وآخرون . المعجم الوسيط (رجع / صدر) ، طبعة دار الدعوة / تركيا .

(4) الأسد . مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية (م.س) .

(5) وهبة . مجدي وصاحبه . معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب (انظر حرفي الرّاء والصادّ) .

أبو تمام ، وهو مادة أصلية ، وشرح المرزوقي ؛ وهو بمثابة تفسير لهذه المادة ، فهل يعدُّ هذا الكتاب مصدراً أم مرجعاً أم مصدراً ومرجعاً معاً ؟ »[6] .

ويحسن في هذا المقام إيراد الرأيين اللذين اعتمد عليهما د . عز الدين إسماعيل ، وبنى أحكامه مقاربة لهما .

الرأي الأول للأستاذ محمد عجاج الخطيب (المصدر هو كل كتاب تناول موضوعاً وعالجه معالجة شاملة عميقة ، أو هو كل كتاب يبحث في علم من العلوم على وجه الشمول والتَّعمُّق ، بحيث يصبح أصلاً لا يمكن لباحث في ذلك العلم الاستغناء عنه ، كالجامع الصحيح للبخاري وصحيح مسلم ، هما أصلان ومصدران في الحديث النَّبوي ، بينما تعدُّ كتب الأحاديث المختارة ، كالأربعين النَّووية ، من المراجع في ذلك . وككتاب الكامل للمبرِّد ، وصبح الأعشى للقلقشندي ، فهي أصول ومصادر في الأدب ، وغيرها مما أخذ عنها مرجع . ومثل هذا نقول في تاريخ الطبري وسيرة ابن هشام ، كلها أصول ومصادر في بابها أو استمدَّ منها مرجع في بابه)[7] .

الرأي الآخر للأستاذ الطاهر أحمد مكي (فالمصدر أصدق ما يكون حين يطلق على الآثار التي تضمُّ نصوصاً أدبية ، شعراً أو نثراً ، لكاتب واحد أو مجموعة من الكتاب ، لشاعر فرد أو لطبقة من الشعراء أو لخليط من كتّاب وشعراء وخطباء ، رويت هذه الآثار شفاهاً أو دوِّنت في كتب ، أو نقِشت على الأبنية ، ووصلتنا دون تعليق على النص أو تفسير له دون تمهيد له أو تعليق عليه .. أما المرجع فهو يساعد على فهم النص الأدبي وتوضيحه وتفسيره وتقويمه)[8] . أما الدكتورة حكمت كشلي فقد صنعت

(6) إسماعيل . د . عز الدين . المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي ص 53 وبعدها .

(7) الخطيب . محمد عجاج . المكتبة والبحث والمصادر ص 122 نقلاً عن د . عز الدين إسماعيل . المصادر الأدبية واللغوية ص 53 .

(8) مكي . الطاهر أحمد . دراسة في مصادر الأدب ص 102 نقلاً عن د . عز الدين إسماعيل . المصادر الأدبية واللغوية ص 54 .

لطلبتها ملزمة جعلت عنوانها : (المصادر الأدبية واللغوية) معتمدة على كتابيها[9] ، وكتاب آخر هو : (المصادر الأدبية واللغوية) د . عز الدين إسماعيل ، ولم تشأ إبداء رأي في مصطلحي (المصادر والمراجع) وهي الأستاذة القديرة ، وإنما أوكلت الأمر للآراء التي أوردها د . عز الدين إسماعيل من خلال توليفه لآراء عدد من المختصين ، وإنما يتحرَّج المختصون من وضع حدود بين مصطلحي (مصدر ، مرجع) بسبب من التداخل والاختلاط ..

ونحن لا نزعم أننا سنحسم الأمر ، ونقول شيئاً قصَّر عنه سوانا أو أحجم ، فمثل هذا الزعم بعيد تماماً عن المروءة العلمية التي وضعناها منهجاً لأعمالنا ، وحبراً لقلمنا ، وإنما هي مقترحات نضعها بين يدي المصطلحين رغبة في تظهير الحدود ، وتمييز الوظائف المصدر : المؤسسة الأم التي تتضمَّن معلومات أساسية تتصل بشغل الباحث ، ونقول شغل الباحث ، لنحترز بهذا القول ، فإذا اعتمد شغلك على كتاب ، فذلك هو مصدرك ، وقد يكون مصدرك ثانوياً في شغل سواك ، فعندها لن يكون مصدرك مصدراً له ..

والمصدر إما أن يكون كتاباً أو إجازة أو إملاء أو مخطوطة أو كاسيت فيديو ، أو كاسيت ريكوردر ، أو دسك كمبيوتر ، أو صفحة في الأنترنيت .. وهذه أهم سمات المصدر التي نقترحها :

1 ـ أن يكون الكتاب الأمّ ذا المعلومات الرئيسة .

2 ـ أن يكون أقرب عهداً للشاعر أو النّاثر أو الحادثة أو الظاهرة .

3 ـ سعة المعلومات وعمقها وصدقها .

4 ـ أن يكون محور شغل الباحث أو الدارس .

(9) فواز . د . حكمت كشلي . لسان العرب لابن منظور ، دراسة وتحليل ونقد . طبعة دار الكتب العلمية . بيروت .
فواز . د . حكمت كشلي . كتاب العين للخليل الفراهيدي دراسة معجمية لغوية ، طب دار الكتب العلمية . بيروت .

فإذا أردنا دراسة امرئ القيس مثلاً .. فديوانه المصدر الأول وكتاب الأغاني المصدر الثاني ، وهذا الحال لا يختلف في دراسة بدر شاكر السَّياب مثلاً .. فالمصدر هو دواوينه الشعرية وكتاباته ودراسة الدكتور إحسان عباس لبدر هي المصدر الثاني .

والمرجع : مؤسسة أقل أهمية من المصدر ، تتوفر على معلومات مساعدة تضيء عتمات المصادر ، وتحاور تعددية الآراء القديمة أو المحدثة في شأن من شؤون المصدر ، والمرجع قد يكون كتاباً مطبوعاً أو مخطوطة أو إجازة أو إملاء ، أو كاسيت فديو ، أو كاسيت ريكوردر ، أو دسك كمبيوتر ، أو صفحة في الأنترنيت .

وإذا أردنا دراسة الأعشى الكبير مثلاً ، فديوانه مصدر ، وكتاب الصبح المنير في شعر أبي بصير شرح ثعلب تحقيق رودولف حاير مصدر . أما كتابا : أساليب الصناعة في شعر الخمرة والناقة بين الأعشى والجاهليين / د . محمد محمد حسين . وكتاب الأعشى الأكبر / فؤاد أفرام البستاني ، فهما مرجعان .. وإذا أردنا دراسة الشاعرة الرائدة فدواوينها وكتاباتها مصادر . أما كتاب د . عبد الرضا علي : نازك الملائكة الناقدة وكتاب د . بدوي طبانة : أدب المرأة العراقية في القرن العشرين ، وكتاب يوسف الصائغ : الشعر الحرّ في العراق منذ نشأته حتى (1958) فهي مراجع .. وربما انقلبت الآية .. فإذا كان الباحث مشتغلاً على منهج نازك الملائكة في قراءة النّص الشّعري فسيكون كتاب د . عبد الرضا علي مصدراً ، وإذا أردنا دراسة الشعر الحرّ في العراق فسيكون كتاب يوسف الصائغ مصدراً .. والأمر موكول كما رأينا بماهية الكتاب وصلته بموضوع البحث .

ثانياً ـ جريدة المصادر والمراجع (إشارات) :

1 ـ جلّ الجريدة هو مظانّ الأدب الجاهلي (الشعر والنثر) مصادراً ومراجع وما تبقى ، وهو ضئيل كتب مساعدة وما الغرابة في ذلك ؟ فما بكتب الأدب الجاهلي وحدها يمكن دراسة الأدب الجاهلي !! فثمة كتب نافعة من نحو مقدمة في أدب العراق القديم وملحمة جلجامش والأدب السومري وكتب الإيقاع والأدب الحديث العراقي أو المصري أو اليمني أو أي قطر عربي آخر وكتب قراءة العقل والحضارة والأساطير .. هذه الكتب تبدو على السطح غير ذات صلة بالأدب الجاهلي ، بيد أنها تسهم في توضيح أمور جزئية للكاتب والقارئ معاً ، وتعمل على رسم المشهد العام لجهد الباحث وأمانته في ردّ الفضل إلى أهله ، ومن خلال المقايسة والموازنة والمجاورة والمحاورة يمكننا إضاءة عتمات كثيرة ..

ثانياً : لم نعزل مظانّ الشعر عن مظانّ النثر ، لوجود التداخل الذي أشرنا إليه غير مرة في كتابنا هذا ، فكتاب البيان والتبيين (مثلاً) أطروحة مهمة في الشعر الجاهلي والنثر الجاهلي معاً !! وكذلك كتاب الأغاني ومجمع الأمثال والشواهد كثيرة ، والباحث المختصّ والقارئ المتوسّط قادر على الفرز والعزل من خلال فهارس الموضوعات في الكتب والدوريات ، ومن خلال إحالاتنا التي تعقب المتن الشعري أو المتن النثري .

ثالثاً : ثمة تقليد جليل دأب عليه الدارسون وهو وضع رموز تكشف النقص في معلومة الكتاب مثل د : ت = دون تاريخ . د : مط = دون ذكر المطبعة . د : مك = دون ذكر اسم المكان وقائمة الرموز طويلة ، وقد حاولنا الاستغناء عن ذكر هذه الرموز وسواها مستندين إلى ذكاء القارئ ، فإذا لم نذكر التاريخ فذلك يعني أن الكتاب غفل من ذكر التاريخ ، وإذا لم نذكر اسم المطبعة أو الطبعة فهذا يعني أن الكتاب خال من ذكرهما .. وما يقال عن ذلك يمكن أن يقال عن اسم المحقق أو المترجم أو الناشر .. فلا مسوّغ في رأينا إلى وضع هذه الرموز لتثقل الكتاب وتزيد من مساحة

الكتاب ، وشغلنا هو كتابة المتوفر من المعلومات فقط ، ونستصرخ من هذا المنبر المؤلفين والمحققين والناشرين وندعوهم إلى ذكر المعلومات الخاصة بالكتاب الصادر من اسم المطبعة أو دار النشر ، ومكان الطبع وتاريخه ورقم الطبعة أو أي معلومة تغني صحيفة المصادر والمراجع ، إن ظهور أي كتاب مطبوع دون ذكر اسم المطبعة والمكان والتاريخ يعني أول ما يعني أن إمكان الفائدة من المطبوع ضئيل حتى لا يكاد يرى !! فالبحث العلمي غير قادر على الاستفادة من الكتاب الذي أهمل هذه المعلومات المهمة !!

رابعاً : نحن ميّالون إلى الطريقة العربية في الإحالة وتوثيق الكتاب ! وهي ذكر اسم الكتاب ثم الكاتب فالمهم هو اسم الكتاب وليس الكاتب ، والإحالة منصرفة إلى الكتاب بوصفه خزانة معلومات ، وما الكاتب إلا تبع للكتاب ، بيد أننا مضطرون إلى كبح ميلنا انسجاماً مع التقليد العالمي في صناعة الكتاب ، وهو إيراد المعلومة الخاصة بالكاتب قبل الكتاب ، فنبتدئ بالشهرة أو اللقب ، أو الكنية ، ثم الاسم ، ثم الوفاة (إن كان الكاتب ميتاً) ثم اسم الكتاب ورقم الصفحة بعد الجزء (إن كان الكتاب أجزاءً) ، ثم الطبعة والتاريخ والمكان ، وهذا التقليد العالمي الذي اعتمدته اليونسكو مقتبس من نظام مكتبة الكونجرس الأمريكي الشهيرة التي نعمت بمديرين ذوي شهرة عالمية من نحو الشاعر الأمريكي إرشيبالد مكليش صاحب : لا شيء يحدث / لا أحد يجيء / يا للهول ؛ وإذا صنع الكتاب وفق هذا التقليد أمكن تخزينه في دسكات الكمبيوتر فضلاً عن إمكان حفظه في منظومة الأنترنيت ، واخترنا الأرقام العربية (1 . 2 . 3 . 4 ..) بدلاً من الأرقام الهندية (١ . ٢ . ٣ . ٤ ...) للسبب نفسه .

خامساً : لم نعزل الكتب القديمة عن الجديدة ، ولم نعزل الكتب المطبوعة عن الكتب المخطوطة ، بل لم نعزل الكتب عن المجلات والدوريات إتماماً للفائدة واستناداً إلى الفقرة (رابعاً) ، بل تمادينا إلى الحد الذي سمحنا فيه لأنفسنا بدمج الكتب العربية مع غير العربية ، فالكاتب (J. Monroe) وضعناه في حرف الجيم وفق هذا الترتيب

(جيـ . مونرو) فجاء بعد الجندي ، والكاتبـة (Giffen Lois Anita) وضعنـاهـا في حرف الجيم وفق هـذا الترتيب جفن فجـاءت بعـد الجرجـاني وقبل الجمحي .. فـاقتضت الإشارة .

سادساً : يرد ـ أحياناً ـ اسم المؤلف ، ثم يجد القارئ تكرارنا لاسم الكتـاب فيحـار في الأمر !! والمسوّغ هو أن شغلنا يضطرنا إلى الاستفادة من طبعتين للكتاب الواحـد ، أو تحقيقين أو ترجمتين للعثـور على الضّالـة ؛ فكتـاب الأغـاني لأبي الفرج الأصبهـاني ـ مثـلاً ـ خرج بعـدة طبعـات ونسـخ وتحقيقـات من نحـو طبعـة بـولاق وطبعـة الكتبخانة !! وقد اعتمدنا على هاتين الطبعتين لأسباب بحثية ، وكـذا الحـال مع كتـاب البيان والتبيين للجاحظ !! أما الـدواوين فحـالهـا لا يختلف عمـا ذكرنـا ، ديوان عنترة الـذي اشتغلنـا عليـه نسختـان ؛ الأولى بتحقيق محمـد سعيـد مولـوي والأخرى بتحقيـق الأخوين كاتب .

ثالثاً ـ جريدة المصادر والمراجع (المظانّ) :

+ الإبشيهي . شهـاب الـدين . محمـد بن أحمـد (ت 850 هـ) . المستطرف في كل فنّ مستظرف . طب دار مكتبة الحياة . بيروت .

+ ابن الأبرص . عبيـد . ديـوانـه . تـح حسين نصّار . مـط مصطفى البـابي ـ مصر ـ 1957 .

+ ابن أبي خازم . بشر . ديوانه . تح د . عزة حسن . مـط محمود هـاشم الكتبي . دمشق 1972 .

+ ابن أبي سلمى . زهير . شرح ديـوانـه . صنعـة ثعلب (ت 291 هـ) . طب الـدار القومية ـ القاهرة . 1964 .

+ ابن أبي الصّلت . أمية . أ ـ حياتـه وشعره . تح بهجت عبـد الغفور . مـط العـاني . بغداد 1975 . ب ـ شرح ديوانـه . تح سيف الـدين كاتب وأحمـد عصـام كاتب . طب مكتبة الحياة ـ بيروت .

+ ابن أبي طالب . الإمام علي (رضي الله عنه) (ت 40 هـ) . نهج البلاغة . تح الشيخ محمد عبده . طب دار المعرفة . بيروت .
+ ابن الأثير . مجد الدين المبارك بن محمد (ت 606 هـ) النهاية في غريب الحديث والأثر . تح طاهر الزاوي وصاحبه . طب إحياء الكتب العربية . مصر 1963 .
+ ابن الأجدابي . أبو إسحاق . إبراهيم بن إسماعيل (ت 650 هـ) . تح عزة حسن . مط دار سمير . دمشق 1964 .
+ ابن الأزرق . نافع الحروري (ت 65) . سؤالات نافع بن الأزرق إلى عبد الله بن عباس . تح إبراهيم السامرائي . مط المعارف . بغداد 1968 .
+ ابن إسماعيل . يوسف (ت 635 هـ) . عنترة بن شداد (سيرة شعبية) . طب دار الكتب الشعبية ـ بيروت 1981 .
+ ابن جعفر . أبو الفرج قدامة (ت 337 هـ) . نقد النثر (الكتاب منسوب إلى أبي عبد الله محمد بن أيوب) . طب المكتبة العلمية ـ بيروت 1980 .
+ ابن جنّي . أبو الفتح عثمان (392 هـ) . الخصائص . تح محمد علي النّجار . طب دار الهدى ـ بيروت .
+ ابن حبيب . أبو جعفر محمد (ت 245 هـ) . المحبّر . تح د . إيلزة شتيتر . طب المكتب التجاري . بيروت .
+ ابن حجر . أوس . ديوانه . تح . د . محمد يوسف نجم . طب صادر ـ بيروت ـ 1960 .
+ ابن خلدون . أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت 808 هـ) ـ مقدمة ابن خلدون . طب مؤسسة الأعلمي ـ بيروت .
+ ابن خلّكان . أبو العباس أحمد بن محمد (ت 681 هـ) . وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان . تح . د . إحسان عباس . طب دار صادر ـ بيروت 1977 .
+ ابن زهير . قيس . شعره . صنعة عادل البياتي . مط الآداب . النّجف 1972 .

+ ابن الشجري . أبو السعادات . هبة الله (ت 542 هـ) . مختارات ابن الشجري . تح محمود حسن زناتي . طب دار الكتب العلمية ـ بيروت 1980 .
+ ابن شداد . عنترة . أ ـ شرح ديوانه . تح سيف الدين الكاتب ـ أحمد عصام الكاتب . طب دار مكتبة الحياة ـ بيروت . ب ـ ديوانه . تح محمد سعيد مولوي . مط المكتب الإسلامي 1970 .
+ ابن الصّمة . دريد الجشمي . ديوانه . تح محمد خير البقاعي . طب دار قتيبة . دمشق 1981 .
+ ابن الطفيل . عامر . ديوانه . تح كرم البستاني . طب دار صادر ـ بيروت 1963 .
+ ابن عادياء . السموءل . أ ـ ديوانه . تح الشيخ محمد حسن آل ياسين . مط المعارف ـ بغداد 1955 . ب ـ ديوانا عروة بن الورد والسموءل . تق كرم البستاني . طب دار صادر ـ بيروت .
+ ابن عبدة . علقمة الفحل . شرح ديوانه للأعلم الشنتمري . تح د . جنا نصر . طب دار الكتاب العربي ـ بيروت 1993 .
+ ابن العبد . طرفة . أ ـ ديوانه . تح درية الخطيب ولطفي الصّقّال . طب مجمع اللغة العربية ـ دمشق 1975 . ب ـ ديوانه : تق سيف الدين الكاتب وأحمد عصام الكاتب . طب دار مكتبة الحياة ـ بيروت .
+ ابن عبد ربه . أحمد بن محمد (ت 328 هـ) . العقد الفريد . تح محمد سعيد العريان . طب دار الفكر .
+ ابن علي . حسن . الشاعر العراقي عبد الإله الصائغ يقول : طه حسين اعتسف الشعر الجاهلي ـ مقابلة منشورة في جريدة الأخبار التونسية يوم 1992/1/11 .
+ ابن قتيبة . أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت 276 هـ) .
1 ـ الشعر والشعراء . طب دار إحياء العلوم ـ بيروت 1987 .
2 ـ المعارف . تح د . ثروت عكاشة . مط دار المعارف ـ مصر 1969 .

3 ـ عيون الأخبار . طب المؤسسة المصرية للتأليف . القاهرة 1963 .
4 ـ الأنواء في مواسم العرب . طب حيدرآباد الدكن في الهند . 1956 .
+ ابن الكلبي . أبو المنذر هشام بن محمد السائب (ت 204 هـ) .
أ ـ الأصنام . تح أحمد زكي . طب الدار القومية . مصر 1965 .
ب ـ أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام وأخبارها . تح أحمد زكي (نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب) . طب الدار القومية للطباعة . مصر 1965 .
+ ابن مرداس . العباس . ديوانه . تح يحي الجبوري . طب بغداد 1968 .
+ ابن مقبل . تميم . ديوانه . تح د . عزة حسن . طب إحياء التراث . دمشق 1962 .
+ ابن النديم . أبو الفرج محمد بن إسحاق (ت 385 هـ) . الفهرست . تح الشيخ إبراهيم رمضان . طب دار المعرفة . بيروت 1997 .
+ ابن منظور . أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرّم (ت 711 هـ) . لسان العرب . طب ثالثة ـ دار صادر ـ بيروت 1994 .
+ ابن منقذ . أسامة (ت 284 هـ) . لباب الآداب . طب دار الكتب العلمية ـ بيروت 1980 .
+ ابن الورد . عروة .
أ ـ ديوانه . تح عبد المعين الملوحي . طب وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ، 1966 .
ب ـ ديوانا عروة والسموءل . تق كرم البستاني . طب دار صادر بيروت .
+ ابن يعمر لقيط . ديوانه . تح د . عبد المعين خان . طب مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ 1987 .
+ أبو ريان . د . محمد علي . تاريخ الفكر الفلسفي .
+ أبو شريفة . د . عبد القادر حسين وحسين لافي قزق . مدخل إلى تحليل النص الأدبي . طب دار الفكر ـ عمان ـ 1963 .

+ أبو العلا . محمود طه . جغرافية شبه الجزيرة العربية . طب القاهرة ـ 1956 .
+ أحمد . د . إمام إبراهيم . تاريخ الفلك عند العرب . مط دار القلم ـ مصر ـ 1960 .
أدونيس . ديوان الشعر العربي . طب المكتبة العصرية ـ بيروت ـ 1964 .
+ الإرياني . مطهر علي . نقوش مسندية وتعليقات . طب مركز الدراسات والبحوث اليمني 1990 .
+ الأزرقي . أبو الوليد . محمد بن عبد الله (ت 250 هـ) . أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار . طب دار الأندلس ـ بيروت 1969 .
+ الأسد . د . ناصر الدين . مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية . طب دار الجيل . بيروت 1988 .
+ الأصبهاني . أبو الفرج . علي بن الحسين (ت 356) .
أ ـ الأغاني . طب روائع التراث ـ بيروت 1970 . (بولاق) . 20 جزءاً .
ب ـ الأغاني . طب مؤسسة عز الدين ـ بيروت (كتبخانة) .
+ اصطيف . عبد النبي . نظرة في تحديث الأجناس الأدبية . مجلة الناقد . لندن . العدد الثامن . شباط ـ فبروري 1989 ـ السنة الأولى .
+ الأصمعي . أبو سعيد . عبد الملك بن قريب (ت 216 هـ) . الأصمعيات . تح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون . طب دار المعارف . مصر 1964 .
+ الأعشى (ميمون بن قيس) . ديوانه . تح د. محمد محمد حسين . طب دار النهضة العربية . بيروت 1974 .
+ أليوت . ت . س . الأرض اليباب (الشاعر والقصيدة) . تر . د . عبد الواحد لؤلؤة . طب المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت 1995 .
+ امرؤ القيس . ديوانه . تح محمد أبو الفضل إبراهيم . طب دار المعارف . مصر 1969 .
+ أمين . أحمد . ضحى الإسلام . طب لجنة التأليف . القاهرة 1964 .
+ الأنباري . أبو بكر . محمد بن القاسم (ت 338 هـ) ، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات . تح . عبد السلام هارون . طب دار المعارف مصر .

+ بافقيه . محمد عبد القادر . تاريخ اليمن القديم . المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت 1985 .
+ باقر . طه :
أ ـ ملحمة جلجامش (تروتق) . طب دار الحرية ـ بغداد 1980 .
ب ـ مقدمة في أدب العراق القديم . طب دار الحرية ـ بغداد 1976 .
+ البحتري . أبو عبادة . الوليد بن عبيد (ت 284 هـ) . الحماسة . تح لويس شيخو . طب دار الكتاب العربي ـ بيروت 1967 .
+ البخاري . محمد بن إسماعيل (ت 256 هـ) . صحيح البخاري 54/5 . طب دار إحياء التراث العربي ـ بيروت .
+ بدوي . د . عبده . الشعراء السّود وخصائصهم في الشعر العربي . طب الهيئة المصرية . القاهرة 1973 .
+ بريل . ليفي . العقلية البدائية . تر د . محمد القصاص . طب مكتب مصر ـ القاهرة .
+ البستاني . بطرس (ت 1969 م) . الشعر الجاهلي . طب دار المعلم . بيروت 1965 .
+ البستاني . فؤاد إفرام .
أ ـ دائرة المعارف . مط الأدبية ـ بيروت 1887 .
ب ـ الشعر الجاهلي . مط الكاثوليكية ـ بيروت 1958 .
+ البصري . صدر الدين علي بن أبي الفرج (ت 629 هـ) . الحماسة البصرية . تح مختار الدين أحمد . طب عالم الكتب ـ بيروت 1983 .
+ البطل . د . علي . الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري . طب دار الأندلس 1980 .
+ البطليوسي . أبو بكر . عاصم بن أيوب (ت 494 هـ) . شرح الأشعار الستة الجاهلية . تح ناصيف عواده . مط دار الحرية ـ بغداد 1979 .

+ البغدادي . عبد القاهر بن عمر (ت 1093 هـ) . خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب . تح عبد السلام . محمد هارون . طب دار الكتاب العربي ـ القاهرة 1967 .

+ البغدادي . محمد بن المبارك (ت 589 هـ) . قصائد نادرة من كتاب منتهى الطلب من أشعار العرب . تح . حاتم صالح الضامن . طب مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ 1983 .

+ البقاعي . د . شفيق . الأنواع الأدبية مذاهب ومدارس . طب مؤسسة عز الدين . بيروت 1985 .

+ بكر . د . منذر . مساهمة العرب في التراث اليوناني قبل الإسلام . مجلة المورد العراقية . مجلد 8 . عدد 2 . سنة 1979 .

+ البلاذري . أحمد بن يحي بن جابر (ت 279 هـ) . فتوح البلدان . طب مكتبة مصر 1956 .

+ بلاشير . د . ريجس . تاريخ الأدب العربي . تر . د . إبراهيم الكيلاني . طب دار الفكر ـ دمشق 1984 .

+ بنت بدر . الخرنق . ديوانها . تح يسري عبد الغني . طب دار الكتب العلمية . بيروت 1990 .

+ البهبيتي . نجيب محمد . المعلقات (سيرةً وتاريخاً) . طب دار الثقافة . الدار البيضاء . المغرب 1982 .

+ بروكلمن . كارل . تاريخ الأدب العربي . تر د . عبد الجبار النجار . طب دار المعارف بمصر 1977 .

+ البياتي . د . عادل .

أ ـ شعر الأحناف دراسة وتحليل . مجلة آداب المستنصرية ـ بغداد ـ عدد 5 ـ سنة 1980 .

ب ـ تحديد مصطلح الجاهلية والأُمّية في التراث العربي والإسلامي . مجلة كلّية الآداب . جامعة بغداد . عدد 27 . سنة أولى 1979 .

+ تأبّط شرّاً . ديوانه . تح علي ذو الفقار شاكر . طب دار الغرب الإسلامي ـ بيروت 1984 .

+ التبريزي . أبو زكرياء . يحي بن علي (ت 502 هـ) .

أ ـ شرح القصائد العشر . تح . د . فخر الدين قباوة . طب المكتبة العربية ـ حلب 1973 .

ب ـ ديوان الحماسة . طب بولاق (1296 هـ) . تح محمد محي الدين عبد الحميد . مط حجازي ـ مصر 1938 .

+ التهانوي . محمد علي بن علي . كشاف اصطلاحات الفنون . طب شركة خياط ـ بيروت .

+ تيغم . ب . فان . الأدب المقارن . تعريب سامي الحسامي . طب المكتبة العصرية ـ بيروت .

+ الثعالبي . أبو منصور . عبد الملك بن محمد (ت 429 هـ) . التمثيل والمحاضرة . تح عبد الفتاح الحلو . طب دار إحياء الكتب ـ القاهرة 1961 .

+ ثعلب . أحمد بن يحي (ت 291 هـ) . مجالس العلماء . تح عبد السلام هارون . طب دار المعارف ـ مصر 1369 .

+ الجاحظ . أبو عثمان عمرو بن بحر (ت 255 هـ) .

1 ـ البيان والتبيين . تح حسن السندوبي . طب دار إحياء العلوم ـ بيروت 1993 .

2 ـ الحيوان . تح عبد السلام هارون . طب مصر 1938 .

الحيوان . تح فوزي عطوي ـ بيروت 1968 .

+ الجادر . د . محمد . شعر أوس بن حجر ورواته الجاهليين . طب دار الرسالة ـ بغداد 1979 .

+ جاد المولى . محمد أحمد وعلي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم . أيام العرب في الجاهلية . طب المكتبة العصرية . صيدا ـ بيروت .
+ الجباوي . محمد فتاح عبد . الموثبات في الشعر العربي قبل الإسلام . رسالة ماجستير ـ كلّية الآداب . جامعة بغداد 1981 .
+ الجبوري . د . يحيى .
1 ـ حركة الأحناف في الجاهلية . مجلة المعارف . عدد 9 ، أيلول سبتمبر 1962 .
2 ـ الإسلام والشعر . طب بغداد 1964 .
3 ـ الشعر الجاهلي وخصائصه وفنونه . طب جامعة قار يونس ـ بنغازي ـ ليبيا 1993 .
+ الجرجاني . عبد القاهر . (ت 471 هـ) . دلائل الإعجاز . تح محمد رضوان الداية وصاحبه . طب مكتبة سعد الدين ـ دمشق 1987 .
GIFFEN. LOIS. ANITA. THEORY OF PROFANE LOVE AMONG THE ARABS. THE DEVELOPMENT OF THE GENRE. NEW YORK. UNIVERSITY. PRESS. ND.
+ الجمحي . أبو عبد الله . محمد بن سلام (ت 232 هـ) . طبقات الشعراء . تح د . عمر فاروق الطباع . طب دار الأرقم ـ بيروت 1997 .
+ الجندي . د . عبد الحميد سند . زهير بن أبي سلمى شاعر السِّلم في الجاهلية . طب الدار القومية . القاهرة .
+ الجودي . شاكر . إلمامة بالرجز في الجاهلية . مط العاني ـ بغداد 1966 .
+ الجوزو . د . مصطفى . نظريات الشعر عند العرب ـ الجاهلية والعصور الإسلامية . طب دار الطليعة ـ بيروت 1981 .
+ جياووك . د . مصطفى عبد اللطيف . الحياة الموت في الشعر الجاهلي . مط دار الحرية بغداد 1977 .

J. MONROE. ORAL COMPOSITION IN PRE-ISLAMIC POETRY. JOURNAL OF ARABIC LITERATURE. VOL. III. 1972. BRILL-LEIDEN.

+ الحاج حسن . د . حسين . أدب العرب في عصر الجاهلية . طب المؤسسة الجامعية للدراسات ـ بيروت 1984 .

+ حتّي . فيليب وآخرون .

1 ـ تاريخ العرب . طب دار غندور ـ بيروت 1974 .

2 ـ العرب تاريخ موجز . طب دار العلم للملايين ـ بيروت 1946 .

+ حرب . حمدي مصطفى . قصة الزمن . مط الثقافية ـ مصر 1970 .

+ حسنين . د . سيد حنفي . الشعر الجاهلي . مراحله واتّجاهاته الفنّية . مط الثقافية ـ مصر 1971 .

+ حسين . د . طه .

1 ـ في الشعر الجاهلي . طب دار المعارف ـ سوسة ـ تونس 1997 . مصورة عن دار الكتب المصرية .

2 ـ في الأدب الجاهلي . طب دار المعارف ـ مصر 1927 .

+ الحطيئة . ديوانه . شرح ابن السّكيت والسّجستاني . تح نعمان أمين طه . مط مصطفى البابي الحلبي 1958 .

+ حفني . د . عبد الحليم . شعر الصعاليك منهجه وخصائصه . طب الهيئة المصرية العامة للكتاب 1987 .

+ الحموي . ياقوت . شهاب الدين أبو عبد الله (ت 626 هـ) . معجم البلدان . طب إحياء التراث العربي ـ بيروت 1997 .

+ الحوت . محمود سليم . في طريق الميتالوجيا عند العرب . طب مؤسسة خليفة ـ بيروت 1979 .

+ الحوراني . يوسف . البنية الحضارية في الشرق المتوسطي الآسيوي القديم . طب دار النهار ـ بيروت 1978 .
+ الحوفي . د . أحمد .
1 ـ أغاني الطبيعة في الشعر الجاهلي . مط الرسالة ـ مصر 1958 .
2 ـ الحياة العربية من الشعر الجاهلي . طب الهيئة المصرية العامة ـ القاهرة 1972 .
+ خليف . د . يوسف . الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي . مط دار المعارف ـ مصر ـ 1959 .
+ الخنساء . ديوانها . تح عبد السلام الحوفي . طب دار الكتب العلمية ـ بيروت .
+ الدّباغ . سالم . أدب المعدمين في كتب الأولين . مط اللواء ـ بغداد 1971 .
+ الدّميري . كمال الدين محمد بن عيسى (ت 808 هـ) . حياة الحيوان الكبرى . طب دار الألباب .
2 ـ الهجاء والهجّاؤون في الجاهلية . طب دار النهضة ـ بيروت 1970 .
+ مرتاض . د . عبد الملك . شعرية القصيدة قصيدة القراءة . طب دار المنتخب العربي . بيروت 1994 .
+ المرتضى . الشريف علي بن الحسين العلوي (ت 436 هـ) . أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد) . تخ محمد أبو الفضل إبراهيم . طب دار الكتاب العربي . بيروت 1967 .
+ المرزباني . أبو عبيد الله محمد بن عمران (ت 384) .
1 ـ الموشح في مآخذ العلماء على الأدباء . تح علي محمد البجاوي . طب لجنة البيان العربي 1965 .
2 ـ أشعار النّساء . تح سامي مكّي العاني وهلال ناجي . مط دار الرسالة ـ بغداد 1976 .

+ المرزوقي . أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن (ت 421 هـ) .
1 ـ الأزمنة والأمكنة . طب مجلس دائرة المعارف ـ الهند ـ حيدرآباد الدكن 1332 هـ .
2 ـ شرح ديوان الحماسة . تح أحمد أمين وعبد السلام هارون . طب لجنة التأليف والنشر . القاهرة 1967 .
+ المسعودي . أبو الحسن علي بن الحسين (ت 306 هـ) . مروج الذهب . تح محمد محي الدين عبد الحميد . مط السعادة . مصر 1964 .
+ مطلوب . د . أحمد . معجم المصطلحات البلاغية وتطورها . طب مكتبة لبنان ناشرون . بيروت 1996 .
+ المعري . أبو العلاء أحمد بن عبد الله (ت 449 هـ) . رسالة الغفران . طب دار الكتب العلمية ـ بيروت 1990 .
+ المقالح . د . عبد العزيز .
أ ـ مقدمة (انظر مطهر علي . نقوش مسندية وتعليقات) .
ب ـ البحث عن طفولة بلقيس في قرية سحر . جريدة الثورة اليمنية 1998/11/24 .
جـ ـ أصوات من الزمن الجديد (دراسة في الأدب العربي المعاصر) . طب دار العودة ـ بيروت 1980 .
د ـ البدايات الجنوبية . طب دار الحداثة ـ بيروت 1986 .
+ المقتطف . مجلة مصرية . عدد مارس 1933 .
+ الملوحي . عبد المعين . المنصفات . جمع وتحقيق . طب دمشق 1967 .
+ مليطان . عبد الله سالم . التفكير الأسطوري في الإسرائيليات . طب دار مداد ليبيا 1998 .
+ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ تونس 1986 .

+ مهران . د . محمد بيومي . دراسات في تاريخ العرب القديم . طب دار المعرفة الجامعية ـ مصر 1993 .
+ الميداني . أبو الفضل أحمد بن محمد (ت 518 هـ) . مجمع الأمثال . ضبط وتعليق سعيد محمد اللحام . طب دار الفكر ودار نوبليس ـ بيروت 1992 .
+ الميني . عبد العزيز الراجاكوتي . الطرائف الأدبية (شعر الأفوه الأودي والشنفرى وتسع قصائد نادرة) . طب دار الكتب العلمية ـ بيروت .
+ هارون . عبد السلام محمد . تهذيب سيرة ابن هشام . طب مكتبة السنة ـ مصر 1989 .
+ الهاشمي . د . علي . المرأة في الشعر الجاهلي . مط المعارف . بغداد 1960 .
+ الهمداني . لسان اليمن . الحسن بن أحمد (ت 334 هـ) . صفة جزيرة العرب . تح محمد بن الأكوع . طب مكتبة الإرشاد ـ صنعاء 1990 .
+ الذبياني . النابغة . ديوانه . تح عباس عبد الساتر . طب دار الفكر العلمية ـ بيروت 1984 .
+ الرازي . أبو حاتم . أحمد بن حمدان (ت 322 هـ) . كتاب الزينة . تح حسين الهمداني الحرازي . طب مركز الدراسات والبحوث اليمني . صنعاء 1994 .
+ رومية . وهب . الرحلة في القصيدة الجاهلية . طب اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين 1975 .
+ الزبيدي . عمرو بن معديكرب . ديوانه . تح هاشم الطعان . طب بغداد 1970 .
+ الزجاجي . أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق (ت 339 هـ) . مجالس العلماء . تح عبد السلام هارون . مط المدني ـ مصر 1983 .
+ زكي . د . أحمد كمال . شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي . طب دار الكاتب العربي ـ القاهرة 1969 .
+ الزمخشري . أبو القاسم جار الله محمود بن عمر (ت 538 هـ) . أساس البلاغة . تح عبد الرحيم محمود . طب دار المعرفة ـ بيروت .

+ الزوزني . أبو عبد الله الحسين بن أحمد (ت 486 هـ) . طب دار الحكمة . دمشق 1980 .

+ زيدان . جرجي . تاريخ آداب اللغة العربية . طب دار الهلال ـ مصر .

+ السامرائي . د . عبد الله سلوم . الشعوبية حركة مضادة للإسلام والأمة العربية . طب دار الحرية ـ بغداد 1980 .

+ سبينوزا . رسالة في اللاهوت والسياسة . تر . د . حسن حنفي . طب الهيئة المصرية للتأليف 1971 .

+ السجستاني . أبو حاتم سهل بن محمد (ت 255 هـ) .

1 ـ سؤالات أبي حاتم السجستاني للأصمعي . تح . د . عبود أبو جري . طب المكتبة الثقافية الدينية 1994 .

2 ـ المعمّرون والوصايا . تح عبد المنعم عامر . طب إحياء الكتب ـ القاهرة 1961 .

+ السدوسي . أبو فيد . مؤرج بن عمرو (ت 195 هـ) . الأمثال . تح د . رمضان عبد التّواب . مط الثقافية ـ مصر 1971 .

السندوبي . حسن . أخبار المراقسة وأشعارهم في الجاهلية وصدر الإسلام . مط الاستقامة ـ القاهرة 1959 .

+ السهيلي . عبد الرحمن بن عبد الله (ت 581 هـ) . الروض الأنف في شرح السيرة النّبوية لابن هشام . تح عبد الرحمن الوكيل . حلب دار النصر . مصر 1970 .

+ سوسة . د . أحمد . حضارة العرب ومراحل تطورها . طب دار الحرية بغداد 1979 .

+ السيوطي . جلال الدين عبد الرحمن بن كمال الدين (ت 911 هـ) .

1 ـ تاريخ الخلفاء . تح قاسم الرفاعي ومحمد العثماني . طب دار الأرقم . بيروت .

2 ـ المزهر . تح محمد جاد المولى وصاحبيه . طب دار إحياء الكتب ـ مصر .

3 ـ الوسائل إلى مسامرة الأوائل . تح د . أسعد طلس . مط النجاح ـ بغداد 1950 .
+ الشايب . أحمد . تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني . مط السعادة . مصر 1976 .
+ الشرجبي . عبد السلام . من شريط ذكريات التاريخ العربي . جريدة الجمهورية اليمنية . الخميس 1998/12/31 .
+ الشنتمري . يوسف بن سليمان بن عبس (ت 476 هـ) . أشعار الشعراء الستة الجاهليين . تح محمد عبد المنعم خفاجي . طب المشهد الحسيني ـ القاهرة 1963 .
+ الشنتقيطي . أحمد بن الأمين (ت 331 هـ) . المعلقات العشر وأخبار شعرائها . طب دار الكتب العلمية ـ بيروت 1997 .
+ الشهرستاني . أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت 548 هـ) . الملل والنّحل . تح محمد سيد كيلاني . طب دار المعرفة ـ بيروت 1975 .
+ شيخو . الأب لويس اليسوعي (ت 1927 م) . النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية . طب المكتبة اليسوعية ـ بيروت 1933 .
+ الصائغ . د . عبد الإله .
1 ـ الخطاب الشعري الحداثوي والصورة الفنّية (الحداثة وتحليل النّص) . طب المركز الثقافي العربي ـ بيروت 1999 .
2 ـ الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنّية (القدامة وتحليل النص) . طب المركز الثقافي العربي . بيروت 1997 .
3 ـ الصورة الفنّية معياراً نقدياً . طب دار الشؤون الثقافية ـ بغداد 1987 .
4 ـ الإبداع العربي الجاهلي بين الواقع والتوقع . طب الموسوعة الصغيرة ـ بغداد 1988 .
5 ـ الفتوة العربية رؤية جديدة . جريدة الجمهورية ـ بغداد 1985/8/23 .

6 ـ صحيفة لقيط (تحليل النص) . مجلة الطليعة الأدبية ـ بغداد . شباط فبروري 1979 .

7 ـ الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام . طب كويت تايمس ـ الكويت 1982 .

8 ـ ربيعة الكناني حمى قومه حياً وميتاً . جريدة القادسية ـ بغداد 1981/5/30 .

+ الصائغ . يوسف . الشعر الحرفي العراق منذ نشأته حتى عام 1958 . مط الأديب البغدادية 1978 .

+ الصكّر . د . حاتم . مرايا نرسيس . طب المؤسسة الجامعية للدراسات ـ بيروت 1999 .

+ الضبّي . المفضل محمد بن يعلى الكوفي (ت 178 هـ) . المفضّليات . تح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون . طب دار المعارف ـ مصر 1992 .

+ الضبعي . المتلمس . ديوان شعره . تح حسن كامل الصيرفي . طب معهد المخطوطات العربية ـ القاهرة 1968 .

+ ضيف . د . شوقي . العصر الجاهلي . طب دار المعارف ـ مصر 1960 .

+ الطائي . حاتم . ديوانه وأخباره . تح د . عادل سليمان جمال . مط المدني . القاهرة .

+ طبانة . د . بدوي . معلقات العرب . طب الرسالة ـ مصر 1958 .

+ العاكوب . د . عيسى علي . التفكير النقدي عند العرب . طب دار الفكر ـ دمشق 1997 .

+ العامري . لبيد بن ربيعة . ديوانه . طب دار صادر ـ بيروت .

+ عبد الباقي . محمد فؤاد . المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم . طب دار الكتب المصرية 1945 .

+ عبد الله . د . يوسف محمد . ترنيمة الشمس (نقش القصيدة الحميرية صورة من الأدب في اليمن القديمة) . طب مركز الدراسات والبحوث اليمني . صنعاء 1989 .

+ عبود . د . عبدة . الأدب المقارن مدخل نظري ودراسات تطبيقية . طب مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية . سورية 1992 .

+ عثمان . د . أحمد . الأدب اللاتيني ودوره الحضاري . طب عالم المعرفة ـ الكويت 1989 .

+ عصفور . د . جابر . الصورة الفنّية في التراث النقدي والبلاغي . طب دار الثقافة ـ مصر 1974 .

+ العقاد . عباس محمود . الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين . طب دار القلم ـ مصر .

+ العكبري . أبو البقاء . عبد الله بن الحسين (ت 616 هـ) . شرح لامية العرب . تح د . محمد الحلواني . طب دار الآفاق الجديدة ـ بيروت 1983 .

+ العلوي . محمد أحمد بن طباطبا . (ت 322) . عيار الشعر . تح عباس عبد الساتر . طب دار الكتب العلمية . بيروت 1982 .

+ علي . د . جواد . المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام . طب دار العلم للملايين . بيروت 1971 .

+ علي . د . عبد الرضا .

أ ـ نازك الملائكة الناقدة . طب المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت 1995 .

ب ـ موسيقى الشعر العربي قديمه وحديثه . طب دار الشروق . عمان 1997 .

+ علي . د . فاضل عبد الواحد . عشتار ومأساة تموز . مط الجمهورية . بغداد . 1973 .

+ عنتَرة .

1 ـ ديوانه . تح محمد سعيد مولوي . مط المكتب الإسلامي 1970 .

2 ـ شرح ديوانه . تح سيف الدين الكاتب وأحمد عصام الكاتب . طب دار مكتبة الحياة . بيروت .

+ الغذامي . د . عبد الله . القصيدة والنص المضاد . طب المركز الثقافي العربي . بيروت 1994 .

+ غريب . جورج . شاعرات العرب في الجاهلية . طب دار الثقافة . بيروت 1984 .

+ فادي . ج . ك . الغزل عند العرب . تر . د . إبراهيم الكيلاني . طب وزارة الثقافة . دمشق 1979 .

+ فاضل . عبد الحق . تاريخهم من لغتهم . طب دار الحرية . بغداد 1977 .

+ فخر الدين . جودت . الإيقاع والزمان . طب دار المناهل ودار الحرف العربي ـ بيروت 1995 .

+ الفرزدق . (ت 110 هـ) ديوانه . شرح علي فاعور . طب دار الكتب العلمية . بيروت 1987 .

+ فريزر . سيرجيس . (ت 1941 م) . الغصن الذهبي (The Golden Bough) تر . أحمد أبو زيد وآخرين . مط الثقافية . مصر 1971 .

+ القرشي . أبو زيد بن الخطاب (من رجال القرن 3 هـ) . جمهرة أشعار العرب . طب دار صادر . بيروت .

+ القزويني . زكرياء بن محمد (ت 682) . آثار البلاد وأخبار العباد . طب دار صادر . بيروت .

+ القشيري . أبو الحسن مسلم بن الحجاج النيسابوري . (ت 261 هـ) . صحيح مسلم . تح محمد فؤاد عبد الباقي . طب إحياء التراث العربي . بيروت .

+ قطرب . محمد بن المستنير (ت 206) . الأزمنة وتلبيات الجاهلية . تح . د . حنا جميل حداد . طب مكتبة المنار ـ الزرقاء ـ الأردن 1985 .

+ القيرواني . أبو علي الحسين بن رشيق (ت 456) . العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده . تح محمد محي الدين عبد الحميد . طب دار الجيل . بيروت 1972 م .
+ القيسي . د . نوري .
1 ـ الفروسية في الشعر الجاهلي . طب دار التضامن . بغداد 1964 م .
2 ـ وحدة الموضوع في القصيدة الجاهلية . طب دار الكتاب . جامعة الموصل 1974 م .
+ القيسي . د . نوري ود . عادل البياتي ود . مصطفى عبد اللطيف . تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام . طب دار الحرية . بغداد 1979 م .
+ كحالة . عمر رضا .
1 ـ أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام . مط الهاشمية . دمشق 1959 م .
2 ـ الأدب العربي في الجاهلية والإسلام . مط التعاونية . دمشق 1972 م .
+ كشلي فواز . د . حكمت .
1 ـ كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي . طب دار الكتب العلمية . بيروت 1996 م .
2 ـ لسان العرب لابن منظور دراسة وتحليل ونقد . طب دار الكتب العلمية . بيروت 1996 م .
+ اللامي . د . جبار عباس . شعر المرأة في العصر الجاهلي . طب مركز عبادي للدراسات والنشر . صنعاء 1998 م .
+ لوبون . غوستاف . حضارة العرب . تر عادل زعتير . طب إحياء التراث . بيروت 1979 م .
LODGE. DIVID. 20 TH CENTURY LITERARY CRITICISIM (LONG-MAN) GROUP LIMITED. LONDON 1972.

+ مـارجليوث . أصول الشعر العربي . تر . د . يحي الجبوري . طب مؤسسـة الرسـالـة 1978 . بيروت .
+ المبرد . أبـو العبـاس . محمـد بن يـزيـد (ت 285) . الكامـل . طب دار المعـارف . بيروت 1985 م .
+ المجذوب . د . عبد الله الطيب . المرشد إلى فهم أشعـار العرب وصنـاعتهـا . طب دار الفكر . بيروت 1970 م .
+ محمد حسين . د . محمد .
1 ـ أساليب الصناعة في شعر الخمرة والناقة بين الأعشى والجاهليين . طب دار نشر الثقافة 1960 م .

الدكتور عبد الإله الصائغ المؤلفات المطبوعة

أ) كتب تحليل النّص (نقد وبلاغة) :

1) الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام . الطبعة الأولى ـ مطبعة كويت تايمس ـ الكويت ـ 1982 ـ الطبعة الثانية ـ دار الشؤون الثقافية ـ بغداد 1986 م ـ الطبعة الثالثة ـ دار عصمي ـ القاهرة 1996 م .

2) الصورة الفنّية في شعر الشريف الرّضي (خطاب البلاغة وبلاغة الخطاب) طبعة دار الشؤون الثقافية ـ بغداد 1984 م .

3) الصورة الفنّية معياراً نقدياً ـ الطبعة الأولى ـ دار الشؤون الثقافية ـ بغداد 1987 م ـ الطبعة الثانية ـ هيئة النشر المشترك ـ القاهرة ـ 1988 م ـ الطبعة الثالثة ـ طبعة دار عصمي ـ القاهرة ـ 1996 م .

4) الإبداع الأدبي العربي بين الواقع والتوقع ـ طبعة الموسوعة الصغيرة ـ بغداد ـ 1988 م .

5) الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنّية (القدامة وتحايل النّص) ـ طبعة المركز الثقافي العربي ـ بيروت ـ كازابلانكا ـ 1997 .

6) الخطاب الشعري الحداثوي والصورة الفنّية (الحداثة وتحليل النص) ـ طبعة المركز الثقافي العربي ـ بيروت ـ كازابلانكا ـ 1998 م .

7) إشكالية القصة وآلية الرواية ـ طبعة دار النخلة ـ طرابلس ـ ليبيا ـ 1998 م .

8) بكائيات على مقام العشق النزاري (بالاشتراك مع الدكتور سعدون السويح) ـ طبعة مكتبة طرابلس العالية ـ ليبيا 1998 .

ب) الكتب الإبداعية :

1 ـ ديوان (عودة الطيور المهاجرة) ـ طبعة الغري ـ النجف ـ العراق ـ 1970 م .

2 ـ قصص أطفال (حالم بابلي) ـ طبعة دار المعري ـ بغداد ـ العراق ـ 1974 م .

3 ـ ديوان (هاكم فرح الدماء) ـ طبعة دار الساعة ـ بغداد ـ العراق ـ 1974 م .

4 ـ ديوان (مملكة العاشق) ـ طبعة دار الشؤون الثقافية ـ بغداد ـ العراق ـ 1980 م .

5 ـ ديوان (أغنيات للأميرة النائمة) ـ طبعة دار الشؤون الثقافية ـ بغداد ـ العراق ـ 1990 م .

6 ـ ديوان (سنابل بابل) ـ طبعة دار الشروق ـ عمان ـ رام الله ـ 1997 م .

المحتوى

الموضوع الصفحة

أ ـ أول الغيث ٥

ب ـ الكشاف المفصل ـ الأدب الجاهلي وبلاغة الخطاب ٧

مقدمة الكتاب (سنابل بين يدي الكتاب) ٢١

الأطروحة الأولى

مهاد وإضاءات ٣٣

الفصل الأول ـ الأدب الجاهلي بين الكيف والكم ٣٣

الفصل الثاني ـ عصور الأدب ٦٢

الفصل الثالث ـ تفكيك المصطلحات ٧٢

كينونة النقد الجاهلي (هوامش وإشارات) ١٠١

الفصل الرابع ـ أولاً: الأدب الجاهلي في حاضنة البيئة ١١٣

الفصل الخامس ـ جاهلية المجتمع العربي قبل الإسلام ١٢٢

الأطروحة الثانية

الشعر الجاهلي ١٣١

الفصل الأول ـ نشأة الشعر وأوليته ١٣٣

الفصل الثاني ـ الشعر الجاهلي بين الرواية والتدوين وطبقات الرواة ١٤٩

طبقات الرواة ١٦٢

الرواة الشعراء ١٦٣

رواة الشعر ١٦٤
رواة القبيلة ١٦٥
الرواة العلماء ١٦٦
الرواة الوضاعون ١٦٧
الفصل الثالث ـ نظرية الشك بالشعر الجاهلي (آراء القدامى والمستشرقين والمحدثين)، نظرية قبالة نظرية (محاورة منطق الشك) ١٧٠
أدلة أصحاب نظرية الشك ١٧٩
نقيض نظرية الشك ١٨٢
الفصل الرابع ـ شياطين الشعراء ١٨٧
الفصل الخامس ـ المعلقات وشعراؤها ١٩٨
المعلقات الست ١٩٨
المعلقات السبع ١٩٩
المعلقات الثمان ٢٠٠
المعلقات التسع ٢٠٠
المعلقات العشر ٢٠٠
تقويم المعلقات ٢٠٣
المعلقات بين دلالتي اللغة والاصطلاح ٢٠٨
المعلقات: تراجم ومختارات ٢١٤
1- امرؤ القيس ٢١٧
2- طرفة بن العبد ٢٢٤
3- زهير بن أبي سلمى ٢٣٢
4- لبيد بن ربيعة العامري ٢٤٢

5-عنترة العبسي ٢٦١
6-عمرو بن كلثوم ٢٨١
7-الحارث بن حلزة اليشكري ٢٩٥
8-ميمون بن قيس البكري (الأعشى الكبير) ٣٠٩
9-النابغة الذبياني ٣٢٣
10-عبيد بن الأبرص ٣٤١
الفصل السادس ـ الفروسية وشعراؤها ٣٥١
التماهي بين الفروسية والفتوة ٣٦٠
خصائص شعر الفروسية ٣٧٥
الفصل السابع ـ الصعلكة وشعراؤها ٣٧٨
خصائص شعر الصعاليك ٣٩٧
الفصل الثامن ـ موضوعات الشعر الجاهلي ٣٩٩
1-الغزل ٤٠٢
2-المديح ٤٠٧
3-الارتزاق ٤١٠
4-الرثاء ٤١١
5-الاعتذار ٤١٤
6-الهجاء ٤١٧
7-الفخر ٤٢٠
8-التوثيب ٤٢٣
9-السلام ٤٢٨
10-الحكمة ٤٢٩

11-الدين ٤٣٦
12-الوصف ٤٤٣
الفصل التاسع ـ خصائص الشعر الجاهلي ٤٥٠

الأطروحة الثالثة

النثر الفني الجاهلي ٤٧٩

مقدمة (مأزق الخطاب النثري والفني القبسلامي) ٤٨١
تمهيد (أوراق النثر الفني) ٤٩١
1-الخطابة ٤٩٧
خطباء العرب ٤٩٩
أ ـ قس بن ساعدة الإيادي ٤٩٩
خطبة قس ٥٠٠
ب ـ خطبة النعمان بن المنذر في بلاط كسرى ٥٠١
أغراض الخطبة الجاهلية ومساحتها ٥٠٢
2-الأمثال ٥٠٤
أمثلة جاهلية ٥٠٩
3-سجع الكهان ٥١٠
4-المنافرة ٥١٤
5-الحكاية ٥٢٦
ـ حكايات جاهلية ٥٣٠
6-الوصايا ٥٣٦
7- المعاهدات والأحلاف ٥٣٩
8- الرسائل ٥٣٩
9- الوصف ٥٤١

خصائص النثر الفني الجاهلي ٥٤٤
مصادر الأدب الجاهلي ومراجعه..... ٥٤٧
أولاً ـ مصادر الأدب الجاهلي ومراجعه (تأصيل وإضاءات)..... ٥٤٧
ثانياً ـ جريدة المصادر والمراجع (إشارات)..... ٥٥٣
ثالثاً ـ جريدة المصادر والمراجع (المظانّ)..... ٥٥٥
الدكتور عبد الإله الصائغ ـ المؤلفات المطبوعة..... ٥٧٥
كتب تحليل النص (نقد وبلاغة)..... ٥٧٥
الكتب الإبداعية ٥٧٥